الدكتور عبد الحميد سند الجندي

حافظ إبراهيم
شاعر النيل



حَافظ إبراهيم

شاعر النيل

مكتبة الدراسات الأدبية
١٣

حافظ إبراهيم
شاعر النيل

تأليف
الدكتور عبد الحميد سند الجندى

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

عندما ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى منذ سنوات استقبله بعض الأدباء بالرضا والارتياح ، وأزجوا إلىّ التهنئة خالصة والشكر جزيلا ، لأنهم وجدوا فيه — على حد قولهم — دراسة واعية منصفة بريئة من التحيّف والهوى ، وكان القصد منها خدمة الحق والأدب والفن جميعاً .

واستقبله البعض الآخر — وهم بحمد الله قليل — بالسخط والازورار ، ووجهوا إلىّ سهاماً من النقد المتهافت الخالى من الموضوعية ، واعتدّونى — وأنا أستاذ جامعى كما يقولون — رجلا أبغى الشهرة والالتماع على أنقاض صرح شامخ ظلّ قائماً فى تقدير المتأدبين عشرات السنين .

ولكنى أقرر — فى غير ما تحفظ أو احتياط — أننى مقتنع كل الاقتناع بما جاء فى هذا الكتاب من آراء وأحكام ، لأننى لم أصدرها إلا بعد دراسة مستأنية عميقة مستمدّة من شعر الرجل وحياته وسيرته والظروف التى اختلفت عليه . وبذلك أعطيتُ الرجل حقه فى غير بخس ، ووضعته فى مكانه الخليق به . وحسبى أن أكون راضياً مستريح الضمير .

وإنى لأرجو — ملحّاً فى الرجاء — أن يكون نقد هؤلاء الناس موضوعيّاً ، تكون غايته الخير والحق والوصول إلى الحقيقة .

أما الابتهار والتصدّى فلا طائل منهما . . . والسلام على من اتبع الهدى .

عبد الحميد سند الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

عُهد إليّ أن أقوم بدراسة شخصية أدبية معاصرة لطالبات الليسانس بقسم اللغة الإنجليزية بكلية البنات بجامعة عين شمس ، فنثرت الكنانة بين يديّ واصطفيت شخصية كنت أحس لها فى قرارة نفسى منذ أن تمزّزتُ طعمَ الأدب بشيء غير قليل من العطف المقرون بالتقدير والإشفاق .

وسِرّ ذلك أن « شاعر النيل » قاسَى فى فجر حياته ضروباً مختلفة من الحرمان وألواناً شتّى من البؤس والمتربة . هذا إلى ما وَقر فى أذهاننا من أنه كان لسانَ صدق للشعب ، يعبر عن آلامه وآماله ، ويرسم له سبيل الوصول إلى حياة حرة كريمة .

من أجل ذلك كنا نشعر — نحن شباب العلم — بأن حافظاً قريب إلى نفوسنا ، محبب إلى قلوبنا ، نجد فى قراءة شعره ما يلذ عقولنا ويَقرى نفوسنا أُنساً وإمتاعاً . وزادنا إقبالا على شعره ما كنا نحسه فيه من ديباجة مونقة وغور قريب لا يكدّ الذهن ولا يعنّى الفكر .

وكنت إبان الطلب أجد فى نفسى رغبة مُلِحّة فى دراسة هذا الشاعر دراسة عميقة ، ولكن كان يحول بينى وبين ذلك ما يشغل طالب الجامعة من درس وتحصيل .

ثم انغمرتُ فى خضمّ الحياة بعد الانتهاء من دراستى الجامعية ، وران على علاقتى بحافظ رُكام كثيف من النسيان كاد يحجب ما بينى وبينه من وثيق الصلة .

وتطرّحت السنون وعُينتُ مدرساً بكلية البنات ، فلم تكد تسنح الفرصة حتى اهتبلتها فى غبطة وجذل لأحقق أمنية كانت تراودنى منذ أمد بعيد .

فأخذت أقرأ شعر الرجل مستأنياً ، وأقرأ كل ما كُتب عنه قراءة متئدة ، فتبين لى بعد ذلك أن حافظاً قد خدعنى عن نفسه ، وأنه قد عزّب عنى الكثير من حقيقة فنه وشخصيته . وتبين لى كذلك أنه لم يأخذ حظه من الدراسة المفصلة الصادقة كصنوه شوقى ... فقد كُتبت عن حافظ بضعُ مقالات وصدر فى دراسته قليل من الكتب ، ولكن ذلك لم يكن لينقع لنا غلة ، لأن الكثير منهم كانوا يسرفون فى إطرائه إسرافاً لاحدّ له ، حتى لقد غلا البعض فجعله زعيم شعراء العربية . وهاجمه آخرون هجوماً فيه عنف وفيه شدة .

ولعل أعرف المؤلفات التى وُضعت عن حافظ المقالات الرائعة التى دبجتها يراعة أستاذنا عميد الأدب الدكتور طه حسين ، ولمّ شتاتها فى كتاب سماه « حافظ وشوقى » . ولكنى أستشف منه ميلا إلى حافظ وتحاملا على شوقى .

ثم شاءت وزارة المعارف أن تجمع شعر حافظ ، فتجرّد لهذا الأمر أستاذنا الجليل المرحوم الدكتور أحمد أمين وزميلاه المرحوم الأستاذ أحمد الزين والأستاذ إبراهيم الإبيارى . وقد صدّر الدكتور الديوان بمقدمة طويلة تناول فيها حياة الشاعر وشعره . وهذه المقدمة يجد الباحث العجيل بعض بغيته فيها ، ولكنها على كل حال ليست بذات غناء كبير .. وليس من ريب فى أن الظروف السياسية التى كانت تختلف على البلاد آنذاك هى التى دفعت المرحوم الدكتور إلى أن يُعلّى من شأن الرجل فى غير احتياط وأن يردّ عنه كل شبهة . وكان ذلك فى غضون عام ١٩٣٧ .

وقبل ذلك بسنوات خصّص الشاعر المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى عدداً من مجلة « أبولو » (يوليه سنة ١٩٣٣) فى حافظ ، وقد توخى كثير من الأدباء الذين اشتركوا فى تحرير هذا العدد بعض الصدق والإنصاف ، ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما كنت أروم . بيد أن بعضهم ممن اتصل بحافظ قد أظهرنا على

كثير من طباعه وصفاته ، وبخاصة المرحومان الشيخ عبد الوهاب النجار والأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة .

وفى عام ١٩٤٧ أصدرت دار المعارف عدداً خاصًّا من مجلة « الكتاب » بمناسبة مرور خمسة عشر حولا على وفاة الشاعرين الكبيرين . وهذا العدد من أقوم ما كُتب عنهما ، وقد وجدت فيه كثيراً مما كنت أبتغى ، وأعجبنى أن هؤلاء الأدباء الأفاضل كانوا يرعون الحق بقدر ما جهدوا ، إذ كان يحدوهم إلى ذلك سلامة النية وسواء القصد .

وفى العام نفسه صنع الأديب الفاضل الأستاذ حسن كامل الصيرفى كُتيِّباً صغيراً قدّم لنا فيه دراسة رصينة هادئة عن الشاعرين ، بريئة من التحامل والهوى ، ولكنه ترك أموراً كانت خليقة بالدرس والاستقصاء .

ثم ظهر بعد ذلك كتاب فى سلسلة « اقرأ » للأديب الدكتور سامى الدهان اسمه « شاعر الشعب » ، كله — من أوله إلى آخره — دفاعٌ حارٌ عن حافظ وتمجيد لشعره .

وعلى عكس ذلك ما فعله المرحوم الأديب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى ؛ فقد نشر فى أوائل هذا القرن بضع مقالات فى صحيفة « عكاظ » كانت كلها هجوماً عنيفاً على حافظ ومحاولةً للنيل منه والحط من قدره .

ومنذ بضعة أشهر أصدر الشاعر الأديب الأستاذ أحمد محفوظ كتابه « حياة حافظ إبراهيم » . والأستاذ محفوظ اتصل بحافظ عن كثب ولازمه وتلمذ عليه واشتغل معه فى القسم الأدبى بدار الكتب ، فوقف بذلك على الكثير من طباعه وسجاياه وعاداته . وهذا الكتاب يُعنى بحياة حافظ عناية طيبة كما يفهم من عنوانه . وقد كشف لنا المؤلف عن كثير من حياة الرجل الخاصة ، وأتحفنا بقدر لطيف من فكاهاته ونوادره التى تنم عن بديهة حاضرة وخاطر سريع وذكاء لمَّاح . ولم ينس أن يُفرد فى نهاية الكتاب فصلا عن « فن حافظ » ينبىء — على إيجازه — عن فهم دقيق لشعر الرجل . وهذا الكتاب

خفيف الروح لطيف المحمل ، لا تكاد تقرأ السطر الأول منه حتى تتوق نفسك إلى أن تأتى عليه . وقد أفادنى كثيراً فى الوقوف على حياة حافظ وخلقه ومواهبه وعلاقاته بمرءوسيه ورؤسائه وصلاته بعلية القوم ورجالات الدولة.

وخصّ أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد حافظاً بمقال فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » . وهذا المقال فيه عمق خصيب تعودناه دائماً من الأديب العظيم فى أبحاثه الأدبية . وفى الكتاب دراسة طيبة عن الشاعر « محمود سامى البارودى » أستاذ حافظ الأكبر ومثله الأعلى . وكانت هذه الدراسة خير معوان لنا — إلى جانب المصادر الأخرى — فى إزجاء صورة صادقة عن رائد الشعر العربى فى العصر الحديث .

ووضع الأستاذ « روفائيل مسيحة » كتاباً عن « حافظ إبراهيم الشاعر السياسى » تناول فيه شعر حافظ الذى يتصل بالسياسة ليس غير . وأول ما يبدهك فى هذا الكتاب أن الباحث قد تجرّد للدفاع عن مواقف حافظ إزاء الأحداث السياسية فى غير ما تحفظ ، محابياً للشاعر محاباة صارخة .

وهناك المقالات التى كُتبت عن حافظ وجمعها الأديب الدمشقى السيد أحمد عبيد مع ما كُتب عن شوقى فى كتاب سماه « ذكرى الشاعرين » . وكذلك المقالات القيمة التى كتبها عنه الضابط الأديب السيد أحمد الطاهر ، ولكنه نحا فيها نحواً آخر لا تفيد منه الدراسات الأدبية الخالصة كثيراً .

هذا — فيما أعلم — هو كل حظ حافظ من الدراسة . وأنت ترى أنه لم يوضع عنه كتاب جامع يتناوله بالدراسة المفصلة العميقة المستقيمة على غرار الكتاب القيم الذى ألفه صديقنا الأديب الباحث الدكتور شوقى ضيف عن « شوقى شاعر العصر الحديث » مثلا . فهذا الكتاب يعتبر — فى نظرى — من خير الدراسات الأدبية التى تمتاز بالعمق والخصب والنزاهة .

وقد أردت أن أضع عن حافظ كتاباً يقوم على الدراسة المستفيضة التى سَداها الإنصاف ولُحمتها الصدق . وقد بدأته بالحديث عن نشأته وحياته بقدر

ما أسعفتنا المصادر التى وقعنا عليها ، وُعنيت بنوع خاص بالنواحى البليغة الأثر فى اتجاهاته الفنية ، معززاً رأيى بشواهد من شعره . وقد أفادنى كتابه المسمى « ليالى سطيح » فى تبيان الأحداث التى لابسته وموقفه منها موقف المتوجس المذعور فى الغالب ، وما كان يتناوش نفسه الحطيمة من يأس غامر فى الحقبة التى قضاها فى السودان . ووقفتُ منه كذلك على مدى ما كان للمستعمرين الإنجليز آنذاك من بطش قاهر يُخمد الأنفاس .

ثم تحدثت عن مصادر ثقافته المتنوعة من كتب ، وصحف . ومجالس كانت تنتظم خيرة أساتذة ذلك العهد . ووجهتُ عناية خاصة لأستاذين عظيمين كان لهما أثر بارز فى فن حافظ وثقافته ، وهما الشاعر سامى البارودى والإمام المصلح الأستاذ محمد عبده . وقد قدّمتُ لكل منهما ترجمة موجزة مبيناً مبلغ تأثر تلميذهما بهما .

ثم تناولتُ بعد ذلك شعره ، فتحدثتُ عن خصائصه ومقوماته ، وأفضتُ فى الكلام عن فنونه المختلفة ، وما برّز فيه منها وما وقف منها عند السفح . وقد حرصتُ على أن أردّ ذلك إلى علله الأصيلة ؛ المكتسبة منها والمركوزة فى فطرته . وكنت جدّ حريص على أن أقتنص كل نُهزة لأقارن بينه وبين زميله شوقى فى الفنون المماثلة ، وبخاصة القصائد التى قيلت فى مناسبة واحدة ، لأن الفرص فيها تكون متكافئة بين الشاعرين ، وبذلك نستطيع الحكم بينهما مُقسطين . ثم رأيت أن أعقد فصلا خاصًّا للمقارنة بينهما فى شىء من الإسهاب إجزالا للفائدة ، ولهذا قرأت شوقيات أمير الشعراء قراءة فاحصة ، كما قرأت كل ما كُتب عنه ، واستخلصتُ من ذلك كله أحكاماً أدنى إلى القصد وأقرب إلى الصواب .

وقد تبين لى من دراسة الرجلين أن كثيراً من الأمور قد خلقت من شوقى شاعراً فذًّا لم يستطع حافظ أن يلحق به . فقد كان لنشأته بين أكناف النعمة أبلغ الأثر فى خياله واتجاهاته الفنية . هذا إلى أنه قد وجد فى مؤتنف شبابه

أستاذاً له يستهديه فيهديه ويسترشده فيرشده ، وهو الشاعر الرقيق الذوق المرهف الحس « إسماعيل صبرى » . فكان شوقى يعرض عليه شعره فيبصّره بكل غميزة يجدها فيه ؛ من لفظة قلقة أو معنى متهافت أو صورة سوقية . فاستقل عنه وبزّه وشآه .

يضاف إلى ذلك أنه ملأ جعبته بالثقافة العربية المختلفة الطعوم ، وبأمشاج قوية من الثقافات الأجنبية المتعددة الألوان . وقد نضح ذلك على أفكاره ومعانيه واتجاهه الفنى .

أما حافظ فلم يكن له من ذلك شيء كثير . . . كان رقيق الحال ضنك المعيشة ، فحُرم الخيال الخصب والصورة الرائعة والجو الشعرى الرفيع .

ولم يكن حافظ يعتبر الشعر فناً يُدرس ويُتلقى على أساتذة . وكل ما صنعه أنه كان يقفو أثر البارودى فى فحولة العبارة وإشراق الديباجة .

نعم كان يعرض شعره أحياناً على كبار شعراء ذلك العصر وأدبائه ، ولكنه لم يكن دائباً على ذلك دءوب شوقى ، بل إنه كان يجعل نصائحهم فى بعض الأحيان دَبْرَ أذنه ودون رأيه . وثقافته تكاد تكون عربية خالصة ، تعتمد أكثر ما تعتمد على كتب الأدب واللغة والأخبار ، وقد اختزن فى حافظته منها قدراً ضخماً . ووقف على بعض المعارف العربية الأخرى كالفلسفة والتاريخ والمذاهب الفكرية ، ولكنه لم يكن يتعمقها . ولهذا كان أخص ما يمتاز به شعره أنه كان ذا مسحة عربية صريحة .

بيد أن حافظاً سبق شوقى فى فنين اثنين هما الرثاء ووصف الكوارث ، وسر ذلك أنه كان يحس بالفجيعة فى أعماق نفسه بسبب ما عاناه فى حياته الأولى من عنت الدهر وقسوة الأيام . فضلا عن أنه كان رجلا يألف الناس ويتألّفهم ويُخلص الود لهم ولا يستبقى من صلاته بهم إلا الوفاء والخير .

وأخيراً ختمتُ الكتاب بالحديث عن نثر حافظ وما تركه من آثار غير الديوان لتكون الصورة أدق والفائدة أعم .

وأحب أن أقول إنني قد تحريتُ الدقة فى الاستشهاد ، محترزاً من المغالطات التاريخية التى وقع فيها غيرى عن قصد أوعن غير قصد .

* * *

وبعد ، فهذا جهد متواضع أقدمه للمكتبة العربية ، ولست أدّعى فيه بحثاً مثالياًّ بريئاً من المغامز . وحسبى أنى توخيت الصدق والإنصاف ما وسعنى ذلك ، مبتغياً أن أردّ الحق الذى حلحله غيرى إلى نصابه . فإن أصبتُ فهذا ما أرومه راحةً لنفسى ، وإن كان الأمر على غير ذلك فلى جزاء المخلصين ، ولكل امرئ ما نوى . والله تعالى يهدينا سواء السبيل .

مصر الجديدة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٥٩

عبد الحميد سند الجندى

حياة حافظ وسيرته

١

مولده ونشأته

هو « محمد حافظ إبراهيم » ، وُلد فى حراقة أنيقة كانت راسية فى النيل بالقرب من قناطر ديروط ، كما سجل هو بخط يده فى ملف خدمته. وكان يملك هذه الحراقة « محمود سليمان باشا » من كبار سادة الصعيد فى ذلك الحين ، وقد قدمها إلى والد شاعرنا « إبراهيم أفندى فهمى » أحد المهندسين المشرفين على القناطر لينعم بسكناها لقاء توفير المياه لإرواء أراضيه الواسعة . والظاهر أن فضل الباشا على المهندس لم يكن مقصوراً على الذهبية ، بل كان يُغدق عليه الكثير من الخيرات التى أفاءها الله على أهل الأرياف وبخاصة الأغنياء منهم . وكان حافظ يعرف فضل هذا الرجل على أبيه ، ويصرح به فى القصيدة التى رثاه بها ، وقد استهلها بقوله :

مسدى الجميـــل بلا منٍّ يكدّره ومكرم الضيف أمسى ضيف رضوان(١)

وختمها بهذا البيت :

كم نعمة لك يا « محمود » عند أبى بشكرها لك عند الموت أوصانى

وقد سار أبناء (الباشا) على منوال أبيهم ، فكانوا يكتنفون حافظاً بفضلهم الغامر ، وكان المغفور له « محمد محمود » يقرّبه لأدبه وظرفه ، وكان حافظ يشعر بأنه ذو مكانة أثيرة فى هذه الأسرة . ويحدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ بأن حافظاً كان — عندما تولى محمد محمود رياسة الوزارة — « يخال نفسه أنه هو

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٢/٢٣٦ طبعة وزارة المعارف ١٩٣٧ .

محمد محمود ، فإذا تحدث معنا قال : نحن فعلنا كذا وسوف نفعل كذا »[١] .

وكان والده مصرياً صميماً، أما أمه« الست هانم كريمة أحمد البورصه لى » فيرجع نسبها إلى أسرة تركية .

ولا يعرف أحد ولا حافظ نفسه يوم ولادته على وجه التحديد . وعندما أريد تعيينه فى دار الكتب يوم ٤ فبراير سنة ١٩١١ قدّر القومسيون الطبى سنه بتسع وثلاثين سنة وعلى هذا التقدير يكون مولده يوم ٤ فبراير ١٨٧٢ . والذين يعرفونه منذ حداثته يقولون إنه كان أسنّ من ذلك .

وقد تفتحت عينا الشاعر على مياه النيل الرقراقة ، فكان ذلك إرهاصاً لطيفاً بأن الذى وُلد على صفحة النيل لُقّب فيما بعد « بشاعر النيل » .

وقد درج الطفل على ظهر الحراقة ينعم بحنان والديه ويرضع من لبان حبهما . ولما بلغ الثالثة من عمره آنس الله وَحدته بأخت لا نعرف اسمها ولانعرف من أمرها شيئاً . وفى سنته الرابعة لفّ الحراقة حزن غامر وهمّ شديد، فقد اخترُم الوالد ومضى من غير أن يترك للأم مالاً تستعين به فى تربية الطفلين ، فكان رزؤها فادحاً لأنه تركها فى حالة شديدة من الإملاق ، وبخاصة وأنه كان موظفاً خارج الهيئة ، فلم يكن له معاش يقيم أودها هى وطفليها[٢] . وقد رأت الأم أنه لا بد لها من أن ترحل مع ولديها إلى القاهرة لتعيش فى كنف أخيها « محمد أفندى نيازى » المهندس بالتنظيم . وبعد سنين قلائل ألحق الخالُ الطفلَ بالمدرسة الخيرية بالقلعة ليتعلم القراءة والكتابة وشيئاً من علم الحساب . ثم التحق بعد ذلك بمدرسة القربية الابتدائية ، وانتقل منها إلى مدرسة المبتديان ، ثم تحول إلى المدرسة الخديوية ، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً لأنه انتقل مع خاله إلى طنطا سنة ١٨٨٧ .

ويبدو أن نفحة الشعر قد باكرته فى هذه السن الصغيرة ، فأخذ يحلّق فى سماء القريض بجناحين ضعيفين ، فكان يمضى فى نظمه حيناً ويكبو حيناً آخر . وكان حافظ مشغوفا بقراءة كتب الأدب وبخاصة كتاب « الوسيلة الأدبية »

---

(١) حياة حافظ إبراهيم للأستاذ أحمد محفوظ ص ١١٧ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٧ .

للشيخ حسين المرصفى . والظاهر أن هذا الكتاب قد فُتن به كثير من ناشئة المتأدبين فى ذلك الحين . فهم يذكرون أن الشاعر شوقى « كان عماده كتاب " الوسيلة الأدبية " فألمّ بما فيه من مسائل لغوية ومن نصوص شعرية وخاصة ما اتصل بالبارودى »[١] . وهذا الكتاب أمشاج من النحو والصرف واللغة والبلاغة وألوان شتى من أمثال العرب وحكمهم وأشعار فحولهم منذ العصر الجاهلى حتى أوائل العصر الحديث . وكان حافظ ذا حافظة لاقطة قوية ، فاستظهر كثيراً من شعر السابقين يتمثل به فى المناسبات الخاصة والعامة ، ويطارح به أصدقاءه وخلانه. واستوعب الكثير من طُرف العرب ونوادرهم يُتحف به جُلاّسه، فيُضفى على مجالسه روحاً من البهجة والسرور، فألِفَتْه القلوب وتشوّفت إلى مجالسه النفوس . . . كتب صديقه المرحوم الأستاذ عبد الوهاب النجار يقول :

« فى صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً فى الجامع الأحمدى بطنطا ، وقد سافرتُ فى أيام العطلة إلى بلدنا القرشية ، ثم عدت فى أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا ، فإذا بإخوانى يلوذون بفتى غضّ الإهاب جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه وتقديمه إلىّ باسم الأديب الشاعر " محمد حافظ إبراهيم ". ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلا إليه بجاذب من الأدب الذى كان نَهْمة نفسى ، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظَرف ولطف محاضرة و بديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة .

« وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلى المغرب والعشاء والتراويح معاً ، ثم نلبث فى سَمَر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة فى نوادر الأدب، وما كان يُطرفنى به مما يقف عليه من جيد القريض إلى أن يأتى وقت السحور »[٢] .

ولم يكن للفتى مهنة يرتزق منها آنذاك ، وقد أخذ يغادر عهد الصبا ويزحف نحو الشباب وهو يحس بأنه كَلّ على خاله ، وأن خاله أخذ يضيق به بسبب تعطله ، فقرر أن يغادر المنزل وكتب لخاله هذين البيتين :

(١) شوقى شاعر العصر الحديث للدكتور شوقى ضيف ص ١٠٣ .
(٢) مجلة أبولو عدد يوليه سنة ١٩٣٣ ص ١٣٢٧ .

ثقُلَت عليك مؤونتى إنى أراها واهيه
فافرح فإنى ذاهب متوجهٌ فى داهيه

وهذا الشعر يدل على ماكان يعتمل فى نفس الصبى من ألم مُمِضٍّ، ويدل فى الوقت نفسه على روح لا يزايلها المرح حتى فى وقت الشدة .

وكان الفتى ينظر إلى الدنيا بعين مفعمة بالتشاؤم ، ولهذا تراه يشكو الزمن ويندب سوء حظه ، ويودّ من قرارة نفسه أن يغادر دنيا الآلام وعالم الشجب ، وقد قال فى ذلك شعراً يروى لنا بعضه صديقه المرحوم الشيخ عبدالوهاب النجار مثل قوله :

عجبتُ لعمرى كيف مُدّ وطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت ما لى قد أراه مباعدا وجلّ مرادى أن أوسّد حالا
فَلَلْموتُ خير من حياة أرَى بها ذليلا وكنت السيد المفضالا

٢
حافظ المحامى

فكر حافظ فى عمل يحصل منه على ما يدرأ عنه شر المسغبة ، فماذا يصنع ؟ لم يكن يحمل شهادة تسوق إليه وظيفة تُدِرُّ عليه مرتباً مضموناً. وكل بضاعته أنه نال قسطاً من العلم والثقافة فى غير نهج سوىّ أو نظام . وفكّر فى أن يحترف التعليم فى كتّاب كما فعل عبد الله نديم ، ولكنه رأى أن هذا العمل قد لا يحقق له ما ينشده فازورّ عنه . ثم نظر فرأى مهنة المحاماة متفاسحة الأكناف لا تضع شرطاً ما أمام من يريد أن يلج بابها سوى أن يكوى قوى الحاجة يستطيع الفَلْج وقهر الخصم . وكان حافظ يأنس فى نفسه اللَّسَن وقوة البيان . فرأى أن يحترف هذه المهنة ، ولكن أنّى له أن يستقل بمكتب وهو الرجل المعدم المفلوك، فقصد الشيخ

محمد الشيمى المحامى بطنطا واشتغل فى مكتبه . وكان عمله هذا يضطره إلى السفر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا للمرافعة فى بعض القضايا . ثم اختلف مع صاحب المكتب فتركه وترك له هذين البيتين :

جراب حظى قد أفرغتــه طمعاً ببباب أستاذنا الشيمى ولا عجبــا
فعــاد لى وهو مملوء فقلت له مما ؟ فقال : من الحسرات ، واحربا

وذهب إلى مكتب الأستاذ محمد أبى شادى المحامى بطنطا، وهناك وجد جواً يوافق هواه ، إذ كان الأستاذ أبو شادى يعشق الأدب ويحب الأدباء ، فوجد فى حافظ ضالّته طالما نشدها ، فكانا يتساجلان بالشعر وطرائف الأدب .

بيد أن حافظاً كان ملولاً لا يستقر على حال ، فقد ملّ العمل مع أبى شادى وتركه وعمل فى مكتب الأستاذ عبد الكريم فهيم المحامى ومكث عنده مدة من الزمن، ثم عاوده الملال فانتقل إلى مكتب الأستاذ إبراهيم الهلباوى، ولم يمكث فيه أكثر مما مكث فى غيره ، فقد كان الهلباوى رجلا حديد اللسان لاذع السخرية ، وليس يبعد أن يكون قد وقعت بين الاثنين ملحمة كلامية خرج بعدها حافظ مغضباً فرسب فى نفسه الحقد على الهلباوى كما يقول الأستاذ محفوظ[١] ، حتى إذا كانت حادثة « دنشواى » تحركت فى نفسه عوامل الحقد القديم فهاجم الهلباوى هجوماً عنيفاً — وكان يقوم بوظيفة المدعى العمومى ويطالب بأخذ المتهمين بالشدة — بأبيات تنم على ما كان يضمره للهلباوى من موجدة وبغض .

لم يستمرئ حافظ مهنة المحاماة ، ولم يستطع أن يشق لنفسه طريقاً فيها ، وذلك لأن مهنة المحاماة تتطلب من صاحبها الدأب والعكوف على دراسة القضايا وتحرير المذكرات وتفنيد حجج الخصوم ، وحافظ لا يطيق شيئاً من ذلك ولا يحتمل الجلوس إلى المكتب الساعات الطوال غارقا فى البحوث الفقهية . وكل بضاعته أنه رجل يحسن الكلام ويجيد النقاش والدفاع معتمداً فى ذلك على

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٠ .

الخاطرات الطارئة . ثم إنه كان فى ذلك الوقت فتى غراً لم يرتضع بعد من أفاويق التجارب ولم يتمرس بالحياة ، وجل همه أن يتصفح كتاب أدب أو يجلس مع لفيف من خلانه يتندر معهم ويمتعهم بأحاديثه الطلية . يضاف إلى ذلك أنه كان مبسوط اليد لا يستقر فى جيبه مال ، فلم يكن فى قدرته أن يدخر من المال ما يعينه على فتح مكتب يستقل به ويدفع أجور موظفيه .

وليس من شك فى أنه نظم إبان اشتغاله بالمحاماة شعراً ، ولو قد وصل إلينا هذا الشعر لكشف لنا الغطاء عن حقبة حية من تاريخ حياة الرجل قضاها فى طنطا فى مؤتنف حياته . ولكنه — مع الأسف — قد طمره إهمال حافظ مع ما طمره من أشعار كثيرة له .

٣

حافظ فى المدرسة الحربية

لما لم يتيسر النُّجحُ لحافظ فى المحاماة فكر فى عمل آخر ، وقد هداه تفكيره إلى السفر إلى القاهرة سنة ١٨٨٨ ليلتحق بالمدرسة الحربية . وقد دفعه إلى ذلك — فيما أرى — أمران :

أولهما : أنه أراد أن يضمن لنفسه رزقاً منظماً يأتيه كل شهر .

وثانيهما : أنه كان معجباً بالبارودى أشد إعجاب ، وكان يعتبره مثله الأعلى وقدوته الحسنة ، فأراد أن يكون رب السيف والقلم مثله ، يطير ذكره فى الآفاق وتُلقَى إليه مهام الأمور. وكانت المدرسة الحربية فى ذلك الحين لا تشترط للالتحاق بها شهادة خاصة ولا ثقافة معينة أكثر من اللياقة الطبية والقدرة على دفع خمسة عشر جنيها فى العام . وكان حافظ فارع الطول متين البنيان ، فاستطاع أن يلتحق بها فى سهولة ويسر .

دخل حافظ المدرسة الحربية وفؤاده يكاد يثب من شدة الفرح ، لأن دخولها كان منتهى ما يتمناه كما يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار (١) . وتطرحت سنون ثلاث خرج بعدها حافظ سنة ١٨٩١ يزهو بحلته العسكرية وعلى كتفه نجمة وفى جنبه سيف صقيل ، وقد ضمن رزقاً ثابتاً يجرى عليه كل شهر .

وكانت المدرسة الحربية فى ذلك الحين واقعة فى قبضة المستعمرين فغيروا براجها بما يحقق أهدافهم وأقصوا عنها العناصر الصالحة (٢) . وكان غرض القائمين على أمرها ألا تكون مصنعاً لتخريج الأبطال ، وإنما تكون مصنعاً لتخريج شباب محطم الآمال قد خبت فى نفوسه جذوة الوطنية واستلت منها روح الطموح والتوثب ، فكان معظم الضباط فى ذلك العهد مثالا حياً للانهيار والتراخى ؛ لا يعرفون للوطن حقاً ولا يفكرون فى أن يستنقذوه من مهاوى المذلة والعبودية . وكانت عقولهم خلواً من الثقافة والمعرفة ، لا يشغلها شاغل إلا التفكير فى إرضاء سادتهم الإنجليز والجرى وراء الترقيات والعلاوات .

وكان صنيع المستعمرين فى الجيش لا يقل نكراً عن صنيعهم فى المدرسة الحربية ، فقد قصوا أجنحته وأبعدوا عنه الضباط الوطنيين الذين كانت تلتظى فى صدورهم نار الحقد على الاحتلال ورجاله . وأصبح الجيش أشبه بالفلول المتهافتة التى لا يعتمد عليها فى استرجاع أمجاد أو قهر أعداء ، وغدا الواحد منهم حرباً على أخيه المصرى ليتقرب إلى الرؤساء زلفى . وشاعرنا حافظ يبين فى وضوح ما كان عليه الجيش والمدارس الحربية فى ذلك العهد من سوء الحال فيقول : « لقد استفرغوا جهدهم لصيرورة الجيش إلى الحال التى تراها فتمكنوا فيه من النفوس وحكموا على الضمائر فلم تخطئهم وساوس الصدور ولم تفتهم خطرات الأفكار .

« دخلوا مصر وفى جيشها من هم أولى سابقة فى الفضل وخصيص فى العلم ، ومن حنكته السن وغذته التجربة وخبطته الحروب ، فكنت ترى فيهم المهندس

(١) مجلة أبولو (يولية سنة ١٩٣٣) .

(٢) اقرأ ما صنعه الإنجليز فى المدرسة الحربية فى الجزء الثانى من كتاب « حقائق الأخبار » لإسماعيل سرهنك .

الماهر والكيماوى الباهر والمحيط بفن الحرب وعلم التكتيك ممن تذاوقوا معهم سجال الحرب يوم طرقونا ، فأشفقوا أن يكون هؤلاء أمام سياستهم صفًّا صلداً فزحزحوهم عن أماكنهم حتى أصبح الجيش عُطلا من كل رجل ركين .

« ثم نظروا فإذا المدارس الحربية تغذو أشبال تلك الأسود لبان العلوم والمعارف فهالهم أمرها وأسرعوا فى سلبها كنز علومها وتجريدها من حَلْى فضائلها حتى أصبحت كالأخيذة السليبة ، ثم يتَّموها أساتذتها ، وأراد ربك فأمست وهى أشبه شىء بمصانع الدجاج . . . فأصبحت بفضل القوم كما ترى وقد جمدت فيها روح العلوم ونضبت سيول المعارف وأقفرت غرفها من نُجباء التلامذة وقام ينعق فيها ذلك القائم بالأمر والنهى هناك ، وبات يطلبها كل فَدْم وجاهل كما تُطلب اليوم الضيعة الخربة »[١] .

هكذا كان حال الجيش ، وهكذا كان حال المدرسة الحربية فى هذا العهد المشئوم ، فلم يجن حافظ من دراسته فى هذه المدرسة أية ثمرة ثقافية وخرج منها ولم يُضِفْ إلى معارفه شيئاً سوى تعليمات ضئيلة من نظام الجندية خالية من التكتيكات العسكرية والفنون الحربية الأصيلة .

٤

حافظ الضابط

تخرج حافظ فى المدرسة الحربية وأصبح ضابطاً برتبة الملازم الثانى يختال فى بزته العسكرية . ومن كان يرى هذا الرجل فى قامته المديدة وعضلاته المفتولة وهيكله الضخم وشاربيه الطويلين يوقن بأنه بطل مغوار يقتحم الأهوال ويركب المخاطر أو على حد قول المتنبى : "شروبٌ للجيوش أكول » . ولكنه كان على نقيض ذلك كما سيتبين فيما بعد .

(١) ليالى سطيح طبعة محمد مطر ص ٧٩ .

ويقول المرحوم الدكتور أحمد أمين : «على أنه يخيل لى أن حافظاً لم يُخلق رجل قتال . نعم كان منظره رجل حرب ، فهو مستحكم الخلقة ، وثيق التركيب ، مفتول الساعدين ، عريض المنكبين ، ولكن لا أظن أن قلبه يشاكل جسمه»(١) .

وقد عُين حافظ بعد تخرجه فى نظارة الحربية ومكث بها ثلاث سنوات ، ثم نُقل إلى وزارة الداخلية وعُين ملاحظ بوليس فى مدينة بنى سويف ، لأن رجال البوليس كانوا يؤخذون من الجيش ، إذ أن مدرسة البوليس لم تكن قد أنشئت بعد. وقد لبث فى بنى سويف بضعة أشهر انتقل بعدها معاوناً لبوليس الإبراهيمية . وبعد أن قضى فيها سبعة أشهر ردّته الداخلية إلى الحربية بسبب إهماله وتراخيه ، لأنه لم يكن يحسن عملاً ما ، فأحيل إلى الاستيداع أول مرة . ولما أراد « لورد كتشنر » إعادة فتح السودان والقضاء على ثورة المهدى رأى أن الجيش المصرى فى حاجة إلى ضباط فاستُدعِيَ حافظ من الاستيداع إلى الخدمة وأُرسل إلى شرقى السودان سنة ١٨٩٦ وأُلحق بسلاح المدفعية (الطبجية) ثم جُعِل بين القائمين على أقوات الجيش (التعيينات) .

وكان الجيش المصرى فى ذلك الحين أداة ذليلة طيّعة فى أيدى المستعمرين كما قلنا ، ومن بقيت فى نفسه أثارة من الوطنية أُقصى عن منصبه أو — على الأقل — نُفى إلى أقاصى السودان . وكان المستعمرون الطغام يأخذون فى ذلك بالظِّنة والشبهة ، فاستسلم كثير من الموظفين وعلية القوم ، وران على نفوس المصريين شىء غير قليل من اليأس والتخاذل ، وغدا المصرى يشعر بأنه غريب فى وطنه ، ذليل فى مراح عزته . وما أبدع وصف حافظ للمصرى آنذاك حين يقول : « لذلك تكسرت فى المصرى الأظافر وبات مهضوم الجانب غير مرعى الجناب ، يعتوره الذل والخور وتأخذه سوء القالة ، وهو كأنه العمر كلما مر به يومٌ لحق به النقص »(٢) . وبلغ من ضعف النفوس عند بعضهم أن راح يتبرأ من الوطنية المصرية ابتغاء مرضاة المستعمر بعد أن فشلت الثورة المصرية بفعل

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٤ .

(٢) ليالى سطيح ص ٨٢ .

الخونة من أنصار الخديو ، وكُمِّمت أفواه الصحف حتى غدت بوقاً للاستعمار . ومن هجس فى نفسه هاجس الوطنية من الصحفيين كان نصيبُ الصحيفة المصادرةَ والتعطيل . وأصبح الجيش البريطانى صاحب الأمر والنهى فى البلاد . وكان من أهم أغراضه أن يطامن من عزة رجال الجيش المصرى ، فكان الضباط الإنجليز يعاملون جيشنا أسوأ معاملة فى مصر والسودان . وقد داخلت نفوس الضباط المصريين الرهبةُ ،وأخذوا ينظرون إلى الضباط الإنجليز وكأنهم خُلقوا من طينة غير طينة البشر . ويصف حافظ هذه الحال فيقول: « ينظر المصرى إلى الإنجليزى وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة وإجلالا ويتضعضع لرؤيته . وينظر إليه الإنجليزى بتلك النظارة وقد عكسها فيصغره استخفافاً بشأنه ، ويطيل عتاب الخالق الذى فطره على شكله وصورته ومنحه نعمة التنفس فى جو يتنفس فيه الإنجليز . وهو إن خاطبه خاطبه بلسان لا تجرى عليه كلمة تستروح منها روائح الرفق ، أو بإشارة يخالطها الجبروت ويزدهيها البطر»[1] . ويمضى حافظ مبيناً حال كبار الضباط المصريين وضآلة شخصياتهم فيقول : « هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط . أما الكبار منهم كبار الرتب والأجسام، لا كبار النفوس والأحلام ، فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم . فلقد سقاهم ساقى السياسة الإنجليزية كؤوساً من منقوع الرعب . فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث ، حتى إذا أصدر له أمره بشىء كاد يخرج من ظله سرعة لإمضاء ذلك الأمر . فهو إلى إجابة داعيه أسرع من الصدى ، وهو على حفظ أمره أحرص من الفونوغراف على حفظ الصوت . . . تراهم (أى كبار الضباط المصريين) وكأن أكتافهم سماء الدنيا وقد تزينت بالنجوم فيروقك ما ترى ، ولو كشفتهم لرأيت تحت تلك السماء أفئدة هواء .

فليت سيوفهم كانت عِصِيّاً ... وليت نجومهم كانت رجوما»[2]

---

(١) ليالى سطيح ص ٨٢ .

(٢) ليالى سطيح ص ٨٣ .

ثم يصف لنا حياة الضابط الإنجليزى فى الجيش المصرى ، وما كان ينعم به من جاه رفيع ومال وفير فيقول : « يهبط أحدهم مصر فما هو إلا أن يشم نسيمها حتى يقابله الأمر بمنصب فى جيشها . فإذا سما من رتبة المأمور إلى رتبة الآمر وأصبح عطاؤه الذى كان لا يتجاوز أيام الأسبوع عداً وقد تجاوز أيام الشهر ، ونقلته كيمياء القوة من معدن يرغب عنه إلى معدن يرغب فيه . وقذفت به يد الطمع من مناجم الفحم إلى كنوز الذهب ، وهبت ريح سعوده ونسى جلود جدوده — نظر إلى المصرى تلك النظرة التى أسلفنا وصفها »[1] . ثم يصف حافظ مبلغ استهانة هؤلاء الضباط الإنجليز بكرامة من يشتغل معهم من المصريين ومدى سوء معاملتهم لهم فيقول : « وقد جعلوا ثواباً لمن يتعلم العربية منهم فى وقت وجيز ، فترى قادمهم يصطفى بعض التراجمة أو المتزلفين من الضباط فيأخذ عنهم مبادئ اللغة ، ولا يبدأ فيها إلا بحفظ كلمات الهُجر والفحش ، فإذا وعى منها كلمة وأراد استعمالها فيما وُضعت له أسرع إلى المصرى فجبهه بها من غير ذنب ، فتخرج من فيه وهى كأنها بعض حجارة المنجنيق ، فإذا أنَّ لصدمتها ذلك المسكين أوسعه سباً باللغة الإنجليزية ... ولقد مررت ببعضهم وهو يكاد يقطر غضباً وينشق غيظاً ، وأمامه مصرى قد انفجر فى وجهه بركان الغضب الإنجليزى ، فبحثت فى الأمر فإذا الإنجليزى حديث العهد باللغة »[2] . ويذكر حافظ أن الضباط الإنجليز القافلين من الهند كانوا أشد قسوة وأسوأ معاملة للمصريين من غيرهم فيقول : « والويل لمن يقع تحت سيطرة الإنجليزى قافلا من الهند ، فإن رجله إلى لكز من يخاطبه أسرع من لسانه إلى سبه »[3] .

كان هذا حال الضباط الإنجليز فى الجيش المصرى عامة ؛ نعيم مقيم ، وعيش رخىّ ، وجاه عريض ، وشعور بالاستعلاء والعُنْجُهية . وما أصدق حافظ إبراهيم وهو يصور حالهم قائلا : ومن لم ير نعيم الدنيا أو يذق عيش الترف فليقدم

---

(١) ليالى سطيح ص ٨٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) ليالى سطيح ص ٨٥ .

الجيش وينظر الإنجليزى فى لين عيشه ورخاء باله بين مبتسم زمانه وعز سلطانه ، إذا صاح ابتدرت صيحته الألوف ، وإذا مشى قامت إجلالاً له الصفوف ، وإذا لبس القلنسوة كانت لها فى النفوس رهبة التاج ، وإذا غضب تقطعت لخوف بطشه الأوداج . . . يهب من نومه فيترامى الخدم على خدمته ، كلٌ فى شأنه الذى نُصب له ، فإذا قضى لبانته من مأكله ومشربه وملبسه قُدّم له الجواد فاستوى عليه ومضى متباطئاً . . . »(١).

أما سياستهم فى السودان فكانت سياسة ماكرة خبيثة ؛ لُحمتها التفريق بين رجال الجيش المصريين والسودانيين ، وسَداها إيقاع العداوة والبغضاء بين القطرين الشقيقين ليستطيعوا الصيد فى الماء العكر كما هو ديدنهم فى كل بلد ابتُلى باحتلالهم . وكان كَيْدهم من ذلك أن يسأم المصريون الإقامة فى بلد يجد عليهم ويتسخّط عند سماع اسمهم ، وبذلك يخلو الجو للمستعمرين فيصنعون بالسودان ما يريدون .

وكانوا يحاولون استمالة السودانيين بمختلف الوسائل ويقولون لهم : « وقد علمتم ما لنا من الفضل على الجنس الأسود ، فنحن الألى نزعنا عنه أطواق الرق والعبودية ، ونحن الألى ساوينا بينه وبين الجنس الأبيض كما ساوى الربيع بين الليل والنهار »(٢) . وكانوا يضحكون على ذقون السودانيين ولا يجدون عسراً فى خدْعهم والتسلل إلى نفوسهم بأساليبهم الدنيئة الاستعمارية ؛ فكانوا مثلا يفضلونهم على المصريين فى المعاملة حتى لقد قيل يومئذ : « إن الإنجليزى فى الجيش مشغوفٌ بحب الأسود من الألوان ، عاملٌ بقول الشاعر الحكيم :

وما كل وجه أبيض بمبارك ولا كل جفن ضيق بنجيب »(٣)

ومما يدعو إلى الأسف حقاً أن بعض الضباط المصريين تطامنت عزتهم ،

---

(١) ليالى سطيح ص ٨٥ .
(٢) ليالى سطيح ص ٧٥ .
(٣) ليالى سطيح ص ٨٧ .

ودوا لو صبغ الله إهابهم باللون الأسود ليحظوا من الإنجليز بمثل ما يحظى به السودانيون من طيب المعاملة ، « فأيّ مصرى لا يفتأ يضرع إلى الله أن يصبغ لون جلده بسواد جسَدّه ليخطو إلى السعادة هذه الخطوة ويحظو عند القوم بتلك الحظوة » كما يقول حافظ .

وكانوا يخشون أن يتمرد السودانيون عليهم ، فآلوا على أنفسهم أن يبذروا بين السودانيين أنفسهم بذور الحسد والشنآن ، وذلك بأن يقبلوا على هذا ويزوروا عن ذلك ، ويرضوا عن زيد ويسخطوا على عمرو . واقرأ ما كتبه حافظ عن هذه الحال وهو شاهد عيان : « يمشى الكبير من الإنجليز فى معسكر الجنود السودانية فيعثر بأولادهم وهم يلعقون فضلات الطعام وكأنهم وقعوا على ثمرة الغراب فيقف عليهم يتفرس فيهم ، ثم يختار من تدركه السعادة منهم فيقذفه بمنجنيق إرادته على أسوار المدرسة الحربية فلا يحول الحول حتى ترده إليه وعلى كتفه نجمان من نجوم النحوس فيغدو اليوم حاكما على من كان يلتمس فضلات طعامهم بالأمس ، وربما كان فيهم عمه وأبوه »[1] .

وبعد ، فقد أطلت فى الحديث عن سوء صنيع الإنجليز فى مصر والسودان ، شعبهما وجيشهما ، ولكن ذلك شىء ليس منه بد ، فقد أُرسل حافظ إلى السودان والحال كما وصفت ، فرأى من عنت الإنجليز واعتسافهم ما وصفه وصفاً طليًّا فى « ليالى سطيح » فذابت نفسه حزناً. ولكن هل وقف وقفة الرجل الجرىء القلب ، يواجههم منددأ بسياستهم وسوء عملهم ، وهو الشاعر الذى يحس ويشعر ويحسن التعبير عن إحساسه وشعوره ؟

كلا ، لم يقف حافظ — مع بالغ الأسف — موقفاً وطنيًّا يُحمد له فى هذا الزمن الأسود ، ولم يجرؤ على التنديد بسياسة المستعمرين إلا بعد أن ترك خدمة الجيش ، أو بعبارة أصح بعد أن أُكْرِه على تركها بسنوات حين ألّف كتاب « ليالى سطيح » فيما بين سنتى ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ . ومع ذلك فأنت تجده يعرّض

---

(١) ليالى سطيح ص ٨١ .

بالإنجليز فى شىء من الرفق . وتحس بأنه كان يحرّق الأُرّم غيظاً لأنه لم يكن ذا حظوة عندهم .

وحين نقرأ الأشعار التى نظمها حافظ إبان خدمته فى السودان نحس أنه لم يكن يتفجر غيظاً على جيشه الذى كان مستذلاً تحت جبروت الإنجليز . وكل ما كان يُحنقه ويُشقيه بُعدُه عن القاهرة ومجالسها وسهراتها ، واكتواؤه بقيظ السودان ورماله المحرقة . وقد وجد البون شاسعاً بين حياة القاهرة ولياليها الممتعة وبين حياة السودان القاسية القائظة . لهذا كان يرسل أناته الحزينة إلى أصدقائه بالقاهرة مُهيباً بهم أن يعملوا على نقله من هذا اللظى الذى يكاد يهرّئ أديمه. وعلى رأس هؤلاء الذين استصرخهم حافظ الأستاذ الإمام محمد عبده ، فقد كتب إليه واصفاً ما يعانيه :

« وهأنذا متماسك حتى تنحسر هذه الغمرة وينطوى أجل تلك الفترة ، وينظر لى سيدى نظرة ترفعنى من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وتردنى إلى وكرى الذى فيه درجتُ ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها وردّ الوفى الأمانات إلى أهلها.

فإن شاء فالقرب الذى قد رجوته ... وإن شاء فالعز الذى أنا آمل
وإلا فإنى قاف رؤبة[1] لم أزل ... بقيد النوى حتى تغول الغوائل

فقد حللتُ السودان حلول الكليم فى التابوت والمغاضب فى جوف الحوت بين الضيق والشدة والوحشة والوحدة . لا ، بل حلول الوزير فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف يوم الحساب بين نارين : نار القيظ ونار الغيظ[2] » .
ويمضى حافظ فى شكواه للإمام مصوراً سوء حاله بالسودان ، وما يقاسيه من عنت سردار الجيش المصرى فيقول : « فأصبحت كما سر العدو وساء الحميم وآلامى كأنها جلود أهل الجحيم ، كلما نضج منها أديم تجدّد أديم ، وأمسيت

---

(١) هو الراجز رؤبة بن العجاج ، وكان يصنع أكثر أراجيزه على روى القاف الساكنة فضُرب بقافه المثل فى السكون وعدم الحركة . ويقول أبو العلاء فى قاف رؤبة هذه :
مالى غدوت كقاف رؤبة قُيّدت ... فى الدهر لم يقدر له إجراؤها

(٢) الديوان طبعة وزارة المعارف ١٢٥/٢ .

ومُلْك آمالى إلى الزوال أسرع من أثر الشهاب فى السماء ، ودولة صبرى إلى الاضمحلال أحَثّ من حباب الماء ». ويهيب به أن يخلصه من شقائه فيقول :

نثرتُ منظــوم تيجان الملوك بهــا فراح ينظمه فى وصفك البــال
يا من تيمنت الفـُتْيـا بطلعتــه أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال[1]

ويكتب إلى صديقه محمد بيرم يصور برمه بالحياة فى السودان ويتحسر على أيامه بالقاهرة فيقول من قصيدة :

ولكنى مقيــدة رحــالى بقيد العـُدْم فى وادى الهمــوم
نزحت عن الديار أروم رزقى وأضرب فى المهامه والتخوم
وما غادرت فى السودان قفــراً ولم أصبغ بتربته أديمى
وها أنا بين أنياب المنايا وتحت براثن الخطب الجسيم[2]

ويرسل إلى صديق آخر أبياتاً ينقم فيها على هذه الحياة البغيضة المفعمة بالمشقة والإملاق ويبين لوعته المحرقة إلى مصر :

وما أعــذرتُ حتى كاد نعلى دماً ووسادتى وجه التراب
وحتى صيـّرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعدما دبغتْ إهــابى
وحتى قلـّم الإمــلاق ظفرى وحتى حطم المقــدار نابى
متى أنا بالغٌ يا مصر أرضــاً أشمّ بتربُها ريحَ الملاب[3]

ويردد ضيقه بالسودان فى منظومة يرسلها إلى بعض أصدقائه منها :

من واجــد منفـّر المنــام
طريد دهر جائر الأحكام
مشتت الشمل على الدوام
ملازم للهــم والسقام
....
....

(١) الديوان ١/٥ .
(٢) الديوان ١/١٦٢ .
(٣) الديوان ٢/١٢١ .

تحيـــةٌ كالورد فى الكمام
أزهى من الصحة فى الأجسام
يا ليت شعرى بعد هذا العام
إليكم ترمى بى المـــرامى
أم ينتـــوينى رائد الحمام
فأنطوى فى هـــذه الآكام
وتُولم الضبع على عظـــامى

ويطلب إليهم أن يذكروه إذا انتظمتهم مجالس الأنس واللهو :

بالله أدعـــوكم وبالإســـلام
أن تذكروا ناظم ذا الكلام
إذا جلستم مجلساً للجام[١]

وزاد من نقمة الشاعر على حياته بالسودان أن علاقته بسردار الجيش المصرى (لورد كتشنر) كانت سيئة جداً . وقد امتلأت نفس «اللورد» موجدة عليه حتى ليقال إنه كتب أمام اسمه « لا يرقى ولا يرفت »[٢]. وقد عبر حافظ عن ذلك فى كتابه إلى الأستاذ الإمام مشيراً إلى ما كان بينه وبين السردار فقال: « واليوم أكتب إليك وقد قعدتْ همة النجمين وقصرت يد الجديدين عن إزالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد . فلقد نما ضبّ[٣] ضغنه علىّ وبدرت بوادر السوء إلىّ »[٤] .

ويقولون إن سبب بغض كتشنر له أنه كان مجافياً لروح الجندية ، إذ كان « غير معنى بنظام ولا مراعياً حسن هندام »[٥] . وإلى جانب ذلك « كان رئيس فرقته (رفعت بك) يكرهه ويرفع التقارير السيئة عنه ، إذ كان حافظ يعمل الأراجيز فى ذمه يحدو بها هو وأصحابه ، منها قوله :

---

(١) الديوان ١٩٧/١ .
(٢) الديوان ١٢٩/٢ حاشية .
(٣) الضب : الغيظ والحقد الخفى .
(٤) الديوان ١٢٩/٢ .
(٥) مقدمة الديوان ص ١٣ للمرحوم الدكتور أحمد أمين .

تراه إذ ينفخ فى المزمـــار   تحسبه فى رتبـــة السردار
يجتنب العـــاقل والنبيهـــا   ويعشق الجاهل والسفيها »[١]

وهكذا اصطلحت الظروف على أن تجعل حياة حافظ فى السودان جحيماً لا يطاق . وزاد من كربه أن الحالة الاقتصادية فى السودان بلغت من السوء نهايته ، حتى إنه كان يتعذر على الناس فى بعض الأحايين أن يجدوا الضرورى من مطالب العيش ، فعظم الخطب وتمت البلية . ويحدثنا الأستاذ أحمد محفوظ بأن حافظاً قال له : « لما كنت فى السودان كنت أكتب الاستقالة من عملى فى الجيش ظهراً حتى إذا أقبل الأصيل بنسائمه مزقت الاستقالة »[٢] .

وليته بقى فى وظيفته على هذه الحال المريرة ، فقد شاء القدر أن يسقيه كأس الشقاء حتى الثمالة ، إذ خلصه من شقاء السودان ليزج به فى شقاء آخر أعنف وأنكى ، فقد رماه فى تيه الحياة لا يجد فيه مرتزقا يكفيه شر الحاجة إلا ما قدر له من معاش ضئيل لا غناء فيه .

ذلك أن الإنجليز بعد حادث فاشودة سنة ١٨٩٩ أخذوا يشددون قبضتهم على الجيش فى السودان ، ويكبتون كل حركة وطنية تنهض فيه ، وأخذوا يجمعون السلاح من الجنود خوفاً من اندلاع ثورة ضدهم ، فخشى الجنود المصريون أن يبقوا فى هذه المهامه بدون سلاح ، فتمرد فريق منهم وجاهروا بالعصيان وانحاز إليهم جماعة من السودانيين . ولكن الإنجليز لم يعجزوا عن اشتراء الضمائر والذمم ، فاستطاعوا أن يصلوا إلى نفوس الجند السودانيين ووضعوا أيديهم على زعماء الثورة والمحرضين عليها على حد ظنهم ، آخذين البرىء بالمذنب . ولندعْ حافظاً نفسه يقص علينا مهزلة التحقيق فى هذه الثورة ، قال : « ثم أخذ (أى المحقق) ينظر فى وجوه الحيل ويستنبط أمثل الطرق ، وما زال يستمد قريحته حتى فتق له الذهن أن يبدأ باستمالة الجنود السودانية ، فجعل يدعوهم ليلا على انفراد ، فإذا ظفر بأحدهم هش له وأدنى متكأه وحادثه محادثة القرين ، وقد

(١) المصدر نفسه .
(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٩ .

طرح عنه أبهة الرئاسة وجلس معه على بساط المساواة ، حتى إذا سكنت نفسه إلى حديثه وعلم أنه خلبه بسياسته وكياسته طارحه حديث الثورة وما كان منها ، ثم استرسل إلى ذكر أسبابها فقال إن الأمير حرسه الله واجدٌ على الجيش لانتقاضه على أولياء الأمر فيه . وما غاب عنه أن أولئك المصريين الذين كفروا بنعمته كما كفروا بنعمة أبيه من قبل هم الذين استهووكم بالأباطيل . فما فعلوا ذلك إلا نكالاً بكم حين علموا أننا سنبلغ بكم أسمى المراتب فنجعل منكم الأمراء والحكام فى السودان ، ثم نمكّن لكم فى الأرض ... وما كنا لنعفو عنكم حتى تنكشف لنا بواطن الأمر فنعرف أولئك المصريين الذين نفخوا فى مناخركم فركبتم رءوسكم وطاوعتم أهواءكم . . . فاذكروا لنا أسماءهم لتنظروا كيف نمثل بهم ، واعلموا أنكم لا ترون بعد اليوم إلا خيراً ولا يرون إلا شرًّا... يقول ذلك والقدح لا يكاد يفرغه الزنجى حتى يملؤه الإنجليزى . فإذا نال منه الحديث وأخذت الخمر استملاه أولئك الذين يزعم أنهم جرّوهم إلى عدم الانقياد، فيُملى عليه ما يحضره من تلك الأسماء ، ولا ذنب لأصحابها إلا أنها مرت بخاطر هذا الزنجى حين اضطره ذلك الإنجليزى . . .

« ولما اهتدى ذلك المحقق إلى ما لا تهتدى إليه الكهنة والمنجمون من معرفة الغيب ، وجمع فى خريطته ما يربو على الثمانين اسما خفَّ إلى كبيره وقد حمل ظلماً. فوالذى علّم آدم الأسماء كلها ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبُه غير مكذوب عليه »[١] .

ويذكر حافظ أن هذا الكبير نظر فى قائمة المتهمين الذين يبلغون الثمانين فوجد أن هذا العدد يفوق من قاموا بالثورة العرابية وقُدّموا للمحاكمة . ثم مضى التحقيق فى مهزلته ؛ فقد رأى هذا الكبير أن يضرب على هذا العدد الضخم بالقداح . وشاء سوء الطالع أن يكون حافظ من بين الضباط الثمانية عشر الذين صادف النحس أسهمهم ، فحوكموا وحُكم عليهم بعقوبات مختلفة كان أهونها

---

(١) ليالى سطيح ص ٧٤ .

الإحالة على الاستيداع . وكان حافظ من هؤلاء الذين عادوا إلى مصر وقد حيل بينهم وبين العمل فى الجيش .

ويشير حافظ فى شيء من المرارة إلى ذلك فيقول : « ولقد كنت أحد أولئك الذين ضُرِب علهم بالقداح وهأنذا وليس وراء ما بى من سوء الحال غاية »[١].

وهكذا نرى حافظاً قد أُقصِى عن الجيش على كره منه ، مع أنه لم يشترك فى هذه الثورة ، وقد حزن لما أصابه حزناً شديداً برغم ما كان يعانيه من قسوة الحياة فى السودان . ومن العجيب أن المؤرخ الأستاذ عبد الرحمن الرافعى يريد أن يخلع على حافظ ثوباً من البطولة لا يحق له أن يرتديه فيقول : ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء فى ربوعه فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر »[٢] .

نعم كان حافظ ناقماً على حياته فى السودان ، لا لأن الإنجليز انفردوا بحكمه كما يقول الأستاذ الرافعى ، ولكن لأنه كان لا يحتمل جو السودان ولا يطيق صرامة الجندية . هذا إلى أنه كان محروما من المجالس الممتعة والسهرات اللطيفة التى كان يقضيها مع أصدقائه فى القاهرة كما عرفنا من قصائده ورسائله إلى إخوانه . ولما عوقب بالإحالة على الاستيداع انفطرت نفسه حزناً وغمًّا لفقده مرتبه . ونحن لا نتجنى على الرجل ولا نبخسه حقه ، ولكنا نريد أن نسجل الواقع معتمدين على حقائق التاريخ .

وكانت إحالته على الاستيداع فى ٣ مايو سنة ١٩٠٠ ، وفى أول نوفمبر سنة ١٩٠٣ أحيل على المعاش بناء على طلبه . وكان مرتبه فى الاستيداع أربعة جنيهات فى الشهر .

---

(١) ليالى سطيح ص ٧٩ .
(٢) شعراء الوطنية ص ٩٦ .

٥

حافظ بلا عمل

كان لهذا الحادث تأثير كبير فى نفس حافظ ؛ فقد امتلأت باليأس والسخط على الدنيا وعلى من فيها ، وداخله شيء غير قليل من الخوف ، وتملكه ذعر شديد منعه من أن يبوح بشيء ما عن الثورة وعن التحقيق وعن المحاكمة ، وبخاصة وأنه رأى ما آل إليه أمر هذه الثورة وتقاعُسَ الخديو عن مناصرتهم وإقالة عثرتهم بعد أن حُرموا وظائفهم بسببها ، وقد كان يُظن أنه راض عنها وأنه كان يُذْكى نارها فى الخفاء . وكان حافظ يعبر عن وجله وتوجسه فيقول :

إذا نطقتُ فقاع السجن متكأ ... وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب[1]

وأخذ يبحث عن عمل يرتزق منه لأن معاشه كان ضئيلا لا يكفى حاجته ، فقدّمه الشاعر شوقى إلى جريدة الأهرام ليقوم بعمل فيها ، ولكنه لم يوفّق ، فطفق يضرب فى الأرض باحثاً عن عمل فلم يُصب شيئاً من النُّجْح ، فساءت حاله ، وخالط نفسه اليأس ، وأخذ يصف بؤسه وإخفاقه فيقول :

سعيتُ إلى أن كدتُ أنتعــل الدما ... وعدتُ وما أعبقتُ إلا التندما[2]

ويشير إلى هذا الفشل برغم سعيه المتواصل ، وإلى ضآلة حظه فى الحياة ، وتنكّر الزمن له ، مع أن همته لم تقعد به عن الطلب وبذل الجهد وراء الغاية ، فيقول :

ماذا أصبْتَ من الأسفار والنصب ... وطيكَ العمر بين الوخْد والخبب
نراك تطلب لا َهوْناً ولا كثبــاً ... ولا نرى لك من مال ولا نشب
كم ِهمتُ فى البيــد والآرام قائــلة ... والشمس ترمى أديم الأرض باللهب

---

(١) الديوان ٢/١١٦ .
(٢) الديوان ٢/١١٤ .

وكم لبستُ الدجى والترب ناعسة والليل أهدأ من جأشي لدى النوب
لكنني غير مجدود وما فتئتْ يد المقادير تُقصيني عن الأرب
وقد غدوتُ وآمالي مُطرّحة وفى أمورى ما للضَّبِّ فى الذنب(١)

ويبلغ به اليأس حدًّا يجعله يطلب الموت ، لأن فيه راحة له من هذا العناء :

سلام على الدنيا سلام مودّع رأى فى ظلام القبر أنساً ومغنما
فهبّى رياح الموت نُكْباً وأطفئى سراج حياتى قبل أن يتحطما
فيا قلب لا تجزع إذا عضّك الأسى فإنك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعى فلا سيلَ دمع تسكبين ولا دما
ويا قدمى ما سرتِ بى لمذلة ولم ترتقى إلا إلى العز سُلَّما
فلا تُبطئى سيراً إلى الموت واعلمى بأن كريم القوم من بات مكرما(٢)

ويرى أن المصريين فى هذا البلد وعلى الأخص المسلمين منهم لا يجدون خيراً فيه ولا يطيب لهم فوق ربوعه عيش :

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصريًّا ولا تك مسلما

وهذا الشعر يدل على نفس قد حطمها اليأس ومزقها القنوط ، فراحت تنشد الموت الذى يخلّصها من هذه الحياة البغيضة وذاك العذاب المتصل .

وينحو حافظ باللائمة على والديه اللذين جنيا عليه وكان الأخلق بهما أن يُلقيا به فى قاع الدأماء بدل أن يطرحا به فى عالم التعب والشجب . ولعل «مانى» قد قاسى فى حياته ما يقاسيه حافظ فراح ينشر مذهبه الخبيث الذى ينادى بقطع النسل لكى تفنى البشرية وتتخلص من آلام الحياة الدنيا :

وددتُ لو طرحوا بى يوم جئتهمُ فى مسبح الحوت أو فى مسرح العطب
لعل « مانىَ » لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب

وقد امتلأت نفس حافظ بالعُقد بسبب الحال التى صار إليها ، ووقر فى

---

(١) الديوان ٢/١١٦ .
(٢) الديوان ٢/١١٤ .

نفسه أن أمته لا تعرف له قدراً ولا تقيم لأدبه وزناً :

عقّني الدهر ولولا أنني أوثر الحسنى عققتُ الأدبا
أنا لولا ان لى من أمتى خاذلا ما بت أشكو النُّوبا(١)

وأصبح يشعر بأن الناس تخلَّوا عنه ولم يعُد له نصير فى هذه الحياة ، يقول مخاطبا « تولستوى » الفيلسوف الروسى فى رثائه :

فقد كنتَ عوناً للضعيف وإننى ضعيفٌ وما لى فى الحياة نصير(٢)

وهكذا نرى حافظاً بعد خروجه من الجيش يلقى ألواناً من قسوة الحياة ، وينظر إلى زميله « شوقى » فيراه يرتع فى بُلَهْنية من العيش فى ظل السراى ، فيطوى نفسه على مرارة محرقة ويتشوَّف إلى أن يظفر بشىء من الحظوة لدى الخديو فيهتبل كل فرصة ليزجى إليه عقوداً منظومة من المديح ... يُقبل عيد الفطر فيزف إليه تهنئة ممزوجة بالرجاء أن ينال شيئاً من العطف والتقريب ، يقول فيها :

إلى سُدة العباس وجهتُ مدحتى بتهنئة شوقية النسج معطار
مليكٌ أباح العيدُ لثم يمينه ويا ليت ذاك العيد يبسط أعذارى
ويحمل عنى للعزيز تحية ويذكر شيئاً من حديثى وأخبارى(٣)

وحافظ — كما ترى — يجعل شوقى (شاعر السراى) قدوته فى نظم الشعر ، وبذلك يُشعره بأنه لا مطمع له فى منافسته لو قُدّر له أن يحظى بشىء من تقريب الخديو له . وهو كذلك يشير إلى أنه لم يستطع الوصول إليه ليحظى بلثم يمينه الذى أباحه العيد ، ولذا فهو يعتذر عن تقصيره .

ويُقبل عيد جلوس الخديو فينظم له تهنئة فيها تطامنٌ وتضاؤل أمام الخديو وشاعره شوقى ، وفيها التماس المعذرة إذا عجز شعره عن إيفاء الخديو ما هو خليق به من مدح ، لأن شوقى لم يُسبق له معنى يقوله :

(١) الديوان ٢/٧ .
(٢) الديوان ٢/١٦٤ .
(٣) الديوان ١/١١ .

لم يُبق « أحمدُ » من قول أحاوله في مدح ذاتك فاعذرني ولا تَعِب
فلستُ ممن سمتْ بالشعر همتهم إلى الملوك ولا ذاك الفتى العربي
لكن عيدك يا « عباس » أنطقني كالبدر أنطق صوت البلبل الطرب(١)

وهو يشير كذلك في هذا الشعر إلى أنه لا يتطاول إلى فن شوقي ولا إلى مكانته لدى الأمير .

ويُسرف حافظ في تملقه فيضفي على الخديو ألوانا من المديح ربما لم يسمع الخديو بمثلها من شاعره الأثير شوقي ؛ فهو الذي تحرسه عين الإله وترعاه الشهب ، وهو الحليم العادل الذي يزيل عن المكروب كربته ، وهو الكريم النجار العريق الحسب :

والملك فوق سرير الملك تحرسه عين الإله وترعى أعين الشهب
الحلم حِلْيته والعدل قِبلته والسعد لحته كشافة الكرب
مشيئة الله في العباس قد سبقتْ إلى الجدود ومن يأتي على العقب
فهو ابن أكرم من سادوا ومن ملكوا وهو الأب المفتدى للسادة النُّجُب

ولا يقنع حافظ بذلك ، إذ يذكر أن هذا الذي يقوله لا يجافي الحقيقة ، لأن ما يقال في مدح الخديو لا لغو فيه ولا بهتان ، وبذلك قُضي على الفكرة التي سادت بين أدباء العرب من أن « أعذب الشعر أكذبه » . وذلك لأن الخديو يعصم المديح الذي يقال فيه عن الكذب ، لأنه جدير به :

يا من توهم أن الشعر أعذبه في الذوق أكذبه أزريتَ بالأدب
عذبُ القريض قريض بات يعصمه ذكر « ابن توفيق » عن لغوٍ وعن كذب

ويُهلُّ عيد الأضحى فيزف إليه مدحة لم يترك درّة من درر المديح إلا نظمها فيها على حد قوله :

صُغْتُ القريض فما غادرتُ لؤلؤة في تاج « كسرى » ولا في عقد « بوران »
أغريتُ بالغوص أقلامي فما تركتْ في لجة البحر من درٍّ ومرجان(٢)

---

(١) الديوان ١/١٣ .
(٢) الديوان ١/٢٨ .

وفى هذه القصيدة يصرّح فى غير مواربة بأمله فى أن يقربه الخديو :

يا عبدُ ليت الذى أولاك نعمته بقرب صاحب مصر كان أولانى

وفى تهنئته للخديو بالعام الهجرى يضرع إليه أن يلحظه بنظرة تدفع عنه بأساءه ، لعله يسعد فى هذا العام الجديد :

وكم لمحة فى غفلة الدهر نفّستْ همومًا لها بين الضلوع سعير
فقد يشتفى الصب السقيم بزورة وينجو بلفظ عاثرٌ وأسير
عسى ذلك العام الجديد يسرنى ببشرى وهل للبائسين بشير
وينظر لى رب الأريكة نظرة بها ينجلى ليل الأسى وينير(١)

ولكن ذلك كله لم يُجْدِه فتيلاً ولم يحظ من الخديو بالنظرة التى كان يبتغيها ، وعاش مُعدما أكثر من عشر سنوات بعد عودته من السودان سنة ١٩٠٠ إلى أن منّ الله عليه بوظيفة فى دار الكتب . ومع ذلك لم يكُفّ عن محاولة التقرب من الخديو حتّى إنه لم تغمره الغبطة حين أنعم عليه برتبة « البكوية » سنة ١٩١٢ إلا لأنها سبيلٌ إلى ذهابه مختالا إلى عابدين ليلثم يد الخديو محتثًا مطية الرجاء:

وأمشى اختيالاً إلى عابدين يطالعنى بدرُها عن كثَب
وألثم كف كريم الجدود غياث العفاة مزيل الكُرَب
وأحتثّ بين وفود السراة مطايا الرجاء لذاك الرحب(٢)

ومع كل ذلك لم يُقدّر له أن يحظى بمكان فى السراى. غير أن تعطله عن العمل هذه الفترة قد أجدى عليه من ناحية أخرى ، ذلك أن صلته اشتدت بالإمام محمد عبده وأصبح تلميذه الوفى المخلص ، حتّى إنه قلما كان يفارق مجالسه ، وسنتناول ذلك بشيء من الإفاضة فى مكان آخر .

(١) الديوان ٣/١١ .
(٢) الديوان ١٧٦/١ .

٦
حافظ وحوّاء

فى سنة ١٩٠٦ رأى حافظ أن يؤنس حياته بزوجة تقاسمه لأواء العيش وسرّاءه . ويقولون إن أمه هى التى زيّنت له الحياة الزوجية فخطبت له ابنة رجل من أثرياء حى عابدين اسمه « إسماعيل صبرى»[١] . وبنى بها حافظ ، ولكنه لم يُطق هذه الحياة وأدركه داء الملل الذى عُرف به فطلّقها بعد شهور قليلة ، وافترق الزوجان إلى غير رجعة . ولم ينجب حافظ منها ، ولم يفكر فى الزواج بعد ذلك قط . ولم نجد لهذه المرأة أثراً فى حياته .

وفى سنة ١٩٠٨ قضت أمه ، وبعد قليل لحق بها خاله « محمد نيازى » ولم يبق له من ذوى رحمه إلا أرملة خاله « الست عائشة هانم » التى لم تُرزق بأولاد ، فعاشت معه تعنى بشئونه وتدبر له أموره ، وكان حافظ شديد البر بها ، وظلت معه حتى لبت نداء ربها قبل وفاته بثلاث سنين .

ويبدو لنا من حياة حافظ أن المرأة لم يكن لها مكان ما فى نفسه ، ولم يكن لها كبير أثر فى شعره . وذلك لأن ضيقه بالحياة وسعيه وراء الرزق كانا يملآن مجال تفكيره ووجدانه .

وإنك لو تصفحت ديوانه الضخم لوجدت أن الغزل لم ينل منه أكثر من ثلاث صفحات[٢] ، وكلها مقطوعات قصيرة لا يزيد بعضها على البيتين ، وبعضها مترجم عن « جان جاك روسو » . وهذه المقطوعات لا تدل على نفس تعتعها الحب وتيّمها الغرام . ومن الغريب أن هذه الأبيات الغزلية — على قلتها — تكاد تنصرف كلها إلى المذكر فيما عدا بيتين اثنين خص بهما المرأة وهما :

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٩٢ .
(٢) الديوان ١/٢٤٦ وما بعدها .

أذ نْتُلكِ ترتابين فى الشمس والضحى ... وفى النور والظلماء والأرض والسما

ولاَ تسمحِى للشك يخطر خطرة ... بنفسك يوماً أننى لست مغرما

وأنت غير واجد فى هذين البيتين نفحة الشعر العاطفى ، ولكنك تحس فيهما أثر العقل والفكر .

والحق أن حافظاً لم تكن له هذه العاطفة التى تزخر بالحب ينساب غزلاً وهياماً . وقد أشار إلى ذلك أستاذنا المرحوم أحمد أمين فقال : «كما أن عاطفته ليست من هذا النوع الذى يذوب رقة فى غزل أو هياماً فى حب»[1] .

والواقع أن الحب عاطفة إنسانية نبيلة تملأ القلب بمشاعر الرحمة والحنان . ولست أقصد الحب الذى يكون بين العاشق والمعشوقة فحسب ، وإنما أقصد الحب العاطفى بمعناه الأعم ، كالذى يكون بين الرجل وزوجته أو بينه وبين ابنته كما فعل شوقى . وقد حُرم حافظ هذه العاطفة . وسر ذلك — فيما أرى — أن المرأة قد أفلت من أفق حياته بسبب الظروف التى اختفلت عليه .

ولئن كانت حياة حافظ الخاصة ومشاعره وقلبه قد خلت من المرأة أو كادت فإنه قد أسهم بشعره فى الدفاع عنها ورفع الصوت مطالباً بإنصافها والعناية بتثقيفها. وليس ذلك بالأمر العجاب ؛ فقد كان يغشى مجلس قاسم أمين نصير المرأة الأكبر ويستمع إلى آرائه فى المرأة وتحريرها من ذل الإسار الذى رنّق حياتها قروناً طويلة . وفى ذلك يخاطب قاسم أمين :

أقاسم إن القوم ماتت قلوبهم ... ولم يفقهوا فى السِّفر ما أنت كاتبه

إلى اليوم لم يُرفع حجابُ ضلالهم ... فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه

فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم ... لوضع كتاب لاستقامت رغائبه

ولو خطرتْ فى مصر حواء أمنا ... يلوح محياها لنا ونراقبه

وفى يدها العذراء يسفر وجهها ... تصافح منا من ترى وتخاطبه

وخلفهما موسى وعيسى وأحمد ... وجيش من الأملاك ماجت كواكبه

---

(١) مقدمة الديوان ص ٣٨ .

وقالوا لنـــا : رفع النقـــاب مُحلل لقلنا : نعم حقٌ ولكن نجانبه(١)

فهذه الأبيات فيها صيحة مصلح مخلص فى بيئة متخلفة لا يستطيع فيها أن ينصف المرأة إلا فى حقوقها الأولية . والأبيات — كما ترى — كلها هجوم قاس وتهكم لاذع بأنصار الحجاب .

ولحافظ قصيدة غراء مشهورة بيَّن فيها دور المرأة فى النهوض بالوطن، ودعا إلى الأخذ بيدها وتحريرها فى شىء من القصد والاعتدال .. يقول فيها :

من لى بتربيـــة النساء فإنّهـــا فى الشرق علة ذلك الإخفـــاق
الأم مدرســـة إذا أعـــددتهـــا أعـــددتَ شعباً طيب الأعراق
أنا لا أقول: دعـــوا النساء سوافراً بين الرجـــال يَجُلْنَ فى الأسواق
يدرجن حيث أردن لا من وازع يحذرن رقبته ولا من واقى
يفعلن أفعال الرجـــال لواهيـــاً عن واجبـــات نواعس الأحداق
كلا ولا أدعـــوكم أن تسرفـــوا فى الحَجْب والتضييق والإرهـــاق
ليست نســـاؤكم أثـــاثـــاً يُقتنَى فى الـــدور بين مخادع وطباق
فتوسطوا فى الحالتين وأنصفـــوا فالشر فى التقييـــد والإطلاق(٢)

وقد أشاد حافظ بجهاد المرأة واشتراكها فى الحركة السياسية إبان ثورة سنة ١٩١٩ ، وله فى ذلك نونية مشهورة فيها سخرية لاذعة بجنود الاحتلال حين قاوموا مظاهرة النساء ، مطلعها :

خرج الغـــوانى يحتججـْ ن ورحتُ أرقب جمعهنّه

وفيها يعرّض بالجيش الإنجليزى بعد أن شتت جموع السيدات :

فليهنأ الجيش الفخـــو ر بنصره وبكسر هنّه
فكأنما الألمـــان قـــد لبسوا البراقع بينهنّـــه
وأتوا (بهندنبرج) مخـــ تفياً بمصر يقـــودهنّه

(١) الديوان القديم ١/٨١ طبعة ١٩٠٣ ، ويلاحظ أن هذه القصيدة غير موجودة فى ديوان وزارة المعارف .
(٢) الديوان ١/٢٧٩ .

فلذاك خـافوا بأسهـ ـنّ وأشفقوا من كيدهنّه(١)

ونستطيع أن نقرر أن المرأة قد عاشت فى عالم حافظ، وإن لم يخامر حبها قلبه .

٧

حافظ الموظف بدار الكتب

أحس حافظ بشرّة الحاجة فسعى لدى ناظر المعارف حينذاك المرحوم « أحمد حشمت » ، وكان رجلاً كريماً يقدر الأدب والأدباء ، فرقّ لحاله وعيّنه فى فبراير سنة ١٩١١ فى وظيفة بدار الكتب المصرية تحت الاختبار بمرتب قدره ثلاثون جنيها ، وفى أول إبريل سنة ١٩١٢ صدر قرار بتثبيته فى وظيفته . وفى ٧ فبراير سنة ١٩١٦ عُين رئيسا للمغيرين بالدار. وفى سنة ١٩٢٧ــ وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ــ طلب إحالته على المعاش على أن يُعطى مرتباً شهريّاً قدره خمسون جنيها لأنه أسدى إلى دولة اللغة والأدب خدمات جليلة كما يقول ، ولكنه لم يُجب إلى طلبه .

وقد ظل مرتبه يربو إلى أن بلغ ثمانين جنيها ، وأحيل إلى المعاش فى ٤ فبراير سنة ١٩٣٢ .

وقد أراد المرحوم « أحمد حشمت » أن يقدم للشاعر صنيعاً آخر فسعى لدى أولى الأمر حتى حصل له على رتبة البكوية سنة ١٩١٢ ، ثم مُنح نيشان النيل من الدرجة الرابعة فى السنة نفسها .

والذين اتصلوا بحافظ أثناء عمله بدار الكتب يذكرون أنه كان لا يستقر على كرسيه فى الدار إلا إذا أكره على ذلك ، كأن يحتجزه مثلاً الأستاذ لطفى السيد ــ وكان مديراً للدار فترة ما ــ لمعاونته فى مراجعة ترجمته لكتاب

(١) الديوان ٢/٨٧ .

الأخلاق[١] . ويقول زميله فى العمل الأستاذ أحمد محفوظ : « وربما مضى الأسبوع والأسبوعان والثلاثة وهو لا يأتى إلى عمله ، وإذا جاء جال فى أبهاء الدار جولة قصيرة يضاحك هذا ويمازح ذاك ، ويتنادر ويحادث وهو واقف أو سائر »[٢] . وإذا نضا عن نفسه ثوب الممازحة كان حديثه مع الموظفين لا يعدو محيط العلاوات والترقيات وما شابه ذلك من أمور . ولم تكن له طاقة على العمل ، ولهذا قلما كان يُلفَى جالساً إلى مكتبه ، وفى ذلك يقول الأستاذ محفوظ : « وكان قدوة للموظفين غير حسنة ، لأنا كنا نترك أعمالنا ونتحلق حوله ونحادثه ويضاحكنا ويتنادر علينا ويُنشدنا شعره ، وكان يأبى العمل ويأبى الاحتجاز ويأبى القيود ، فلذلك كان يخاف المجهول الخبىء فى صدور رؤسائه الجدد ، فهو جزع دائما خائف دائما »[٣] . ولذلك كان لا يأتى مدير جديد للدار إلا توهم حافظ أنه سيكشف إهماله وأنه سيضيق به ، وأنه معزول أو محال على المعاش . ومن أجل هذا كان كثير السؤال عن الفرق بين الراتب والمعاش ، ويقول : « الرزق على الله » .

وكان حافظ يخرج من بيته ويتجه إلى الدار أحياناً فيمكث فيها قليلا ، ثم يُبرح إلى خارجها فيلتقى بأصدقائه غالباً فى مقهى « جراسمو » أو مقهى « متاتيا » أو « بار اللواء » وهناك يلتفون حوله حيث ينعمون بما ينفحهم به من طيبات الأحاديث . وسنشير إلى مجالسه هذه فى موطن آخر .

ويذكر المرحوم الدكتور أحمد أمين أن هذه الفترة التى قضاها موظفاً بدار الكتب « كانت فترة نضوب فى شعره وجمود فى قريحته إلا نادراً . فكان منصبه نعمة عليه ونقمة على فنه ، ومنفعة له ومضرة على الناس . ولعل أيام بؤسه الأولى روعته وأفزعته حتى قامت شبحاً دائماً أمام عينه تنذره بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هو أصيب فى منصبه أو مُسّ فى مرتبه»[٤] . وهذا

---

(١) من مقال للمرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتاب « ذكرى الشاعرين » ص ٤٩ .
(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٠ . (٣) المصدر نفسه .
(٤) مقدمة الديوان ص ١٩ .

القول يدل — فى رأيى — على وهن فى طاقة حافظ الفنية ، لأنه يقصر الشعر على أمور السياسة والوطنية . وكان فى مكنة حافظ أن ينأى بنفسه عن مثل هذه الأمور التى تمسه فى منصبه أو فى راتبه ويعوج على فنون الشعر الأخرى — وهى فسيحة — فينظم فيها شعره إذا اختلجت فى نفسه المشاعر ، مثل الوصف — وما أوسع أكنافه — والعروبة والأمجاد القديمة وغير ذلك من دواعى القول التى تشحذ القريحة وتدفع إلى نظم القريض .

ولكن حافظاً قد قصر جهده الفنى عن أن يتناول فنوناً أخرى كانت أخلق بالتناول ، لأنها تبين انطباعات الشاعر وانعكاسات أسرار الكون فى نفسه . وتقصيره فى هذه الناحية يدل على أن أفقه الفنى لم يكن من السعة بحيث يتناول كثيراً من الجوانب الشعرية .

٨
وفاة حافظ

كان حافظ فى السنين العشر الأخيرة من حياته كثير القلق على صحته . وكان يتوهم المرض فى نفسه ، ولا يسمع بعلة من العلل إلا سأل عن أعراضها وأيقن أنه مصاب بها ، وشرع يعالج نفسه منها .

وكان حافظ قد أصيب بمرض السكر ، وحاول أصحابه أن يحملوه على التداوى من هذا الداء ، ولكنه كان ينتظم فى العلاج أياماً ثم ينقطع . وقد حاول المرحوم داود بركات رئيس تحرير « الأهرام » إقناعه بمواصلة العلاج[١] ، فلم يفلح ، لأن حافظاً كان ملولاً بطبعه ، فأهمل العناية بصحته ، واستشرى داؤه وانتابته علل أخرى كلما تقدمت به السن فزاد ذلك من أوهامه . وكان كلما

---

(١) مجلة أبولو عدد يوليه ١٩٣٣ ص ١٣٣٨ .

قضى واحد من أصدقائه أصابه الذعر وأحس بشبح الموت يقترب منه . وقصائده التى نظمها فى أخريات أيامه فى مناسبات مختلفة تشير فى معظمها إلى هذه الحالة النفسية التى كان حافظ يعانى منها الكثير . يقول من قصيدة فى ذكرى الإمام محمد عبده سنة ١٩٢٢ :

قد وقفنا ستة نبكى على عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوا هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعاً فقضَوْا باتفاق فى منـاياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولّى عهدُهم حاضر اللوعة موصول النحيب[1]

ويتوقع أن يخترمه الموت بين آونة وأخرى ، وبخاصة بعد أن قضى صديقه (حفنى ناصف) فيقول من القصيدة نفسها :

آذنت شمس حياتى بمغيب ودنا المنهل يا نفس فطيبى
قد مضى « حفنى » وهذا يومنا يتدانى فاستثيبى وأنيبى
اذكرى الموت لدى النوم ولا تغفلى ذكرته عند الهبوب

وإذ ذاك نراه ينيب إلى الله ويُهيب بنفسه أن تتزود للآخرة ، فخير الزاد التقوى :

واذكرى الوحشة فى القبر فلا مؤنس فيه سوى تقوى القلوب
قدّمى الخير احتساباً فكفى بعض ما قدّمت من تلك الذنوب

ويُحس بأنه قد آن له أن يستريح من هذه الدنيا المليئة بالأوصاب :

حنّ جنباى إلى بَرْد الثرى حيث أنسى من عدو وحبيب
مضجعٌ لا يشتكى صاحبه شدة الدهر ولا شد الخطوب

وفى الجامعة الأمريكية ببيروت يقام له حفل تكريم فينشد قصيدة بهذه المناسبة ، ولا ينسى أن يدس فيها توجسه وإحساسه بقرب منيته :

شاهدتُ مصرعَ أترابى فبشرنى بضجعة عندها رَوْحى وريحانى
كم من قريب نأى عنى فأوجعنى وكم عزيز مضى قبلى فأبكانى

(١) الديوان ٢/٢٠٣ .

من كان يسأل عن قومى فإنهم ولّوْا سراعاً وخلّوْا ذلك الوانى
إنى مللْتُ وقوفى كل آونة أبكى وأنظم أحزانا بأحزان[1]

والظاهر أن إحالته على المعاش كانت نذيراً له بدنو أجله وكان لا يخفى على أصدقائه شعوره بهذا . وفى الشهور الأخيرة ثقلت عليه علته ، ولكنه كان لا يلزم داره إلا إذا أقعده المرض ، فإذا أحس بنعمة العافية تسرى فى بدنه غادر بيته وأسرع إلى أصدقائه : ولكن سرعان ما يعاوده المرض فيلبث فى فراشه قلقاً على حياته . وظل هذا شأنه بعد إحالته على المعاش .

وذات يوم اشتدت عليه العلة ، وكان قد دعا صديقه « إبراهيم راتب » وآخر لتناول طعام العشاء معه ، ولكنه لم يستطع مشاركتهما الطعام فتمدد على مقعد بالقرب منهما يؤنسهما بحلو حديثه ، وهو يعتقد أن برداً خفيفاً قد أصابه سينصرف عنه بعد حين . وبعد أن غادره صديقاه أحس بالمرض يُدْنفه ، فاستدعى الخادم ليناوله الدواء ، ولكنه لم يشعر بشىء من الراحة وأحس بالألم يشتد ويكاد يهصره .

ولما كان الخادم يعرف ما بين سيده والمرحوم (عبد الحميد البنان) من علاقة قوية فقد استدعاه بالتليفون ليسرع بإحضار طبيب ، فجاء على عجل ومعه الطبيب إلى منزل حافظ بكوبرى القبة ، فوجدا الشاعر فى النزع الأخير لا يقوى على النطق بكلمة وداع / ثم ما لبث أن ودع أنفاس الحياة الدنيا وقد ناهز الستين من العمر . وكان ذلك فى الساعة الخامسة من صباح يوم الخميس ٢١ يوليه سنة ١٩٣٢ ، ونعاه إلى مصر والعالم العربى صديقه إسماعيل شيرين مدير المطبوعات فى ذلك الوقت ، فكان الجزع عليه شديداً . وشُيع إلى جدثه فى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم[2] ، وقد سار فى جنازته علية القوم وأهل الفكر والأدب . وكان أشدهم حزناً عليه المغفور لهما الشيخ عبد العزيز البشرى والشاعر خليل مطران . وصُلى عليه فى جامع الكخيا ، ثم دُفن فى مقابر السيدة نفيسة

---

(١) الديوان ١/١٣٣ .
(٢) صحيفة الأهرام بتاريخ ٢٢ يوليه سنة ١٩٣٢ .

رحمه الله . وقد رثاه على القبر الأستاذ عباس محمود العقاد والمرحوم الشاعر محمد الهراوى . وكان صديقه المرحوم «محمد محمود باشا» يتقبل فيه عزاء المعزين. وبذلك خمد صوت طالما جلجل فى سماء الوادى وصدح على ربوعه بمختلف الألحان .

٩

أخلاقه وشخصيته

لم يذق حافظ للراحة طعماً طول حياته ، فقد مات والده وهو طفل ، وخلّف له اليتم والإملاق ، وحاربه الزمان حرباً لا هوادة فيها ؛ فقد بَرِم به خاله وشعر بأنه كلٌّ عليه ، ولم يطبْ نفساً لمهنة المحاماة . ثم هيأت له الأقدار وظيفة ضابط بالجيش يأتيه منها رزقه رغداً كل شهر ، ولكنها طوّحت به إلى السودان ، فقاسى هناك الكثير من العنت والإرهاق ووقدة الحر ، وكان رجلا لا يقوى على تحمل متاعب الجندية ومقتضياتها ، فضاق بالحياة فى السودان ، وأخذ يستصرخ من يعرفهم من الكبراء فى رسائل شعرية ونثرية طالباً إليهم أن يخلصوه من هذه الحياة البغيضة . وكأن الأقدار أرادت أن تخلصه من بأسائه فى السودان ولكن بطريقة مؤلمة عنيفة، إذ وُجِّهَتْ إليه تهمة أُحيل بسببها إلى الاستيداع ، فغادر السودان إلى مصر ، ثم أحيل إلى المعاش . وكان المرتبُ الذى يتناوله من معاشه ضئيلا لا يكاد يفى بمطالبه . فأخذ يطرق الأبواب باحثاً عن عمل مناسب ، ولكنه لم يوفَّق ، وقدّمه شوقى شاعر السراى إلى جريدة الأهرام ليتولى عملا فيها فلم يتم له ما أراد .

وقد عزّ على حافظ أن يُرمى بهذه الأرزاء وهو فى مستهل حياته وفى فجر شبابه ، وكان ذا نفس شاعرة وحس مرهف ، فضاق بالحياة وبالناس ، ونقم على قومه الذين لم يعرفوا قدره :

فما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب[1]

ويقول فى حسرة تعصر الفؤاد :

لكننى غير مجدود وما فتئت يد المقادير تقصينى عن الأرب
وقد غدوتُ وآمالى مُطرَّحة وفى أمورى ما للضب فى الذنب[2]

وفى شيء من المرارة المحرقة يقول :

فلم يغن شيئاً ولم يجدهم ولم يبق إلا بقاء الحبب
فلا السبق لى فى مجال النهى ولا لى يوم الفخار الغلب[3]

ولا ينفك يردد خذلان أمته له وتحالفها مع الزمن لمحاربته ، وينعى عليها عبثها وانصرافها عن أمور الجد :

عقنى الدهر ولولا أننى أوثر الحسنى عققتُ الأدبا
أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا ما بتُّ أشكو النُّوبا
أمة قد فتَّ فى ساعدها بغضُها الأهلَ وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا وتفدَّى بالنفوس الرتبا[4]

وكان سيئ الظن فى أمته قليل الثقة بها ، حتى إنه ينعى على النيل وفاءه لهذه الأمة الكنود فيقول فى « ليالى سطيح » : « ويحك ، إلى متى يسع حلمك جهلَ هذه الأمة المكسال ، وإلى كم تحسن إليها وتسيء إليك ؟ علمتْ أن سيكون منك الوفاء فلم تحرص على ودّك واتكلتْ على حلمك وبالغتْ بعد ذلك فى عقوقك . . . وأمعنت فى العقوق فجعلتك مصرفاً لفضلات البطون ، ثم أمعنت فى العقوق فصيّرتْك مقبرة للجيف لتصبح بذلك مجرى البلاء ومستودعا للوباء »[5] . ثم يذكر مبلغ تنكر الأمة للنابغين من أبنائها ومحاربتها إياهم فى

---

(١) الديوان ١/٢٥٦ .
(٢) الديوان ٢/١١٦ .
(٣) الديوان ١/١٧٦ .
(٤) الديوان ٢/٧ .
(٥) ليالى سطيح ص ٣ .

غير هوادة فيقول : « ينبغ فيها النابغة فينبعث أشقاها للطعن عليه ، فلا يزال يكيد له حتّى يبلغ منه . ويكتب فيها الكاتب فينبرى له سفيهها فلا يفتأ ينبح عليه حتّى يُنشب فيه نابه ويفسد عليه كتابه . ويشعر فيها الشاعر فيحمل عليه جاهلٌ فلا ينفك عنه حتّى يغلبه على أمره ويقهره على شعره »(١) .

وكان حافظ ينظر حوله فلا يرى من ذوى رحمه من يحدب عليه أو يبثه شكواه وآلامه :

وما لى صـــديق إن عـــثرتُ أقالنى   وما لى قريب إن قضيتُ بكانى(٢)

ولكنه وجد أن شكواه لم تُجدِ وأن صرخاته تذهب أدراج الرياح فانقلب إلى رجل مستخف بالدنيا ساخر من الناس والأحداث .

وكان حافظ رجلا حلو الشمائل نقى السريرة مُوطّأ الأكناف يألف ويُؤْلَف . كان كما يصفه المرحوم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى « كماء النبع الصافى الذى لم يمتزج بعد بتراب الأرض وأقذارها »(٣) . وكانت شخصيته واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد ، يستطيع المرء أن يصل إلى أعمق أعماقها فى غير عسر أو مشقة . لهذا ألفه الناس وأحبته الأفئدة . ويقول عنه أستاذه البارودى من قصيدة يقرّظ بها ديوانه حينما طُبع لأول مرة :

ملكتْ مودّتهُ القلـــوبَ فأصبحتْ   تلقـــاه بالتـــوقير والإعـــزاز(٤)

ويقول صديقه الأستاذ أحمد محفوظ : « كان ساذجاً سذاجة تكاد تلحقه بالبلهاء ، فهو يصدق كل ما يقال له ... وكان طيب القلب لا يعرف الحقد ولا يتعلق بضغينة على أحد مهما لحقه من أذى »(٥) . وكان لسذاجته يرعبه الخوف من التوافه ، ويعتقد فى أمور غريبة ؛ فقد ذكر بعض أصدقائه أنه كان يعتقد أن نفحة التفاح منومة ، فكان لهذا يكثر من شمه وأكله ، وإلى ذلك يشير بقوله :

(١) ليالى سطيح ص ٤ .
(٢) الديوان ٢/١٨٣ .
(٣) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) .
(٤) الديوان القديم ١/١٨٢ .
(٥) حياة حافظ إبراهيم ص ١٥٨ .

كم خدّرتْ أعصابَ مصر نوافحٌ لوعودهم كنوافح التفاح[1]

ويقول الأستاذ حسن كامل الصيرفى : « إن نفسية حافظ كانت ساذجة كل السذاجة طيبة كل الطيبة ، يُقبل على من يحبه كل الإقبال ويغضب سريعاً ، ولكن ما تبدو له فى الأفق ظاهرة من مظاهر فرح أو أسى لصاحب أغضبه حتى ينسى كل شىء »[2] .

وكان مظهر حافظ يوحى بغير مخبره ؛ فمن يره لأول وهلة يعتقد أنه رجل فدْم ثقيل ، وبعد هنيهة من مجالسته ينقلب رأيه فيه إلى النقيض . وفى ذلك يقول الأستاذ سلامة موسى : « وكان حافظ يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم ، يَصدم بل يُخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه المرء نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه »[3] .

ومن أخص صفات حافظ الجود الذى يكاد يبلغ حد السفه . كانت حافظة نقوده فى متناول كل يد . . . كان أجود من الريح المرسلة كما يقول صديقه الشيخ البشرى . ولو أنه قبض يده بعض الشىء لأصبح من أهل الثراء والغنى . ويتحدث الناس عن سخائه بما يشبه الأساطير التى نقرؤها عن أجواد العرب القدامى .

ويقول صديقه الأستاذ حسن الحطيم : « وإنى لأذكره فى جلسته فى (بار اللواء) وقد التف من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون وداروا حوله فى شبه حلقة ، وحافظ لا ينقطع (الجرسون) عن التردد فى مجلسه ذهاباً وجيئة ، فإذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير »[4] . وكان العُفاة وذوو المتربة يقصدونه فيُفرغ فى أيديهم كل ما فى جيبه ويبقى خالى الوفاض ، ثم يبيت ليلته على الطوى . وكل من اتصل به يذكر عن كرمه الفياض الحكايات الغِراب ؛ من

---

(١) الديوان ٢/٩٧ .

(٢) حافظ وشوقى للأستاذ الصيرفى ص ١٥٨ .

(٣) ذكرى الشاعرين ص ٥٦ .

(٤) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣١٦ .

ذلك أنه سمع عَرَضاً أن امرأة فقيرة تجاور داره بالجيزة قد جاءها المخاض فبعث إليها بعشرة جنيهات . وكان مرتبه حينذاك لا يزيد على الأربعين جنيها[١] . وكان واسع الرزق يأتيه المال من حيث لا يحتسب ، ولكن هذا المال كان لا يستقر فى جيبه ، إذ سرعان ما يبسط به يده إلى الأيدى الممتدة إليه ؛ وكأنه يتمثل بقول الشاعر :

يجود علينا الخيِّرون بمالهم ونحن بمال الخيِّرين نجود

كان متلافاً للمال ، لا يعرف له قيمة ولا يحسب للدنيا حساباً ، كان يعطى من يسأله ومن لا يسأله . كان يقبض مرتبه فى أول الشهر فيبدده فى بضعة أيام على نفسه وعلى إخوانه .

ويذكرون أن وزارة المعارف حينما قررت كتاب (البؤساء) فى مدارسها منحته مبلغ ألفى جنيه . وقد أنفق هذا المبلغ الضخم فى شهر واحد . وكان فى استطاعته أن يقتنى الدور والضياع . ولكنه مات ولم يترك كفافاً من المال ينفع من بعده من ذوى رحمه . كان يرى المال وسيلة من وسائل العيش لا غاية من غايات الحياة . كان المال عنده أهون أعراض الدنيا ؛ ويروى أحد أصدقائه فى دهش شديد أن صحفياً راهن حافظاً على أمر من الأمور ، فلما خسر حافظ الرهان أخرج من جيبه فدية رهانه ورقة مالية من فئة الخمسين جنيهاً . وكان موقفاً أثار عجب الحاضرين الذين خيِّل إليهم أنهم لا يعيشون فى هذا العالم المادى الصاخب . ومن طريف ما يذكره عنه الدكتور أحمد أمين « أنه كان يقترح على الحكومة أن تعطى موظفها أكبر مرتب أول استخدامه ثم تنقصه شيئاً فشيئاً كلما تقدمت به السن ، لا أن تعطيه مرتباً يزيد مع القدم ، وكان يعلل ذلك بأنه يبدأ وظيفته وهو يبدأ شبابه ، وهذا هو زمن الإنفاق ، فإذا هرم ثم شاخ فإنه يكفيه القليل ، وحسبه من غنى شِبعٌ وريٌّ »[٢] .

ولعل كرمه هذا راجع إلى أنه تجرع كؤوس البؤس مترعة فأحس وقعه فى النفوس فسخَتْ كفه ونديَتْ راحته .

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٣ . (٢) مقدمة الديوان ص ١٨ .

وكان حافظ فى بيته مضيافاً يحتفى بضيوفه ويقدم لهم أقصى ما فى طوقه من ألوان الطعام الفاخرة . وكان منهوما بالطعام الدسم ، يحب الضيافات الواسعة التى تقدم فيها الذبائح من ضأن وديكة رومية وغيرها ، ويحب أن يرى الأوانى قد حُشدت فيها لذائذ الطعام من فطائر وحلوى وطيور .

ولم يكن شديد البطش بالطعام الفاخر بقدر ما كان يحب أن يمتع نفسه بالنظر إليه وبخاصة بعد أن تقدمت به السن . ويحكى صديقه المرحوم خليل مطران « أنه ذهب مع حافظ ذات صيف إلى سوريا ، فدعاهما رئيس الدولة لتناول الغداء بقصر الرئاسة ، وقد دُعى إلى هذه الوليمة الوزراء وعلية القوم . وطاف الخدم على المدعوّين يقدمون لهم ألوان الأطعمة المختلفة على طريقة الفنادق الكبرى . ولم يجد حافظ على المائدة ما كان يود أن تكتحل به عيناه من الذبائح والصوانى المتدفقة بمفاخر دمشق من الأطعمة التى يجيدون صنعها ، فمال إلى جانب الرئيس وسأله مداعباً : ما لكم تأكلون على طريقة المقتّرين الإفرنج ؟ فبالغ الرجل فى الاعتذار وقال : إنى آسف لأنه سبق إلى علمى أنك تستشفى هنا ، وخشيتُ ألا يكون الطعام صحيًّا يلائم مزاجك . فقال : شكراً ، ولكن هؤلاء المدعوّين ما ذنبهم ؟ ولما أوشكت الوليمة على الانتهاء ، وكان على حافظ أن يلقى كلمة شكر ، استعاض عنها بنكتة لطيفة ، إذ سأل رئيس الدولة : مَن وزير ماليتكم ؟ فأشار الرئيس إليه ، فقال حافظ : أهنّئ الدولة بكما لأن خزانتها ستبقى عامرة »[1] .

وكان حافظ يتصف بالصراحة البالغة إلى أقصى حد ، كانت صراحته فى بعض الأحايين كالحة . . . إذا استفزه أمرٌ ثارت نفسه واستحال عليه أن يكبح جماحها ، وانطلق فوه يقذف بما فى دخيلتها .

كان يقول للأعور فى عينه يا أعور ، ما عدا الرؤساء ومن بيدهم الضر والنفع . ويصف صراحته الشيخ عبدالعزيز البشرى فيقول : « يحب الجمال ويجتمع

---

(١) مجلة الكتاب (أكتوبر سنة ١٩٤٧) ص ١٤٩٧ .

له ويكره القبح وينعى على أهله ، يجابه بذلك مجابهة لا يتقى فى القول ولا يتحرف »[١]. وكان — لفرط سذاجته — سريع الغضب سريع الرضا ، يتحول فى لحظات من الحال إلى نقيضها . وكان لهذه الخلة مظهر واضح فى علاقته بالرجال وفى رأيه فيهم . وهذه غميزة نغتمرها فى شخصية حافظ ، وهى دليل واضح على تهافتها وضعفها . ويتبين لنا ذلك من موقفه المتناقض من السلطان عبدالحميد ، وسنتناول هذه المسألة فى موضع مناسب . وقد ضاق كثير من الأدباء ذرعاً بموقفه هذا وهاجمه بعضهم فى شىء من القسوة والعنف واعتبروه رجلا عاجزاً واهن الشخصية يتابع الجماهير فى ميولها وتقلباتها. واقرأ ما يقوله عنه المرحوم الأستاذ إبراهيم المازنى : « ألا ترى كيف أنه مدح السلطان عبد الحميد قبل الدستور ، ثم صرف بعده الثناء إلى رجال تركيا الفتاة وجعله وقفاً عليهم . وهل أدل من ذلك على أنه ليس بصاحب رأى وأنه إنما يتابع الجمهور ويجاريهم فى آرائهم وأميالهم ، لا لرياء فى طبعه ، ولكن لعجز وضعف فى ذهنه »[٢] .

وكان حافظ شديد الحرص على منصبه ، وكأنما كان شبح البؤس والفقر يمثل أمام ناظريه إذا هو أصيب فى منصبه . وقد دفعه حرصه هذا إلى ألا يقول ما يغضب الحاكمين ومن بيدهم الأمر ، وغلا فى ذلك غلواً بلغ حد التملق البغيض ، فكان يمدح المستعمرين مدحاً تخجل منه الوطنية الصادقة . وكان لا يستطيع أن يخفى إشفاقه من الفصل من الوظيفة . ويخبرنا أستاذنا الدكتور طه أنه لقيه مرة عند المرحوم « محمد محمود » رئيس الأحرار الدستوريين فأنشده شعراً نظمه فى مدح (الباشا) يثنى فيه على جهوده وبلائه فى مفاوضة الإنجليز أيام أن كان رئيساً للوزارة ، وكان الدكتور طه يعرف منه هذا الضعف ، فأحب أن يداعبه ، فقال له أمام الممدوح وبعض صحبه : « ما أجمل هذا الشعر وأقواه ! » فقال حافظ : « أتسمعون ؟ سجلوا عليه ، فإنه خليق بعد ذلك أن ينقلنى» فقال الدكتور طه : « اشهدوا علىّ أنى مستعد للثناء على حافظ فى غير تحفظ

---

(١) ذكرى الشاعرين ص ١٠ .

(٢) شعر حافظ للأستاذ المازنى ص ١٤ .

إذا نشر هذا الشعر »، فقال حافظ مقهقهاً : « اذمّني ما شئت في غير تحفظ ، فلن أنشر هذا الشعر لأني لا أريد أن أحال إلى المعاش الآن » ، فقال الدكتور طه : « فإني سأنشر فصلا عنك كله ثناء وسأستشهد ببعض هذا الشعر » ، قال : « ولا هذا أيضا » ، وقضى المجلس وقتاً طويلاً في الضحك من إشفاق حافظ وخوفه[1].

وقد كان حرصه البالغ على وظيفته يدفعه أحياناً إلى أن يأتي أموراً تزرى بمروءة الرجل وتحط من قدره ، يشهد بذلك من اتصلوا به عن كثب ، فقد حدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ ، قال : « سمعت "مصطفى الخولى"[2] وهو صديقه الحميم وجاره أيام كان يسكن في ضاحية الجيزة يقول : إن حافظاً أنكرني وتغافل عني ولم يحيني وهو يدخل مطعم "جوانيدس" في الإسكندرية لأني فُصلتُ من مجلسي النواب والشيوخ ، فهو يخاف سعداً ورجال الوفد ، وكان مصطفى الخولى رجلا سمحاً متواضعاً »[3] .

وكان حافظ يمدح سعد زغلول ما كان له سلطان ، فإذا سقط منه صولجان الحكم انصرف عنه حافظ خشية أن يلحقه سوء .

ولما قضى سعد سنة ١٩٢٧ وأقيم له حفل تأبين رثاه حافظ بقصيدة تعتبر من غرر قصائد الرثاء في الشعر العربي[4] . ومن الغريب أن الدكتور سامي الدهان يعتد ذلك من حافظ شجاعة وطنية ، لأنه اجترأ على رثاء سعد « ولم يخفْ موقعه من الحكومة ومحله من الوظيفة ومكانه من الراتب »[5] . وقد نسي الدكتور الدهان أن الحكومة كانت آنذاك حكومة ائتلافية تمخض عنها ائتلاف الأحزاب الذي تمّ في سنة ١٩٢٦ . وكان سعد رئيس مجلس النواب ، وقد اشتركت الحكومة في تأبين الزعيم الراحل . والمخضرمون في السياسة يذكرون أن رئيس الوزارة المرحوم

---

(١) حافظ وشوقي للدكتور طه حسين ص ١٩٤ .
(٢) ذكره حافظ في شعر له يدل على ما كان بينهما من مودة . الديوان ١/٢٠٤ .
(٣) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٢ .
(٤) اقرأ القصيدة في الديوان ٢/٢١٨ .
(٥) شاعر الشعب ص ٤٣ .

« عبد الخالق ثروت » وقف يومئذ يؤبن سعداً فخنقته العبرات ولم يستطع أن يفوه بكلمة فغادر منبر الخطابة وقد انعقد لسانه عن الكلام . فأين هى الجرأة التى بدت من حافظ حين رثى سعداً حليفَ الوزارة القائمة ؟ إنه حين رثاه كان يأمن مغبة ذلك ولا يتوجس منه أى أذى يصيبه فى وظيفته .

ومن أبرز صفات حافظ التردد وعدم الإدلاء برأى قاطع فى أمر من الأمور ، وهذه الصفة وثيقة الصلة بصفة الخوف التى أشرنا إليها ، لأنه كان يشفق على نفسه من أن يغضب أصحاب اليمين إذا أيد أصحاب الشمال مثلا .

تحدثُ أحداثٌ تهز الشعب المصرى ، وينقسم الناس فى شأنها إلى فريقين ، ويتقدم حافظ شاعر الشعب ليدلى بدلوه فى الدلاء ، وينتظر الناس من شاعرهم الرأى الحاسم يهديهم سواء السبيل ، فإذا به يخرج لهم برأى فطير ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ إذ يقف موقفاً وسطاً هو موقف الرجل الحذر الذى يؤثر العافية ، وكأنه اتخذ لنفسه موقف المتفرج الذى يسجل ما يرى وما يسمع ليس إلا .

يُنقل طاغية الاستعمار وجلاد دنشواى (لورد كرومر) فتتنفس الأمة الصُّعَدَاء وتشيعه بعبارات الشماتة والمقت ، وينتظر الناس من حافظ أن يصبّ على رأس الطاغية اللعنات ، كما فعل زميله أمير الشعراء « شوقى » ، ولكنه — مع بالغ الأسف — صنع ما لم يكن فى حسبانهم ، إذ أخذ يسرد آراء الناس فى الطاغية ؛ طيبها وخبيثها . ولم يكتف بذلك ، فأخذ يعدّد أياديه (البيضاء) على المصريين وهم ليسوا (أمة تجحد اليدا) على حد تعبيره ، والله يعلم أن أيادى هذا الطاغية الجبار كانت أحلك من دياجير الليل البهيم ، وحافظ نفسه أول من يعرف ذلك ، وسنتحدث عن ذلك فى فصل خاص . ثم يختم حافظ القصيدة بهذه الأبيات التى لا تعبر عن رأى صريح ، اللهم إلا تحية كريمة فى وداع (الشيخ الجليل) :

فهذا حديث النـــاس والناس ألسُنٌ ... إذا قال هذا ، صاح ذاك مفنّـــدا
ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم ... لسجلتُ لى رأيا وبلّغتُ مقصـــدا
ولكننى فى معرض القـــول شـــاعر ... إضاف إلى التاريخ قولاً مخـــلّدا

فيأيهـا الشيخ الجليـل تحيـة ويأيهـا القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنـك لعلة لقد لبثتْ آثاره فيك شُهَّدا (١)

وتحدث حادثة زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد بالسيدة « صفية السادات » فتُصبح حديث الناس فى كل مكان ، وتُفيض فيها الصحف ، ويتناولها الشعراء ، ويُدلى كل واحد برأيه ، وتشرئبّ الأعناق إلى حافظ آملة أن يدلى لها برأى صريح فى هذه المسألة ، ولكنه يقف موقف الراصد المسجل فحسب :

وقالوا : « المؤيد » فى غمـرة رماه بها الطمـع الأشعبى
دعاه الغرام بسنّ الكهـول فجُنّ جنـونا ببنت النبى
فضجّ لهـا العرش والحاملوه وضج لها القبر فى يثرب
ونادى رجـال بإسـقاطه وقالوا : تلـوّن فى المشرب
وعـدّوا عليه من السيئات ألوفا تـدور مع الأحقُب
وقالوا : لصيقٌ ببيت الرسـول أغـار على النسب الأنجَب
وزكىّ « أبو خطوة »(٢) قولهم بحـكم أحـدّ من المضرب
فـما للتهـانى عـلى داره تسـاقطُ كالمطر الصيّب
ومـا للوفـود على بـابه تَزفّ البشـائر فى موكب
وما للخليفـة أسـدى إليه وسـاما يليق بصدر الأبى (٣)

ويموت قاسم أمين صاحب الدعوة إلى السفور وتحرير المرأة فيرثيه حافظ ، ويعرض لدعوته ، ولكنه لا يقطع بإصابة قاسم أو بخطئه ، ولم يصنع أكثر من تسجيل آراء المعارضين والمؤيدين :

إن رَيْتَ رأيـاً فى الحجـاب ولم تُعصَم ، فتلك مراتب الـرسُـل
الحـكم للأيـام مرجعُـه فيما رأيت فنَمْ ولا تسـل

(١) الديوان ٢/ ٢٦ .
(٢) أبو خطوة هو الشيخ أحمد أبو خطوة قاضى المحكمة الذى حكم ابتدائيًّا بفسخ عقد الزواج .
(٣) الديوان جـ/٦ ٢٥ .

وكـذا طهـاة الرأى تـتركه للـدهر يُنضجـه على مهل
فإذا أصبتَ فأنت خـير فتى وضـع الدواء مواضـع العلل
أوْلاَ ، فحسبك ما شَرفتَ بـه وتركتَ فى دنيـاك من عمل(١)

ويصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فينظم حافظ قصيدة بهذه المناسبة مطلعها :

ما لى أرى الأكمام لا تفتـح والروضَ لا يذكو ولا ينفَّح(٢)

وفيها لا يبدى حافظ رأيه واضحاً صريحاً ، وإنما يقف موقفاً لا يحاسَب عليه ، وهو تسجيل الآراء المختلفة :

قد حارت الأفهام فى أمرهم إن لحّوا بالقصد أو صرحوا
فقائلٌ لا تعجـلوا إنكم مكانكم بالأمس لم تبرحـوا
وقائل أوْسعْ بهـا خطـوةً وراءهـا الغـاية والمطمح
وقائل أسرف فى قـولـه هـذا هو استقلالكم فافرحوا

فأنت تراه فى هذه المسائل وفى أمثالها مضطرباً غير مستقر ، لا يستطيع الجزم برأى . وسر ذلك — فيما أرى — أمران :

الأول : ضعف شخصيته وعدم استبطانه للأمور ، فهو يخشى أن ينكشف أمره إذا ما بتّ برأى قاطع فى المسائل التى تشغل الناس لأنه قلما يعكف على مسألة أو يستوعبها فى إمعان وروية ، فقد حكى عنه بعض أصدقائه رواية عنه أنه لم يقرأ كتاب « تحرير المرأة » وإن كان قال فيه شعراً(٣) .

الثانى : خشيته من أن يناله أذى إذا انحاز إلى رأى دون رأى . والواقع أنه ما كان يمسه ضرٌّ إذا أبدى رأيه صريحاً شاخاً فى هذه المسائل التى شغلت الرأى العام ردَحاً من الزمان .

ولكن حافظاً كان يتوجس الأذى من كل شىء . وما أصدق الأستاذ

---

(١) الديوان ٢/٥٦جـ .
(٢) الديوان ٢/٩٤ .
(٣) الدكتور أحمد أمين فى مقدمة الديوان ص ٣٣ .

أحمد محفوظ حين وصفه أدق وصف قائلا : «كان رعديداً يرعبه الخوف من التوافه ، كأنه طفل صغير ملأت رأسه صور الغيلان والعفاريت من قصص العجائز فى ليالى الشتاء المقرورة »[١] .

وقد جمع أشتات شجاعته مرة بعد أن أحيل على المعاش ، وندد بحكومة إسماعيل صدقى فى مارس سنة ١٩٣٢ حين اضطرت الأستاذ أحمد لطفى السيد مدير الجامعة إلى الاستقالة احتجاجاً على نقل الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب إذ ذاك إلى وزارة المعارف بدون رضاه وبدون موافقة الجامعة ، وحين اضطر الأستاذ محمود غالب — وكان رئيساً لإحدى دوائر محكمة الجنايات — إلى التنحى عن نظر قضية القنابل المعروفة قائلا : إنه لم يخضع إلا لسلطان ضميره ، فنظم حافظ أبياتاً يمجّد فيها عمل الرجلين ويندّد بطغيان الحكومة منها :

قد راع دار العدل طغ   يانٌ وراع الجامعه
فحميتما حرميهما   رغم الخطوب الفاجعه
وقهرتما الباغى على   رد الحقوق الناصعه
لله در المستشا   ر ودرّ ذاك الباقعه
فهما اللذان تكفلا   عنا بصدّ القارعه[٢]

وكان حافظ ذا نفس خائرة لا تستطيع مواجهة الأخطار ، ولم يكن بالرجل الجلد الذى يصمد لنوازل الزمان . كان إذا خاشنته الدنيا مخاشنة رفيقة وهنت نفسه وتملكه الجزع . ونحن لا ننسى خور نفسه وضيقه بالحياة فى السودان وهو فى هذه السن الفتية التى تمتلىء فيها النفس بالآمال العراض . ولم تنقطع رسائله إلى أصدقائه بالقاهرة ، وكلها مليئة بالشكورى من سوء حاله فى السودان . وبلغ به الضيق أنه كان يتمنى الموت من هذه الحياة الثقيلة ، واقرأ قوله إلى صديقه محمد البابلى من قصيدة يعاتبه فيها ويبثه آلامه وأحزانه :

كيف تنسى يا « بابلىّ » غريبا   بات بين الظنون والأوهام

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦١ .
(٢) الديوان ١/١٤٢ .

وحزينا إذا تنفس عادت ... فحمة الليل جمرة من ضرام
وإذا أنّ كاد ينصدع الأفـ ... ـق وتعتلّ دورة الأجرام
بات تحت البلاء حتى تمنى ... لو يكون المبيت تحت الرغام[١]

وله فى ذلك كلام كثير من المنثور والمنظوم — أشرنا إلى بعضه — يدل على أنه لم يكن « رجل حرب » ، بل كان رجلا محطم النفس ، قلبه فى جناحى طائر كما يقول العرب . وكان يرى أن أشق أيامه وأثقلها على نفسه هى تلك التى قضاها فى الجيش ، وفى ذلك يقول : « فلقد لبثت فى الجيش مع من فيه بضع سنين فصبرنا على ما لا يصبر على بعضه كل أولئك الذين سُخّروا لبناء الأهرام »[٢] .

ومن أظهر طبائع حافظ أن صدره كان ضَيّقاً حرَجاً لا يحتجز فيه سرا من أسراره أو من أسرار أصدقائه ، فإذا لامه صديق على إفشاء سرّ أجابه قائلا : « ومن الذى حملك على قوله لى ؟ » وكأنه يردد قول الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرء عن سر نفسه ... فصدْرُ الذى يُستودَع السر أضيق

ويقول كل من خالطه وكان من أصفيائه إنه كان هجّاءً حديد اللسان ، يتناول خصومه وكل من يغضبه بقوارص الكلم . ويذكرون أنه كان ينظم شعراً فيه هجاء فاحش ، ولكنه كان يستخزى أن ينشره . وقد وعت صدور بعض أصدقائه أبياتاً له فى هجاء سعد زغلول منها قوله :

فما دام فى قصر الدبارة ربه ... فسعدٌ ودنلوبٌ لعمرك واحد[٣]

والحق أن سعداً لم يكن يستحق ذلك ، فقد كان شخصية فذة قوية ، وهو الذى قاوم طغيان « دنلوب » المستشار الإنجليزى وأوقفه عند حده ، بينما سجد له غيره ممن تولوا « نظارة المعارف » . وقال أيضاً يتّهمه بالأنانية ويُغرى به الخديو عباس :

أنا ، أنا ، منه كل يوم ... لها صدًى بيننا يرنّ

(١) الديوان ١/٢٠٢ .
(٢) ليالى سطيح ص ٧٩ .
(٣) انظر مجلة أپولو ص ١٣٣٦ . وهذا البيت والبيتان بعده لم تذكر فى الديوان .

أدْرِك أنا وهي في صباها إن لم تقل : نحن . . . قال : نحن

وقد ذكر بعض شيوخ الأدب ممن كانوا على صلة بحافظ أنه كان صديقاً لسعد ، ثم تولّى سعد نظارة المعارف ، فأراد حافظ أن يقابله في مكتبه في شأن خاص ، فوقف في طريقه السعاة والحجاب وسألوه أن يذكر حاجته وينتظر بالباب حتى يأذن له الوزير . فخرج حافظ مغضباً ، وذهب يشكوه إلى الشاعر إسماعيل صبرى ، وكان في نفسه من سعد أشياء فأغرى حافظاً بهجائه ، وكان أول ما هجاه به قصيدة كافيّة فيها كثير من الفحش نذكر أخفها على الآذان وقعاً . . . قال حافظ بعد أبيات يشير إلى موقف سعد وحميه مصطفى فهمي باشا الذى كان معروفا بموالاة الإنجليز :

بانيك ذا بانى حميــك فلا تخف إن الذى أضحى يقيه يقيكا
إن قيــل إنك قد هدمْتَ رجاءنا فيك فعذرك أنهم أمــروكا

يقصد أن الإنجليز هم الذين يحمونه ويأمرونه .

وكانت بعض الصحف الفكاهية في ذلك الحين تهاجم سعداً وتعيّره بالصلع . وفي ذلك يقول حافظ ذاكراً « شعوره » في تورية غامزة ومذكّراً إياه بعمامته وبرقة حاله إبان الطلب بالأزهر :

قد جرّدوك من « الشعور » وبالغوا فاحسرْ وَجلِّ عن العيون شكوكا
وضَعِ العمامة يعرفوك بشــارة كانت شعارك خــاملا مفلوكا(١)

وتهاجر هو والمرحوم السيد توفيق البكرى — ونحن نعرف مكانة هذا الرجل — فقال فيه :

وليــلة بتّ بهــا ساهراً أجرّ ذيل الفحش والفُجــر
حتى ظننت وليلتى عجب أنى ببيت السيد البكرى(٢)

---

(١) هذه القصيدة غير موجودة في ديوان حافظ وقد نشرت هذه الأبيات في مجلة المصور عدد ١٧١٢ بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٩٥٧ .

(٢) انظر مجلة أبولو (يوليه ١٩٣٣) .

وله غير ذلك هجاء كله فحش ونكر أُنزّه هذا الكتاب عن أن أثبته فيه ، وهو شعر لم يُنشر وقد تلقفتهُ من أناس اتصلوا به .

وكان حافظ رجلاً اجتماعياً بطبعه يكره العزلة ، ويحب الاختلاط بالناس على تباين طبقاتهم ، وقد اتصل بأناس كثيرين مختلفى النزعات والمشارب والثقافة . فقد عرف الأستاذ الإمام محمد عبده وأصبح من أصفيائه والمقربين إليه ، واتصل بأصدقاء الإمام ، وفيهم العالم الأزهرى كالشيخ عبد الكريم سلمان ، وفيهم المجدد صاحب النزعات الثورية كقاسم أمين ، وفيهم القاضى الثبت الذى أدرك حظاً من المجد كسعد زغلول ، وفيهم رؤساء العشائر الكبرى كحسن عبد الرازق ومحمود سليمان وعلى شعراوى . وغيرهم من ذوى النزعات المختلفة والمنازل الاجتماعية المتباينة .

واتصل حافظ كذلك بالمتطرفين من الساسة أمثال مصطفى كامل وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش . وهؤلاء وأولئك جميعاً كانوا يخصونه بالحب والبر .

وحافظ كان مطبوعاً على الوفاء ، فإنه — مع اتصاله بهؤلاء العظماء — لم يقطع صلته بأترابه من أوساط الناس وغيرهم من الشعراء والأدباء الذين أدبرت عنهم الدنيا ، فكان يعطف عليهم ويتفقدهم فى كل مكان . فحافظ — رحمه الله — كان صديق الناس جميعاً ، خالطهم وأدرك عن قرب أهواءهم وميولهم .

وكان يتعشق كل ما هو عربى ، ولا يدانيه — فى نظره — شىء فى البلدان الأخرى ، سيان فى ذلك الفن والتقاليد والعادات . وإذا أراد أن يشيد بنبوغ أحد الغربيين قرنه بأحد عباقرة العرب . فقد نظم قصيدة فى « فكتور هيجو » افتتحها بقوله :

أعجمىٌّ كاد يعــلو نجمه ... فى سماء الشعر نجمَ العربى
صافح العليـــاء فيهـــا والتقى ... « بالمعرى » فوق هام الشهب[1]

وفيها يقول :

سائلوا الطـــير إذا ما هاجكم ... شدوُها بين الهوى والطرب

---

(١) الديوان ١/٣٨ .

هل تغنّتْ أو أرنّتْ بسوى شعر « هوجو » بعد عهد العرب

ولقد طاف حافظ ببعض مدن أوربا ، فلما عاد أبدى سخطه الشديد على تلك المدن وتقاليد أهلها « التي تجعل الناس سجناء وتحرمهم الحرية باسم الحرية فى ما يسمونه أوطانها »[١] .

وكان حافظ معروفاً بإعزازه لدينه ، وربما كان هذا هو السبب الأكبر فى حبه للعرب ولكل ما هو عربى ، وكان لوطنه من حبه نصيب لا يقل عن حبه لدينه ، وفى ذلك يقول المرحوم داود بركات : « أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها إلا دينه المحمدى . فلك من حافظ ماشئت إلا أن تنال من هاتين الخلتين : دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طُبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية إلا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيّد بهما »[٢]. ويقول عنه صديقه الأستاذ أحمد محفوظ : «كان ثابت العقيدة مؤمناً إيماناً ثابت الدعامة ، كان يقوم على الاعتماد على الله فى حياته كراكب البحر أو كراكب الصحراء الذى يتوجه إلى الله دائما ليجنبه الغرق أو الضلال فى التيه »[٣] .

وكان فى حافظ خلة طيبة ، تلك أنه كان — على حبه لدينه — لا يندفع وراء التعصب المقيت ، ولا يعرف عنه أحد أنه حمل على المسيحية أو اليهودية فى مجالسه الخاصة أو العامة . والمتصفح لديوانه يجد فيه مدحاً لبعض اليهود مثل المولدة (لونا)[٤] والمغنى (چاك رومانو)[٥] من أهالى الإسكندرية .

وكان قلبه ينفطر أسى حين يرى أفاعيل المستعمرين تُفلح فى التفرقة بين عنصرى الأمة : المسلمين والأقباط ، وقد نظم قصيدة يُهيب فيها بالخديو « عباس » أن يرأب الصدْع الذى أحدثه أعداء الوطن المستعمرون بين العنصرين ،

---

(١) مجلة أبولو ص ١٣٣٥ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) حياة حافظ إبراهيم ص ١٧٧ .
(٤) الديوان ١/ ٧١ .
(٥) الديوان ١/ ٢٢١ .

يقول فيها[1] :

مولاى أمتك الوديعـــة أصبحت وعُرا المودة بينْها تتفصم
نادى بها القبطى ملء لهاته أنْ لا سلام وضاق فيها المسلم
وهمٌ أغار على النّهى وأضلّها فجرى الغبى وأقصر المتعلم
فهِموا من الأديان ما لا يرتضى دين ولا يرضى به من يفهم
مـــاذا دها قبطىَّ مصر فصدَّه عن ودِّ مسلمها وماذا ينقم ؟
وعلام يخشى المسلمين وكيدَهم والمسلمون عن المكايد نُوَّم

ويخاطب الأقباط مبيناً لهم أننا أبناء وطن واحد قد وحدت بينهم الآلام :

قد ضمنّا ألمُ الحيـــاة وكلنـــا يشكو ، فنحن على السواء وأنتم

ثم يُهرَع إلى الجالس على العرش راجياً أن يتدارك الأمر بحكمته :

ربَّ الأريكة إننـــا فى حاجة بجميل رأيك والحوادث حُـــوَّم
فأفِضْ علينا من سمائك حكمة تأسو القلوب فإن رأيك أحكم
واجمع شتات العنصرين بعزمة تأتى على هـــذا الخلاف وتحسم

وكان يُشفق على دول الشرق عامة وعلى العرب خاصة من أن تمزقهم الخلافات الدينية ، وينذرهم بأنهم إذا لم يقطعوا دابر هذه الخلافات حق عليهم قول المعرى :

والأرض للطـــوفان مشتاقة لعلهـــا من دَرنٍ تُغســـل

وقد أنشد حافظ قصيدة فى الحفل الذى أقيم لسماعها بالجامعة الأمريكية ببيروت قال فيها :

إن دام ما نحن فيه من مدابرة وفتنة بين أجنـــاس وأديـــان
رأيتُ رأى « المعرى » حين أرهقه ما حلَّ بالناس من بغى وعدوان
لا تطهرُ الأرض من رجس ومن دنس
حتّى يعاودها « نوح » بطوفان[2]

---

(١) الديوان ١/٢٨٨ .
(٢) الديوان ١/١٣٣ .

وكان يحتفل بالنابغين والعباقرة من المسيحيين فى العالم الغربى والعالم الشرقى ؛ فمدح « فكتور هيجو » ، ولبى دعوة المجمع العلمى بإنجلترا حينما احتفل بمرور ثلثمائة عام على وفاة شاعرهم الأكبر « شكسبير » فنظم قصيدة أشاد فيها بعبقرية هذا الشاعر الخالد[١] . ورثى ملكة الإنجليز « فكتوريا »[٢] ، وتولستوى[٣] الفيلسوف الروسى المعروف وعدد مآثره على الإنسانية . وأشاد بعظمة خليل مطران وفضله على دولة الشعر[٤] ، وامتدح الأستاذ واصف غالى وقدم إليه باقة من الشعر الجميل[٥] عندما نشر كتابه المسمى « حديقة الأزهار» "Le Jardin des fleurs" الذى ترجم فيه بعض مقطوعات من الشعر العربى إلى اللغة الفرنسية وهنأ الدكتورين فارس نمر ويعقوب صرّوف صاحبى مجلة « المقتطف » بمناسبة عيدها الخمسين ونوّه بفضلهما العظيم على الصحافة والعلم ، يقول فيهما :

خمسون عاماً فى الجهاد كلاهما ... شاكى اليراعة طاهر الجلباب
قلمان مشروعان ، فى شِقَّيْهما ... وحىٌ يفيض على أولى الألباب
خطَّا بمقتطف العلوم بدائعاً ... وروائعاً بقيتْ على الأحقاب
جاءا لنا من كل علم نافع ... أو كل فن ممتع بلباب[٦]

وحافظ لا ينفك يشير إلى ما لأهل سوريا ولبنان من أثر لا يُجحد فى ميدان الصحافة والأدب ، وكلهم — فيما أعلم — مسيحيون :

كم فى نواحى ربوع النيل من طُرف ... « لليازجى »و« صرّوفٍ » و « زيدان »
وكم لأحيائهم فى الصحف من أثر ... له « المقطم » و « الأهرام » ركنان[٧]

---

(١) الديوان ١/٧٢ .
(٢) الديوان ٢/١٣٦ .
(٣) الديوان ٢/١٦٤ .
(٤) الديوان ١/٥٨ .
(٥) الديوان ١/٦٣ .
(٦) الديوان ١/١٥٤ .
(٧) الديوان ١/١٣٣ .

ورثى علماءهم وأفذاذهم مثل الدكتور شبلى شميل[١] وجورجى زيدان واليازجى[٢] ويعقوب صروف[٣] وحبيب المطران[٤].

وكثيراً ما أشاد بنشاط أهل المهجر ؛ هؤلاء الذين يمشون فى مناكب الأرض ويأكلون من رزقها الحلال ، حتى أثرى الكثير منهم ، وظفر بعضهم بمراكز مرموقة . والمعروف أن كثرتهم الكاثرة من المسيحيين :

تيمموا أرض « كولمب » فما شعرت　　منهم بوطء غريب الدار حيران
سادوا وشادوا وأبلوا فى مناكبها　　بلاءَ مضطلع بالأمر معوان[٥]

ويقول من قصيدة أخرى :

بأرض « كولمبَ » أبطالٌ غطارفةٌ　　أُسْدٌ جياع إذا ما وُثبوا وثبوا
لم يحمهم علَمٌ فيها ولا عددٌ　　سوى مضاءٍ تحامى وِرْدَهُ النُّوَب[٦]

وكان يعتز بصداقته للشاميين المسيحيين المقيمين بمصر ويرى أنهم ليسوا غرباء عن أرض الكنانة ، فالكنانة والشام شقيقتان تظللهما راية العروبة ، أو على حد قوله « أختان أمهما اللغة العربية تشرف عليهما الدولة العلية ، مصر دار الأمان وسوريا روضة الجنان »[٧] :

فما الكنانة إلا الشام عاج على　　ربوعها من بينها سادة نُجُبُ[٨]

وكان معجباً بهمتهم التى تقتحم الأهوال وتتخطى الصعاب :

يضيق على السوريّ رحب بلاده　　فيركب للأهوال ما هو راكبه[٩]

---

(١) الديوان ٢/١٨١ .
(٢) الديوان ٢/١٨٣ .
(٣) الديوان ٢/٢٢٨ .
(٤) الديوان ٢/٢٤٥ .
(٥) الديوان ١/١٣٣ .
(٦) الديوان ١/٢٦٨ .
(٧) ليالى سطيح ص ١٤ .
(٨) الديوان ١/٢٦٨ .
(٩) الديوان القديم ١/٨١ وهذه القصيدة ليست موجودة فى ديوان وزارة المعارف .

وكان يعترف بنبوغهم ونشاطهم فيقول : «كلما نظرت فى جالية السوريين المسيحيين رأيت بينهم رجالاً إذا هزّوا أقلامهم أمطرتْ ذهباً ، وإذا خطّوا بها سطّرتْ عجباً. ولو شئت أن أعدّ منهم عددتُ كثيراً . هؤلاء أصحاب المقتطف ودائرة المعارف والضياء والهلال والجامعة . وهؤلاء أصحاب الصحف اليومية وغيرها »[1] .

غير أنه كان يحزّ فى نفسه أن يرى السوريين المسلمين قد تخلفوا عن مواطنيهم المسيحيين . فكلما نظر إليهم لا يرى بينهم « غير البائع والسمسار ورائض الخيل والجزار »[2] .

ولا أدل على طبيعته السمحة البريئة من التعصب من أنه كان يودّ من قرارة نفسه أن يرى الشرق قد قضى على عقارب الخلاف التى كانت تتحلب سمًّا زعافاً بسبب اختلاف العقائد وتباين المذاهب والأجناس :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده ... عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
تجرى المودة فى أعراقه طلقًا ... كجِرية الماء فى أثناء أفنان
لا فرق ما بين بوذىّ يعيش به ... ومسلم ويهودىّ ونصرانى[3]

ويتحسر على مجد الشرق وعظمته فى العصور المواضى :

عهدُ « الرشيد » « ببغداد » عفا ومضى ... وفى « دمشق » انطوى عهد « ابن مروان »
ولا تسَلْ بعده عن عهد « قرطبة » ... كيف انمحى بين أسياف ونيران

وكان قلب حافظ الرقيق ينبض لكل كارثة تدهم العالم ، كان يشارك الناس طرًّا فى بلاياهم ، لا فرق عنده بين مسلمين وغير مسلمين ؛ فقد قال

---

(١) ليالى سطيح ص ١٨ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) الديوان ١/١٣٣ .

شعراً فى حريق ميت غمر سنة ١٩٠٢[١] ، وفى بركان جزر المارتنيك سنة ١٩٠٢[٢] ، وفى زلزال مسينا سنة ١٩٠٨[٣]. ولما اندلع أوار الحرب اليابانية الروسية جزع الشاعر رأشفق على الدولتين أن تتفانيا ، وسجل ذلك فى شعر رقيق[٤] .

وفى سنة ١٩٠٥ جاءت الإمبراطورة « أوچينى » إلى مصر متنكرة وقد دالت دولتها وأدبرت عنها الدنيا وحطمتها السنون ، ونزلت فى أحد فنادق بور سعيد ؛ فأنشأ حافظ قصيدة يقارن فيها بين مجيئها إلى مصر سنة ١٨٦٩ فى حفل افتتاح قناة السويس وهى فى عنفوان مجدها ، وبين مجيئها هذه المرة . وفى هذه القصيدة يواسى حافظ الإمبراطورة السابقة ويحاول أن يسرّى عنها ويبين لها أن الدهر قُلَّب والأيام دُوَل فلا تبتئس بما أصابها[٥] .

وذلك كله يدل على أن حافظاً كان رجلاً سمح النفس ، بريئاً من التعصب الدينى والوطنى .

---

(١) الديوان ١ / ٢٥٠ .
(٢) الديوان ١ / ٢٥٢ .
(٣) الديوان ١ / ٢١٥ .
(٤) الديوان ٢ / ١٠ .
(٥) الديوان ٢ / ١٤ .

ثقافة حافظ ومصادرها

١

القراءة

كانت الثقافة التي تلقاها حافظ بالمدارس محدودة جدًّا قليلة الغناء، ولكنه عكف على قراءة كتب الأدب العربي وأشبع رغبته منها ، وبخاصة كتاب « الأغاني » الذي قيل إنه قرأه مرات ، وكتاب « الوسيلة الأدبية » وكتاب « المكافأة » وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات الكتب . وكان يطيل النظر في دواوين الشعراء ويحفظ متخيرها . وكان يحسن الوقوع على الشعر الجيد الرائع يختزنه بين محفوظه ، وساعده على ذلك حافظة قوية تسعف ذوقه ، وذاكرة حادة تلبي حاجته . وكانت هاتان الحاستان موضع إعجاب أصحابه ومضرب المثل بينهم . يقول صديقه الشيخ عبد العزيز البشرى : «كان حافظ قوى الحافظة ، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً . ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم فلم نشهدهم ونلابسهم لأحلنا ما يُروى عنه في هذا على مايتزيّد به القُصّاص ويسرفون في المبالغة طلباً للإفلاق والإغراب . ولقد كان — رحمه الله — يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرّز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جمْزاً حتى يأتى على غايتها ، ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك في أنه كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال، فإذا حافظ يروى بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والإسفاف »[١] .

ويذكر صديقه الأستاذ أحمد محفوظ أن حافظاً اختلف هو وبعض الأدباء

---

(١) مجلة أبولو (يولية ١٩٣٢) ص ١٣١١ .

فى لفظ « تيامن » — أى سار على يمينه — فطلب حافظ إليه أن يحضر الجزء الخامس من كتاب الأغانى لأن فى ترجمة « الكميت » هذه الجملة « تيامنوا يا فتيان » ، فأسرع الأستاذ محفوظ إلى الكتاب فوجد الجملة كما قال حافظ (١).

وكان حافظ يروى القصة من الكتاب القديم برمّتها كما جرى بها قلم كاتبها ، ما تكاد تنبْز عليه منها كلمة ، وخاصة ما أشرق لفظه وتبهّجت ديباجته . وكان الجالس إليه يبهره ما تعجّ به حافظته من متنخَّل الشعر والنثر ، حتى ليخيل إليه أن صدر حافظ قد وعى من هذا المأثور أكثر مما وعاه ديوان الحماسة أو مختارات البحترى والبارودى . وقد وصفه أحد أصدقائه أروع وصف فقال : « لم أر قط رجلا اجتمع له من متخير القول ومصطفى الكلام مرسلاً ومقفّى مثل ما اجتمع لحافظ ، فكان حقّاً له من اسمه أوفر نصيب . وإذا كنت ممن يجرى فى صناعة الكلام على عرْق وُهيْ لك أن يحاضرك حافظ فى الأدب لصبّ على سمعك عصارة الشعر العربى وأبدع ما انتضحتْ به القرائح من عهد امرئ القيس إلى الآن . ويمكنك أن تعدّ بحق حافظاً أجمع وأكفى كتاب لمتخيّر الشعر العربى عُرف إلى اليوم »(٢) .

وبلغ من حدة ذاكرة حافظ وقوة حافظته ما حدثنا به صديقه المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار من أنه « كان يسمع الفقيه فى بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالرواية التى قرأ بها الفقيه »(٣) .

وكان لقوة ذاكرته ينشد قصائده فى المحافل من الذاكرة ولا يقرؤها من ورقة مبسوطة أمامه(٤) .

وقد نضحت هذه الثقافة العربية الرصينة على شعره ، فما تقرأ له قصيدة إلا وتلقى

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ٢٢٩ .
(٢) ذكرى الشاعرين ص ١١ .
(٣) مجلة أبولو ص ١٣٢٤ .
(٤) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٤ .

فيها إشارة إلى حادث تاريخى أو شخصية مشهورة أو مثل عربى أو حكمة مأثورة، أو غير ذلك مما تفيض به كتب الأدب العربى . ثم إن تأثره بما يقرأ جعله ينهج فى شعره نهج الأقدمين ويحرص على أن يوفر له ديباجة الشعر العربى الخالص وطلاوته . وفى ذلك يقول الشاعر خليل مطران : « حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب ، ينسج على منوالها ويتخير نفائس مفرداتها وأحلاق حلاها » .

بيد أن حافظاً لم يكن يعكف على قراءة منظمة ذات منهاج مرسوم ، ولم يكن كذلك يتناول المسائل التى يقرؤها تناول الدارس المتعمق ، بل كان — كما يقول الأستاذ أحمد أمين — «كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة وترتشف من هذه رشفة ومن تلك رشفة ، فهو يرضى ذوقه فى أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة ، فإذا عثر على أسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه فى نفسه »[1] .

ولهذا نقرأ له قصائد فى مسائل لم يدرسها دراسة طيبة ، وقد لا يعلم عنها كثيراً ولا قليلاً . فقد رثى « قاسم أمين » وأشار إلى جهاده فى قضية المرأة مع أنه لم يقرأ كتبه كما أشرنا . ورثى الأديب الروسى « تولستوى » ، ويقول الأستاذ أحمد محفوظ إنه « لم يقرأ له شيئاً ولم يسمع به إلا عرضاً ، ولكن شوقى رثاه فلا بد له أن يرثيه والسلام »[2] . وقال قصيدة فى ذكرى شكسبير تدل على أنه لم يقرأه قراءة عميقة شاملة. وحينما أتم الأستاذ لطفى السيد ترجمة كتاب « الأخلاق» لأرسطو حيّاه بقصيدة تنبئ عن جهله التام بأرسطو وكتابه ، وسيكون لهذه المسألة حديث خاص فى موطن آخر .

ولهذا نرى حافظاً يضيق بألوان المعرفة التى تتطلب من ناشدها التعمق وطول التفكير ، ويقول الشيخ البشرى : «كان حافظ قليل الصبر على النظر فى كتب علم الاجتماع ، وفى حفظ قواعده والمطاولة فى تفهم قضاياه واستخراج مسائله»[3] .

وسر هذه الفوضى القرائية — إن جاز هـــذا التعبير — فى حياة حافظ

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٠ للدكتور أحمد أمين .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٥ .

(٣) مجلة أبولو ص ١٣١٣ .

أنه كان ملولاً ، قليل الصبر ، لا يستقر على حال ما ، كما يدل عليه تاريخ حياته . فقد ملّ العمل فى مهنة المحاماة ، ولم يُطق حياة الجندية . ولولا أن الوظيفة فى دار الكتب لم تكن تفرض عليه قيودها لملّها كذلك . وقد لازمته هذه الفوضى طول حياته ، فلم يكن يُعنى بحسن هندام أو نظام ، ولم تكن له مكتبة منظمة كغيره من الأدباء ، بل كانت كتبه مبعثرة هنا وهناك ، فكنت ترى جزءاً من الأغانى على منضدة فى حجرة النوم وجزءاً آخر على مائدة الطعام وهكذا .

وكان يضيق بالنظام أشد ضيق ، وهو يُفصح عن ضيقه هذا فى قصيدته التى نظمها بمناسبة زيارته لإيطاليا ، وفيها يأخذ على الإيطاليين إفراطهم فى حب النظام فيقول :

أفرط القوم فى النظام وعندى   أن فرط النظـــام أسرٌ ونير
ولذيذ الحياة ما كان فوضى   ليس فيها مسيطر أو أمـــير (١)

وقد تبع هذه الفوضى إهمال شديد فى حياته الفنية ، فقلما كان يعنى بكتابة شعره فى دفاتر منظمة كما يصنع غيره ، بل كان يدوّنه فى قصاصات من الورق عرضة للضياع . ولولا أن الصحف قامت بنشر الكثير منه لفقدنا معظمه ولوقفت معرفتنا عن حافظ عند حد الشخصية المتميزة بخفة الروح التى تملأ المجالس بالمرح والإيناس ، حتى إذا انفرط عقد الحاضرين ضاع الكلام مع الرياح .

وهناك مسألة هامة يجب أن نعرض لها : تلك هى مدى إلمام حافظ باللغة الفرنسية . هم يقولون إنه كان ضليعاً فيها ، ولكنى لا أطمئن إلى ذلك ، فلو كانت درايته بها طيبة لنضحت على شعره ولظهر فيه أثر الثقافة الغربية كما نرى فى شعر شوقى .ولكنك تجد شعره ذا مسحة عربية خالصة فى ديباجته وفى جوه وفى معانيه . وأغلب الظن أنه لم يكن يحسن هذه اللغة . وقد عرض الأستاذ العقاد لمبلغ دراية حافظ بها وعبّر عن ذلك تعبيراً دقيقاً فقال : « فلا تجد بين العارفين

(١) الديوان ١ /٢٢٧ .

باللغات الأجنبية أحداً أشبه منه بمن يجهلونها ، ولا تجد بين جاهليها أحداً أشبه منه بمن يعرفونها »[١] .

وهم يستدلون على تمكنه من اللغة الفرنسية بترجمته لكتابى « البؤساء » و « الموجز فى الاقتصاد » . والواقع أنك لا تجد بين النص الفرنسى للبؤساء والترجمة العربية إلا شبهاً باهتاً . وبعضهم يذكر أن حافظاً كان يُهرع إلى الإمام محمد عبده إذا اعتاص عليه فهم العبارة الفرنسية . ومع ذلك جاء الشبه خفىّ الملامح بين الترجمة والأصل . وسنعرض لهذه المسألة فى مكان آخر . وأما كتاب « الموجز فى الاقتصاد » فلم يكن جهد حافظ فيه إلا كتابة المقدمة فقط ، ويقول الأستاذ أحمد محفوظ — وكان من أشد الناس صلة به — : « والمعروف عندى أن أحمد حشمت (باشا) ناظر المعارف لما أراد أن ينفح حافظا أمره هو وخليل مطران بتعريب كتاب "الموجز فى الاقتصاد" فقام مطران بتعريب الكتاب وحده ، وشاركه حافظ فى الجائزة المرصدة للتعريب ، ولم يزد على أنه قدمه للقراء »[٢] .

ونستطيع بعد ذلك أن نقول مطمئنين إن درايته باللغة الفرنسية لم تكن ذات غناء .

٢

المجالس

ولعل من أهم مصادر ثقافة حافظ التى أثّرت فى اتجاهاته الفنية المجالس التى كان يرتادها . فلقد عاشر حافظ من أول فتاء السن إلى غاية العمر أعلام الأدب واللغة والعلم والسياسة فى عصره ، وداخلهم وجالسهم ونادرهم وأخذ عنهم . وناهيك

(١) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٧ .
(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٤٣ .

بمن طوى عمره فى مصاحبة الإمام محمد عبده وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجى ومحمد المهدى وسامى البارودى ومصطفى كامل وسعد زغلول وأخيه فتحى وقاسم أمين وإسماعيل صبرى وحفنى ناصف وأحمد حشمت وعلى يوسف وإبراهيم المويلحى وابنه محمد . . . وسواهم من كل من يجرى فى العلم والأدب على عرق كريم . وكان حافظ متسعِّر الذهن قوى الحافظة مستقيم الطبع ، فأصاب من صحبة أولئك العلماء وطول مذاكرتهم أنفس ما أصاب من ألوان العلم والمعرفة ، لأن هذه المجالس كانت — كما يقول أستاذنا الدكتور أحمد أمين — : « مدارس من أرقى المدارس ، تُطرح فيها المسائل العلمية والمعضلات السياسية والمشكلات الاجتماعية ، وتُعرض فيها الحلول المختلفة ، وتُبسط فيها أدواء الأمم وكيف عولجت ، وما إلى ذلك . وحسبك بمدارس كان المعلم فيها أمثال محمد عبده وسعد ومصطفى كامل »(١) . وليس من شك فى أن هذه المجالس كانت ينبوعاً ثَرًّا نهل منه حافظ أمشاجاً من الثقافات التى أمدته بكثير من الأفكار صاغها فى شعره .

وكان حافظ يشدّ الرحال إلى الأرياف الحين بعد الحين عند أصدقائه الأغنياء ، مثل قرية « الربعماية » بإقليم الشرقية معقل الأسرة الأباظية ، وإبيار بالغربية بلد الشرفاء ، وساحل سليم بالصعيد بلد السرىّ الكبير محمود سليمان باشا ، وكوم النور بالدقهلية حيث تقيم أسرة هلال المعروفة .

وكان حافظ يصيب من هذه المجالس وتلك الصلات علما ويرتاش منها مالا ، وكان الشعراء فى ذلك العصر لا يأنفون من الجوائز المالية أثماناً لمدائحهم التى ينظمونها فى الأغنياء ومحبى المظاهر ، فكان الشعراء يحيون حياة فيها رخاء وفيها متعة بسبب هذه المنح التى كانت تنهال عليهم من سراة القوم(٢) .

وكان لحافظ — إلى جانب هذه المجالس الراقية المتوقرة — مجالس خاصة تنعقد فى المقاهى والمشارب وأماكن اللهو وتضم صفوة من أساطين الفكاهة والتسلية والأدب ، وقلما كان يفوت حافظا مجلس من هذه المجالس ؛ فقد كان

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢١ .

(٢) انظر كتاب « حياة حافظ إبراهيم » للأستاذ أحمد محفوظ .

يذهب إلى مقهى « نيوبار » بصحبة الشاعر خليل مطران حيث كان يجلس شيخ مطربي ذلك العهد « عبده الحامولي » وحوله جمع من علية القوم وعشاق فنه فيتمتعون بطيب الشراب والطعام . وكان يرتاد مقهى « مشيدى » المواجه لوزارة المالية فيلتقي هناك إمام العبد ومحمد البابلي وغيرهما من الظرفاء . وكان هناك مقهى « متاتيا » المشهور وكان يؤمه ألمع أدباء ذلك العهد مثل خليل مطران وولى الدين يكن وإبراهيم الدباغ وفؤاد الصاعقة وغيرهم . وفي هذا المقهى كان حافظ يعرض شعره عليهم ولا يذيعه إلا بعد أن يرضوا عنه في كثير من الأحيان .

وكان حافظ يقصد مقهى « سبلندد بار » حيث يلتقي هناك بمحبيه من السوريين الذين كانوا يؤثرونه ويتعصبون لشعره من أمثال الدكتور شبلي شميل وجورج طنوس وطنوس عبده وسليم سركيس والدكتور إبراهيم شدودى وغيرهم ، فيطارحهم ألوان الفكاهة والظرف وينشدهم أشعاره ، وكانوا كلهم يشْغفون الشعر ويحسنون الحكم عليه . وكان يعرّج على « بار اللواء » العتيد ، فيجالس فيه داود بركات رئيس تحرير الأهرام وتوفيق فرغلي وغيرهما من رجال الصحافة الشاميين . وكان للشاعر النبيل خليل مطران فضل تقديم حافظ إلى السوريين الذين أحبوه وأشادوا به وبفنه .

وكان حافظ يتردد على « بار دركاتوس » و « بار الكستبان الأحمر » فيجد الأديب الكبير « محمد المويلحي » قد جلس إلى مائدة عليها قوارير الشراب وأقداحه ، ومعه نفر من الندمان ، فيشاركهم حافظ مجلسهم ويحتسي معهم بعض كؤوس الخمر حتى ينتشي وينتعش . وكان يخوض مع المويلحي في أحاديث الأدب والسياسة والاجتماع ، وإليه بعث حافظ بخمريته السينية التي مطلعها (١) :

أوشك الديك أن يصيح ونفسي بين همّ وبين ظنّ وحدس

وهي أجمل ما قاله في الخمر ، ومنها :

يا غلام ، المُدامَ والكاس والطا س وهيِّئ لنا مكاناً كأمس

---

(١) الديوان ١/٢٤١ .

واسقنا يا غـــلام حتى تـــرانا لا نُطيق الكـــلام إلا بهمس
خمرةً قيـــل إنهم عصروهـــا من خدود المـــلاح فى يوم عرس
مذ رآها فتى العـــزيز منـــاما وهـــو فى السجن بين هم ويأس
أعقبتْـــه الخلاصَ من بعد ضيق وَحبتْـــه السعودَ من بعد نحس
يا نـــديمى بالله قلْ لى لمـــاذا هذه الخـــندريس تُدعى برجس ؟

ولما أصدر المويلحى كتابه « حديث عيسى بن هشام » بعث إليه حافظ بقصيدة يقرظه بها مطلعها[1] :

قلم إذا ركب الأنامل أو جـــرى سجدتْ له الأقـــلام وهى جوارى

ويقول فيها مخاطباً المؤلف :

فاشرع يراعك يا محمد إنه نار اللئام وجـــنة الأحـــرار
وابعث لنا عيسى فهذا وقته فالناس بين مُخادع ومُوارى

وكان حافظ إبان شبابه العارم يتردد على ملاهى ذلك العهد المتصونة منها وغير المتصونة ، مثل مسرح الشيخ سلامة حجازى ، حيث يشنّف أذنيه بصوت الشيخ الرخيم ويشهد مسرحياته الراقية كمسرحية روميو وجولييت ، وصلاح الدين . ومثل مسرح سليمان القرداحى الذى كان يقدم بعض مسرحيات شكسبير وفكتور هيجو . وكان ينفتل من هذه الملاهى المتوقرة إلى أماكن اللهو العابث كملهى « سلطانة » ، والألدرادو القديم ، وملهى كامل الأصلى الممثل الهزلى فى شارع كلوت بك ، وملهى سيد قشطة وبمبة كَشَّر الشهيرة بحفلات الزار ، وغيرها من الملاهى .

وكان حافظ يُسيم سَرْح اللهو فى هذه الأماكن ما طاب له ذلك .

ولا شك أن حافظاً قد جنى من هذه المجالس كلها فوائد جُلّى زادت من ثقافته ونمّت معارفه ، وكانت مادة دسمة صاغ منها كثيراً من أفكاره .

(١) الديوان ١/١٥٠

٣
الصحف

وقد اتصل حافظ بالصحف التى كانت موجودة فى زمنه ، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين رجالها ، وكان يتردد على دورها ويقضى مع أصحابها ومحرريها الساعات الطوال ، فيتزود بمعارف مختلفة فى السياسة والأدب والاجتماع ، هذا إلى جانب ما كانت تمده به هذه الصحف من ثقافات مختلفة الطعوم والألوان . وكانت جميعها تفسح له صفحاتها وتشجعه وتدفعه نحو عالم الشهرة والالتماع ، ولهذا نجده وثيق الصلة بها كلها . فقد عرف الأهرام أم الصحف ؛ وكانت منذ نشأتها تؤيد الحركة الوطنية وتذود عن مصر وتساند الدولة العثمانية، لأنها ترى أن فى ذلك مناهضة لتدخل الأجانب فى شئون البلاد .

واتصل حافظ بصحيفة المقطم ، وكانت تظاهر الاحتلال الإنجليزى وتناهض الحركات الوطنية ، ولهذا نرى حافظاً ينشر فيها كل ما يتفق ومبادئها ؛ فقد نشر فيها رثاءه للملكة فكتوريا سنة ١٩٠١[١] ، واستقبل فيها « السير مكماهون » عندما جاء إلى مصر معتمداً بريطانياً ومدحه ومدح دولته وأمل الخير على يديه بقصيدة مطلعها :

أى « مكمهون » قدمتَ بالـ   قصد الحميد وبالرعاية
ماذا حملتَ لنا عن الـ   ملك الكبير وعن « غرايه »[٢]

وفى هذه القصيدة مدحٌ للمغتصبين يَندَى له جبين الوطنية خجلاً ، وسنشير إلى ذلك فى مكان آخر. ونشر حافظ فى المقطم أيضاً قصيدته التى مدح بها ملك الإنجليز إدوارد السابع فى تخاذل واستكانة . وفيها نشر تهنئته لأصحابها

(١) الديوان ٢/١٣٦ .
(٢) الديوان ٢/٨٢ .

بعيد « المقتطف » الخمسيني [١] سنة ١٩٢٦ ، ومرثيته للدكتور يعقوب صروف أحد أصحاب المقطم والمقتطف وقد توفي سنة ١٩٢٨ [٢] .

واتصل حافظ كذلك بالشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » ، واشتدت صلته به ، وقد نشر حافظ في صحيفته أبياتاً يحيّيه بها ويهنئه بالمؤيد في ثوبها الجديد سنة ١٩٠٦ يقول فيها :

أحييتَ ميتَ رجائنا بصحيفة أثنى عليها الشرق والإسلام
أضحتْ مصلًّى للهداية عندما سجدتْ برحب فنائها الأقلام
فعلى مؤيدك الجديد تحية وعلى مؤيدك القديم سلام [٣]

وقد أراد صاحب المؤيد أن ينافس به شوقي فلقّبه « بشاعر النيل » . ولما مات الشيخ رثاه حافظ بقصيدة طويلة مؤثرة سنة ١٩١٣ نشرها في المؤيد؛ عدّد فيها مناقبه وأشار إلى ألمعيته [٤]. ويقول الأستاذ أحمد محفوظ :« وقد اختص حافظ المؤيد بقصائده في العام الهجري ومدح خلفاء آل عثمان والإشادة بمجد الأتراك ، ثم بالتنويه بفضل صاحبها في خصوصياته ورفع شأن صحيفته » [٥] .

وكان حافظ على صلة وثيقة بمجلة المنار وصاحبها الشيخ محمد رشيد رضا الذي كان أخلص تلاميذ الإمام محمد عبده . وقد أنشئت هذه المجلة سنة ١٨٨٩ ، وكانت سجلاً لآراء الإمام في الدين والسياسة والمجتمع ، وإلى ذلك يشير حافظ مخاطباً الإمام :

ثم أشرقْتَ في « المنار » علينا بين نور الهدى ونور الصواب [٦]

وكان صاحبها صِنْوَ حافظ في التلمذة على الإمام ، ولهذا اختصّها حافظ بمدائحه لأستاذهم الأكبر والتنويه بأفضاله وأياديه الغر .

---

(١) الديوان ١/١٥٤ .
(٢) الديوان ٢/٢٢٨ .
(٣) الديوان ١/١٥٠ .
(٤) الديوان ٢/١٧٢ .
(٥) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٠ .
(٦) الديوان ١/٢٣ .

وقد اتصل حافظ بالمرحومين إبراهيم المويلحى وابنه محمد صاحب « عيسى ابن هشام » ، وكانا قد أنشآ صحيفة أدبية سياسية اسمها « مصباح الشرق » ، وكان حافظ ينشر فيها بعض أشعاره .

وكان المرحوم چورچى زيدان صاحب « الهلال » صديقاً مخلصاً لحافظ ، وقد غمره بفضله ؛ فكان يشجعه ويقدمه ، وييسر له ارتياد مجالس العلم والأدب . وقد رثاه حافظ لما قضى رثاء يتحلّب وفاء وعرفاناً بالجميل :

وفى ذمتى لليــازجىّ وديعــة ... وأخرى لزيدان وقد سبقانى
فيا ليت شعرى ما يقولان فى الثرى ... إذا التقيا يوماً وقــد ذكرانى
أيجمــل بى هــذا العقوق وإنما ... على غــير هذا العهــد قد عرفانى
دعــانى وفائى يوم ذاك فلم أكن ... ضنيناً ولكن القريض عصانى[1]

وكان حافظ ذا علاقة وطيدة بالمرحوم سليم سركيس صاحب مجلة «سركيس» ، وكانت مجلة طلية الأسلوب جميلة الإخراج أنشأها صاحبها سنة ١٩٠٥ وأصبحت مثلا يُحتذى لما جاء بعدها من المجلات . وكان سركيس صحفيًّا أريباً كريماً يعطف على الأدباء البائسين ، وكان ذا يد مشكورة على حافظ ، ويقول عنه الأستاذ أحمد محفوظ : « وكان نصيراً لحافظ وصديقاً له ، فهو أحد الصحافيين الذين روّجوا له ووضعوه مع شوقى فى مكان واحد ، وكان طويل الباع فى هذا ، يعرف أساليب صحفية تفضى إلى الغرض ، وكان ينشر لحافظ بعض قصائده ونوادره فى "ربورتاچات" شيقة طريفة »[2]. وقد قرأت فى صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ٢٣ مارس سنة ١٩٠٨ أن جماعة من السوريين أقاموا حفلاً لتكريم (نابغة النثر والشعر) حافظ إبراهيم فى فندق شبرد ، وكان الذى قدمه للمحتفلين (الكاتب المتفنن سليم أفندى سركيس) وقد أطراه أعظم إطراء وخلع عليه ألقاب العبقرية والنبوغ ، وكانت قصيدة حافظ (مسك الختام) ، وقد سماها « الأمتان تتصافحان » ومطلعها :

---

(١) الديوان ٢/١٨٣ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٣ .

لمصر أم لربوع الشام تنتسب   هنا العلا وهناك المجد والحسب [١]

وكان حافظ يعرف قدر هذا الصحفى فى عالم الصحافة والأدب ويثنى عليه ويجامله فى المناسبات . ومن ذلك أن سركيس أقام حفلاً يخصص ما يجمع منه لمعونة ممثل قعدت به الشيخوخة ، وأسرة ممثل آخر اغتالته المنية ، وقد أنشد حافظ فيه قصيدة ملأها بإطراء سركيس ومداعبته منها :

لولا سليم لم يقل قائل   ولم يجُد مَن جاد بالأمس
لله ما أشجعه إنه   ذو مِرّة فينا وذو بأس
يقوم فى مشروعه نافذاً   كأنه « عنترة العبسى »
تلقاه فى الجد كما تبتغى   وتارة تلقاه فى « الهلس »
سركيس إن راقك ما قلتُه   فى معرض الهزل فقل « مِرسى »
أقسم بالله وآلائه   بعرشه باللوح بالكرسى
بالخُنَّس الكُنَّس فى سبحها   بالبدر فى مرآه بالشمس
بأن هذا عمل صالح   قام به هذا الفتى القدسى [٢]

وتأثر حافظ أشد تأثر بصحيفتى « التبكيت والتنكيت » و « الأستاذ » اللتين أنشأهما متعاقبتين خطيب الثورة العرابية المرحوم السيد عبدالله نديم ، وكانتا تنشران نكتا ساخرة تحمل فى طياتها النقد اللاذع للحكم وأساليبه الجائرة .

وقد ظهرت إبان ذلك صحيفة كانت شديدة الخطر على أعراض الناس هى صحيفة « حمارة منيتى » . وكان صاحبها « توفيق الحمارة » رجلا سليط اللسان ينهش أعراض الناس ولا يتورع عن التقول عليهم ، فكانوا يتحامونه ويسدون فاه بالمال . وكانت هذه الصحيفة تشهِّر بالإمام محمد عبده بإيعاز من السراى وتضيف إليه — بالباطل — كل مثلبة . وبلغ من افترائها أن دسَّت عليه صورة كاذبة يبدو فيها الإمام وبيده كأس مترعة بالخمر وهو فى أوربا [٣] ، وقد انبرى حافظ

(١) اقرأ القصيدة فى الديوان ٢٦٨/١ بعنوان (سورية ومصر) .
(٢) الديوان ٢٩٦/١ .
(٣) حياة حافظ إبراهيم ص ٦٦ .

للدفاع عنه بقصيدة قال فيها :

إن صوَّروك فإنما قد صوروا تاج الفخار ومطلع الأنوار
أو نقَّصوك فإنما قد نقَّصوا دين النبي محمد المختار
سخروا من الفضل الذى أُوتيتَه والله يسخر منهمُ فى النار
لا تجزعنَّ فلستَ أول ماجد كذبتْ عليه صحائف الفُجَّار
رسموا بذاتك للنواظر جنة محفوفة بمكاره الأشعار
وتقوَّلوا عنك القبيح وهكذا يُمنى الكريم بغارة الأشرار[1]

أما صحيفة « اللواء » فقد عرف حافظ طريقه إليها سنة ١٩٠٦ حين نظم قصيدة فى حادثة دنشواى المشئومة وأرسلها إلى الصحيفة فرحب بها الزعيم مصطفى كامل ونشرها فى مكان بارز من صحيفته ، ففرح حافظ بهذا الظفر ، وأخذ يقلد الزعيم عقود المديح ، فأدناه الزعيم وفتح له صدر « اللواء » ينشر فيها قصائده ، وأطلق عليه لقب « شاعر الوطنية » . ثم اشتدت الصلة بين الزعيم والشاعر ، وأخذ حافظ يشيد بوطنية الزعيم وينشط فى مناصرة حزبه رغم اتصاله بخصومه السياسيين فخلع عليه مصطفى لقب « شاعر الحزب الوطنى » . وقد زادته هذه الصلة ذيوعَ صيت ونباهة ذكر ، حتى إنه طغى على كثير من شعراء ذلك العصر . ولما مات الزعيم فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ اهتز حافظ لهول الفاجعة وبكاه بشعر يُتعتع النفوس ويزلزل الأفئدة . وسنشير إلى ذلك فى موضع آخر .

ولا ريب فى أن الصحافة كانت منبعاً فياضاً استقى حافظ منه ألواناً مختلفة من الثقافات كانت تُمدّه بكثير من الأفكار التى صاغها فى شعره .

---

(١) الديوان ١/٢٦ .

٤
الأساتذة

اتصل حافظ بأعلام الأدب والعلم الذين اشتهروا فى عصره ، ونهل من بحار علمهم . وكانوا له كالأساتذة يأخذ عنهم ضروباً من العلم والمعرفة ، وكان يلتقى فى مجالسهم بالعلماء والأدباء والشعراء . ولعل من أشهر هؤلاء الأعلام السيد توفيق البكرى ، وكان حافظ يتردد على داره بحى الخرنفش ويلتقى هناك نفراً من أفاضل العلماء أمثال الشيخ الشنقيطى والشيخ محمد الخضرى والشاعر اللغوى حفنى ناصف . وكان صاحب الدار وضيوفه يخوضون فى أحاديث الأدب واللغة ، وليس من شك فى أن حافظاً قد تزود من هؤلاء المشيخة بقدر طيب من ألفاظ اللغة وتراكيبها ، وساعده على ذلك حافظة لاقطة وذاكرة واعية .

وكان حافظ يتردد على منزل الشاعر إسماعيل صبرى ويلتقى هناك بكثير من الشعراء أمثال شوقى ومطران وأحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وعبد الحليم المصرى وغيرهم من شباب الشعراء وكانوا جميعهم يعتبرون إسماعيل صبرى أستاذهم ويلقبونه « بشيخ الشعراء »[1] ويعرضون عليه أشعارهم ويستهدون بآرائه القيمة فيها ، وإلى ذلك يشير حافظ فى رثائه :

لقد كنتُ أغشاه فى داره ... وناديه فيها زها وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع ... لطيف يحسّ نُبوّ الوتر
على سمع باقعة حاضر ... يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظى صقل الجُمان ... ويكسوه رقة أهل الحضر
يرقرق فيه عبير الجنان ... فتستاف منه النُّهى والفِكَر[2]

(١) شعراء الوطنية للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ص ٣٠ .
(٢) الديوان ٢/٢١١ .

فأنت ترى حافظاً يعترف بما كان لإسماعيل صبرى من فضل فى تهذيب شعره وصقله . ويحكى مؤرخو الأدب أن شوقى كان أكثر ملازمة له من حافظ[١] ، ويقولون إنه قلما كان يظهر قصيدة فى مبدأ أمره إلا بعد أن يعاود أستاذُه صبرى النظرَ فيها ويُجيز إعلانها . ويشير شوقى إلى أنه كان يجرى فى غبار أستاذه فيقول من قصيدة يرثيه بها :

أيام أمرح فى غبـــارك ناشئا   نهج المهار على غبار خصاف
أتعلم الغـــايات كيف ترُام فى   مضمار فضل أو مجال قواف

والحق أن إسماعيل صبرى كان شاعراً رقيقاً عميق الوجدان يجيد نظم المقطوعات يعبر بها عن معان دقيقة عاطفية .

بيد أن هناك أستاذين عظيمين كان لهما أثر بليغ فى فن حافظ وفى ثقافته وفى عقله جميعاً ، وقد رأينا أن نخصهما ببعض العناية فنسوق كلمة عن كل منهما ونبين مدى صلة حافظ به . وهما الشاعر محمود سامى البارودى والأستاذ الإمام محمد عبده :

البارودى : هو رب السيف والقلم كما يلقبونه ، تخرّج فى المدرسة الحربية سنة ١٨٥٥ والتحق بخدمة الجيش المصرى واشترك فى بعض الوقائع الحربية فأظهر بطولة فذة وشجاعة نادرة ، مثل حرب كريد سنة ١٨٦٦ ، والحروب التى كانت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧٧ . وقد أبلى فى هذه الوقائع بلاء حسناً ، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية فانطلق لسانه بشعر جزل رصين يصفها ويصور أهوالها .

وقد أخذ البارودى يتوقل فى مدارج الرقى حتى وصل إلى رتبة اللواء ، وعُين مديراً للشرقية ، وكان محافظا للعاصمة حين اختاره شريف باشا وزيراً للمعارف والأوقاف فى وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ فى أوائل عهد الخديو توفيق .

ولما شبت الثورة العرابية كان البارودى من زعمائها النابهين ، وقد تولى رآسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢ . ثم مُنيتْ الثورة بالفشل فنُفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) ، وظل فى منفاه نيفاً وسبعة عشر عاما كان فيها مثالاً للإباء

(١) شاعرا العروبة ص ٤٨ .

والشمم وعلو النفس ، واحتمل آلام النفى بشجاعة وصبر وإيمان ، وله شعر يفيض بهذه المعانى السامية . ولعل خير ما يصور به نفسه ومذهبه قوله :

أنا إن عشت لست أعدم قوتا   وإذا مت لست أعدم قبرا

همتى همـــة الملــوك ونفسى   نفس حر ترى المذلة كفرا(١)

ثم عفا عنه الخديو عباس فعاد إلى أرض الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه فى منفاه ، وظل فى عزلة عن الناس بعد عودته من المنفى ، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من الأدباء والشعراء إلى أن لبى نداء ربه سنة ١٩٠٤ .

ولقد كان الشعراء قبل البارودى يعتبرون الشعر وقفاً على من كان ملمـّا بالعروض ، محيطاً بأطرافه واقفاً على ضروب البديع المختلفة. وكان هؤلاء الشعراء ينظمون الشعر نظماً لأنهم قد تعلـّموا العروض وحذقوه ، ورأوا أن النظم أصبح حقـّا واجباً على كل من تعلم العروض وألمّ بفنون البيان والبديع وما إليهما ، فصاروا يطبقون ما تعلموه فيما نظموه ، ولذا كانت دواوينهم أشبه شىء بكراسات التطبيق فى معاهد التعليم على حد تعبير الأستاذ عباس العقاد(٢) .

والواقع أن الثورة العرابية تُعتبر حدًّا فاصلاً بين عهدين مختلفين للشعر. فقد نشطت بهذه الثورة الحياة القومية بعد فتورها زماناً طويلاً ، وأخذ الناس يغالبون سلطان الأجنبى ، وأدركوا قيمة العلم فأقبلوا على موارده ينهلون ويعلّون ، وساعدهم على ذلك حركة المطابع التى نشطت فى إخراج كتب الأدب القديم ، فكثر المتعلمون واشتدت الصلة النفسية بينهم وبين الشعب ، وزاد اتصال الأمة بالثقافة الأوربية ، وتغلغل فى أعماق المصريين الشعورُ الوطنى والإحساس العميق بما هم فيه من بخس وإهمال .

ومن هنا ظهر الشعر المطبوع على عهد الثورة العرابية، ونشأ جيل من الشعراء على نمط حديث ؛ فأخذ ينظم الشعر عن بواعث عاطفية ودوافع وجدانية . وندر أن تجد واحداً منهم يُلمّ بشىء من العروض ، بل إن البارودى، دُرّتهم

(١) ديوان البارودى ١/٥٩ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ٩ .

اللامعة ، كان يجهل مصطلحات النحو . ولكن كان شعرهم أصدق طبعاً وأشد أسراً من شعر هؤلاء العروضيين .

ويعتبر الشاعر محمود صفوت الساعاتى حلقة الاتصال بين هاتين الطائفتين من الشعر ؛ فقد كان يعمد إلى اصطناع ألوان البديع ولكن فى شىء من الاعتدال والتجديد ، أو بعبارة أصح – كما يقول الأستاذ العقاد – كان يلبس أزياء هؤلاء العروضيين ثم يخرج على صفوفهم ويقف فى عدوة الطريق بينهم وبين طبقة المطبوعين التى جاءت بعدهم .

وليس من شك فى أن رائد هؤلاء المطبوعين وإمامهم وطليعتهم الأول وأستاذهم الأكبر هو الشاعر الفحل محمود سامى البارودى ، فقد جاء كالقدر الغالب لينقذ الشعر العربى من أن يصير رمة بالية كانت خليطاً من الصنعة والضعف والابتذال .

جاء البارودى فكان باعث النهضة الشعرية الأول فى العصر الحديث ، لأنه ارتفع بالشعر إلى منزلة الفحول من شعراء العصر العباسى ، وأعاد له ديباجته القوية وفحولة عبارته ومتانة قوافيه ، وخلّصه من تلك الأصفاد التى كان يرسف فيها من الزخارف اللفظية والمعنوية التى يختفى وراءها المعنى الغث والفكرة السوقية المسفّة . وقد بيّن صديقى الأديب الدكتور شوقى ضيف فضل البارودى على الشعر فى صورة بديعة فقال : « وكان البارودى قد خلع عن شعره كل العقد التى كان يحجل فيها الشعراء من قبله أمثال الدرويش والخشاب ومن حوله أمثال الساعاتى وعلى الليثى ، ونفخ فيه روحا جديدة من الأصالة ، وأزال عنه كل ما يعوقه من أعشاب البديع ، فانفجر النبع وتدفق الشعر والفن . وكلنا نعرف أن البارودى رجع بالشعر إلى أساليبه القديمة الجزلة الرصينة ، أخرجه من حيز المعانى المحفوظة التى تُرص رصًّا إلى فسحة واسعة من التعبير عن العواطف والعصر وحوادثه النفسية . فكان بذلك زعيم نهضة محققة فى شعرنا أثناء القرن التاسع عشر »[1] .

ويتضح مما قلناه أن البارودى قد ثار على مذهب السابقين من ناحيتين :

---

(١) شوقى شاعر العصر الحديث ص ٤٦ .

ناحية الآلة وناحية الصورة . أما من ناحية الآلة فلم يَجْر وراء شوارد العروض التى كانت تُعتبر شرطاً فى خَلْق الشاعر. بل إنه كان لا يعرف شيئاً من قواعد النحو ، ويقول أستاذه الشيخ حسين المرصفى : « محمود سامى البارودى لم يقرأ كتاباً فى فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد فى طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله ، فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته ، حتى تصور فى برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن ، ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ناقداً شريفها من خسيسها ، واقفاً على صوابها وخطئها ، مُدركاً ما كان ينبغى وفق مقام الكلام وما لا ينبغى ، ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء »(١).

وأما من ناحية الصورة فإنه خلص الشعر من هذه الألوان البديعية المبتذلة التى كانت تشبه أشرطة الزخرفة المتنوعة تزيَّن بها أثواب العرائس فى القرى التى لم تنل حظاً من المدنية ، فإذا بلوتَ خامات هذه الأثواب ألفيتها من نوع ردىء رخيص .

ولم يقف جهد البارودى عند حد استرجاع الديباجة الجزلة القديمة والسمو بالمعانى التى تصور النفس البشرية القوية ، فقد جدّد فى كثير من أغراض شعره على غير مثال سبقه من معاصريه ، واستحدث نماذج لمن أتى بعده من الشعراء فى أبواب الوصف والشعر السياسى والهجاء الاجتماعى والرثاء والفخر ، وأظهر أن للشاعر رسالة سامية هى التعبير بإخلاص عن خلجات نفسه وتجاربه فى وضوح وقوة . كما أنه خلص الشعر من الوصمة التى لحقت به آماداً طويلة وهى أنه وسيلة للتكسب ، فترفّع عن المديح الباطل الذى يراد به الزلفى ، وعن الهجاء الشخصى الذى يشغل النفس بالتوافه ، وقال بيته المشهور :

والشعر زين المرء ما لم يكن　　وسيلة للمدح أو للذم

وكان البارودى مجدّداً حتى فى محاكاته للفحول القدامى ومعارضته لهم .

(١) الوسيلة الأدبية ٢/٤٧٤ .

وإن كان يسلك أحيانا سبيلهم فى فنون من الشعر لم يكن يحس بها أو يعرفها مما ليس له معنى فى هذا العصر ، كمساءلة الدمن والبكاء على الأطلال وما إليهما من خصائص الشعر القديم . ولو لم يكن للبارودى من فضل إلا أنه ردّ إلى المعاصرين يقين القدرة على مجاراة فحول العرب الأقدمين فى ميدان اللغة والأساليب وسطوة العبارة بما أتقن من معارضتهم فى المذاهب ومجاراتهم فى النظم — أقول لو لم يكن له إلا هذا الفضل لكفى .

ومن غريب الأمر أن هذا الإمام السبّاق لم يعطنا صورة واضحة المعالم لعصره ، ولم نر فى شعره صدى للأحداث الوطنية الكبرى التى عاصرها . فمع أنه كان من زعماء الثورة العرابية وقوادها العظام لم تظفر هذه الثورة منه بقصيدة يشيد فيها بمبادئها أو يستثير حماسة الأمة ويدعوها للالتفاف حول زعمائها ، ولكنه كان يقصر مشاركته فيها على دور القائد الحربى والوزير السياسى ليس غير . أما وصف شعور الشعب أو إذكاؤه بحماسة القصيد فلم يكن له حظ من شعره .

ويرى الأستاذ العقاد أن البارودى وأمثاله من شعراء الطليعة كإسماعيل صبرى وشوقى وحفنى ناصف « لم يعرضوا لنا فى شعرهم إلا قليلا من معارض الشعور فى الحياة الشعبية » ، ويعزو ذلك إلى « أنهم عاشوا فى حيز الوظائف ولم يعيشوا فى غمرة الأمة بين دوافع المد والجزر وعوامل الشدة والرخاء »[1] .

ولكنى أرى أن البارودى بالذات كان إبان الثورة العرابية أشبه بالمتحلل من قيود الوظيفة التى كان يفرضها ولاة الأمر آنذاك فى شىء من الصرامة والاعتساف ، وبخاصة بعد أن جاهر زعماء الثورة بخروجهم عن طاعة الخديو ووصْمه بالمروق من الدين والوطن وأيّدهم فى ذلك كثير من شيوخ الأزهر ، وانطلقت إليهم وفود الأمة من جميع الطبقات تشد أزرهم وتبايعهم على الطاعة والتضحية بالأنفس والأموال .

وخير تفسير لهذه الظاهرة أن الثورات تعتمد دائماً فى خدمة مبادئها واجتذاب

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم ص ١٤ .

الجماهير إليها على الكُتّاب والخطباء أكثر من اعتمادها على الشعراء . وأوضح شاهد على ذلك الثورة الفرنسية كبرى ثورات العصر الحديث ، فلم يُذْك نارها إلا الكُتّاب والخطباء من أمثال فولتير وروسو وميرابو ومنتسكيو رغم وجود الكثير من الشعراء . بل إن من كان منهم يجمع بين صناعتى الشعر والكتابة لم يستثر نفوس الجماهير فى هذه الثورة الكبرى إلا بنثره .

ولما قام « أوليڤر كرومول » بثورته المعروفة ضد الملك « شارل الأول » الإنجليزى لم ينظم صديقه الحميم « جون ملتون » صاحب « الفردوس المفقود The Lost paradise » فيها قصيدة واحدة . وقل مثل ذلك عن شعراء إيطاليا مثل دانتى ومانزونى وبترارك وغيرهم من الشعراء الذين شهدوا القلاقل والثورات القديمة والحديثة فى البلاد الإيطالية .

وقد فطن إلى هذه الظاهرة قبلنا الأديب الكبير الأستاذ العقاد فقال : « إن الثورات لم يكن لها قط شاعر يحرضها كما يحرضها الخطباء والكتاب . وإنما توحى الثورة إلى الشاعر معانى ثورية ولا تتخذ أداة لها فى تسعير نيرانها والكلام بلسانها. وهكذا كان شأن كبار الشعراء أو الشعراء النابهين الذين ظهروا فى إبان القلاقل السياسية وما يشبهها من فورات المجتمع فى الأمم كافة »[1] .

فالثورات دائماً لها خطباؤها وكُتّابها العظام وليس لها شعراء من هذا الطراز إلا فى النادر القليل . وسر ذلك — كما يقول الأستاذ العقاد — « أن الثورة عمل اجتماعى تناسبه الخطابة لأنها وظيفة اجتماعية ، وليس الشعر كالخطابة فى هذه الخصلة لأنه عمل فردى فى لبابه ، ولا سيما بعد ما ارتقى إليه الشاعر من الأطوار فى العصور الحديثة ، إذ ليس الشاعر اليوم بوقاً من أبواق القبيلة كما كان عند الهمج الأوائل ، يغنى لها ويرتل معها و يقوم مقام النائحة فى أحزانها أو الشادية فى أفراحها »[2] .

ولقد أصاب الأديب الكبير كبد الحقيقة : فللشاعر فى العصر الحديث

(١) شعراء مصر ص ٩١ .
(٢) شعراء مصر ص ٩٢ .

شخصية فردية لا تصعد إلى آفاق الفن القوى الصادق إلا إذا خات إلى نفسها وعبرت عن أحاسيسها . وليس ذلك مما تهيئه الثورات .

ولرب قائل يقول : فما بالنا نرى الأناشيد يدوّى صداها فى جوانب الثورات؟ والرد على ذلك يسير ؛ فالأناشيد أشبه ألوان الشعر بالخطابة ، إذ تحتاج إلى الجماهير لترديدها كما تحتاج إلى الموسيقى ،فى الوقت نفسه .

وبعد ، فهذه لمحة موجزة عن البارودى إمام شعراء العصر الحديث . وقد احتذى الشعراء على طريقته وجروا فى غباره من أمثال شوقى وحافظ وعبد المطلب والجارم وأحمد محرم وغيرهم . وتتميز مدرسة البارودى — كما أشرنا — بالرصانة والقوة ونصاعة الديباجة وفحولة العبارة وشدة الأسر ووضوح المعنى .

وحافظ — فى نظرى — أشد تأثراً بالبارودى من زميله شوقى ، فقد وقف عند منهج أستاذه ولم يحاول التجديد إلا فى حدود ضيقة . أما شوقى فقد مضى فى تجديده قدما وخرج بفنه إلى أفق أوسع وميدان أفسح .

وكان حافظ شديد الإعجاب بأستاذه. ولا ريب فى أنه لم يتجه إلى الجندية إلا رغبة فى أن يسلك مسلك أستاذه ، فأراد أن يكون له من السيف والقلم ما كان لأستاذه منهما . ولكن الزمن سخر منه ولم يحقق له إلا أحد شطرى أمنيته ، فلم يظفر بما كان يحلم به فى ميدان الفروسية والحرب ولكنه أصبح من أنبه شعراء العصر الحديث ذكراً .

وكان حافظ يذهب إلى أستاذه فى داره الفسيحة بغيط العدة بالقرب من باب الخلق[1] بعد أن آب من منفاه ، وهناك كان يلتقى بلفيف من شباب شعراء ذلك العهد فيتحلقون حول أستاذهم العظيم ويعرضون عليه ما أنتجته قرائحهم ، وكان الأستاذ لا يضن عليهم بتوجيهاته الغالية ويتحفهم الحين بعد الحين بآخر ما نظمه من رائع القصيد . وقد أنشده حافظ داليته[2] التى يمدحه فيها ويُقرّ له بالأستاذية والفضل ، ومطلعها :

---

(١) شعراء الوطنية ص ١٨ .

(٢) الديوان ١/ ٧ .

تعمدتُ قتلى فى الهوى وتعمــدا   فما أثِمتْ عينى ولا لحظهُ اعتدى

وفيها يخاطب البارودى قائلا :

أمــيرَ القوافى إن لى مستهامــةً   بمدحٍ ومَنْ لى فيك أن أبلغ المدى
أعرْنى لمدحيك اليراع الذى به   تخط وأقرضنى القريض المسدّدا
ومُرْ كل معنًى فارسىّ بطاعتى   وكل نفــور منه أن يتــودّدا
وهبنىَ من أنوار علمك لمعــةً   على ضوئها أسرى وأقفو من اهتدى
وأربو على ذاك الفخــور بقوله :   (إذا قلتُ شعراً أصبح الدهر منشدا)

ولما توفى البارودى رثاه حافظ بقصيدة رائعة مطلعها :

رُدُّوا علىّ بيانى بعــد « محمود »   إنى عييتُ وأعيا الشعر مجهودى[1]

وسنتحدث عن هذه المرثية فى موضعها المناسب .

وقد تأثر حافظ بأستاذه أشد تأثر من ناحية إيثار الجزالة وقوة العبارة ، ولكن هذه الظاهرة أكثر بروزاً عند البارودى منها عند حافظ ، لأن الفخر الذى كانت تتشح به نفسيته أشد فنون الشعر حاجةً إلى الألفاظ المجلجلة الفخمة التى تملأ النفس وتهز المشاعر .

ولست أشك فى أن حافظاً قد تزود أيضا بقدر طيب من محصول أستاذه اللغوى إلى جانب تهدّيه بفنه ، وكان البارودى معروفاً بسعة محصوله كما يشهد بذلك شعره .

محمد عبده : هو الإمام الحكيم والمصلح الكبير وفيلسوف الإسلام العظيم . وقد حفظ القرآن الكريم فى قريته « محلة نصر » من أعمال مديرية البحيرة ، ثم أشخِص إلى طنطا حيث أخذ قسطاً من العلم فى الجامع الأحمدى ، وتحوّل بعد ذلك إلى الجامع الأزهر . وفى هذه الأثناء هبط الزعيم الإسلامى الكبير السيد جمال الدين الأفغانى أرض مصر ، فكان الشيخ محمد عبده من أوائل من استوَوْا إلى دروسه ولازموا مجلسه وأصاخوا لدعوته ومبادئه ، وكان أشدهم حرصاً على ملازمته والاستفادة منه . ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ ، واختير مدرساً للأدب

(١) الديوان ١/١٣٩ .

والتاريخ العربى بدار العلوم ومدرسة الألسن ، ثم وقع اختيار رياض باشا عليه لإصلاح لغة « الوقائع المصرية » ثم صار رئيس تحريرها ، وأضيف إليه أمر مراقبة الكتابة فى الصحف .

ولما شبت الثورة العرابية كان من النافخين فى ضرامها والخائضين غمارها ، فلما خبت نيرانها نُفى من مصر فرحل إلى سوريا وأقام بها حيناً من الدهر وتولى التدريس بمدارسها . وفى أثناء ذلك وضع شرحاً لنهج البلاغة ومقامات بديع الزمان . ثم انتقل إلى باريس ليلحق بأستاذه جمال الدين ، وهناك أصدرا صحيفة « العروة الوثقى » داعية إلى توحيد كلمة المسلمين ورفع النير الأجنبى عنهم . ثم عُفى عنه فعاد إلى مصر وعُين قاضياً فى المحاكم الأهلية ، وبعد فترة رُقّى مستشاراً فى محكمة الاستئناف العليا . وكان — رحمه الله — مدة اشتغاله بالقضاء قاضياً عظيماً تُضرَب الأمثال بكفايته وقوة استنتاجه ومتانة أحكامه . ثم أسند إليه منصب الإفتاء بالديار المصرية ، وكان أثناء عمله هذا يقرأ فى الأزهر كتباً فى البلاغة والمنطق وصدراً من تفسير كتاب الله الكريم . وكان يفسر القرآن تفسيراً طريفاً لا عهد للناس به من قبل ، يوفّق فيه بين آيه الحكيمة وبين موجب العقل والحكمة ، ويبين فى منطق واضح مسايرة أحكامه لمقتضيات الحضارة والعمران . وقد أقبل الناس على حلقته ينهلون من هذا النبع الصافى الذى لم يذوقوا له من قبل مثيلاً .

وكان له فضل تنظيم الأزهر وإدخال طرَف من العلوم الحديثة إليه إبان أن كان عضواً فى مجلس إدارته . وما برح فى منصب الإفتاء حتى قُبض إلى رحمة الله سنة ١٩٠٥ ، فكان حزن العالم الإسلامى عليه شديدا .

وكان الإمام — رحمه الله — يمتاز بحدة الذكاء ووثاقة العقل وقوة الشخصية ، كما أوفى على الغاية من اللَّسَن وصولة الحجة .

وكان حافظ الضابط الشاب يلمّ بحلقة الإمام عصر كل يوم فى الأزهر فتمتلىء نفسه إعجاباً ، لأنه يرى منه منطقاً فى التفكير لا عهد له به من قبل ، فيلازم الحلقة ، ويزداد إعجابه بالشيخ ، فيدبج له قصائد المديح والإطراء

ويمهرها بكلمة « فتاك » . ولما سافر حافظ إلى السودان لم تنقطع رسائله عن أستاذة يستصرخه لينقذه مما يعانيه من شظف الحياة ، ولما عاد من السودان صفر اليدين من الوظيفة لزم أستاذه ووقف نفسه على مجاهدة خصومه وعدّ نفسه شاعره وفتاه ، وظل عائشاً فى كنفه وبره خمس سنوات قلما كان يفارق مجلسه فيها ، فأفاد منه علماً وخلقاً وإدراكاً صحيحاً لشئون الحياة . كما أفاد من مجلسه التعرف إلى عظماء مصر وكبار رجالاتها وقادة الرأى فيها أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم من زعماء السياسة والفكر والأدب . وكانت مجالس الإمام مُطارحةً لألوان العلم والعرفان ، وعَرْضًا لأحوال مصر خاصة والبلاد العربية عامة وتَبيُّنٍ عيوبها ومحاولة إصلاحها. وقد أفاد حافظ من ذلك كله ثقافة مختلفة الطعوم شهية المذاق ما كان يجدها فى الكتب والدفاتر . كما عرف عن أستاذه مناهج التفكير المسدّد ومسالك الجدل القويم ، وإلى ذلك يشير حافظ بقوله :

يا أميناً على الحقيقة والإفـ … تاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام فى موطن الرأ … ى ونعم الإمام فى المحراب
أنت علّمتنا الرجوعَ إلى الحـ … قّ وردّ الأمور للأسباب
ثم أشرقْتَ فى « المنار » علينا … بين نور الهدى ونور الصواب
فقرأنا على ضيائك فيـه … كلمات المهيمن الوهاب
وسكنّا إلى الذى أنـزل اللـ … ـه وكُنَّا قبله فى ارتياب (١)

ويصف حافظ مجالس الأستاذ الإمام — رحمه الله — وما كان يدور فيها من علم وهداية ويشير إلى شدة قربه منه فيقول : فلقد كنتُ ألصقَ الناس بالإمام ، أغشى داره وأرد أنهاره وألتقط ثماره ، فما سمعته يخوض فى ذكر السياسة ، قبحها الله ، ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ويتنقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق . وكان ربما ساقه الحديث إلى ذكر أحوال هذا المجتمع البشرى فأفاض فى شئون الاجتماع وحاج العمران ووقف بنا على أسرار الحياة . ولم يزل ذلك همه

(١) الديوان ١/٢٣ .

رحمه الله ؛ يُلقى فى الأزهر دروس التفسير وفى داره دروس الحكمة حتى مضى لسبيله »[١] .

وكان الأستاذ الإمام حينما عاد من منفاه سنة ١٨٨٩ قد طلق السياسة ، لأنه رآها سبب الكوارث والنكبات ، وآثر أن يكرّس وقته وجهده لخدمة الدين والمجتمع والأخلاق ، فذلك أجدى على الإسلام والمسلمين فى ظروفهم آنذاك من الاشتغال بالسياسة . فإذا عرف المسلمون أمر دينهم الحق وأصلحوا مجتمعهم وأخلاقهم وَضَحتْ أمامهم السبيل لإزاحة نير الاحتلال عن كواهلهم واسترداد أمجادهم .

وقد رأى الإمام أن خير ما يعينه على تأدية هذه الرسالة مهادنة الإنجليز ، فإن ذلك أدعى إلى جلب الطمأنينة له ، ومن ثَمّ يستطيع أن يسير قدما فى طريق الإصلاح الذى ينشده . ولهذا عقد بينه وبين « اللورد كرومر » معتمد بريطانيا فى ذلك الوقت علاقة كانت تبلغ حد الصداقة ليكون فى حصن مكين ضد نقمة الخديو عباس .

وقد أخذ الناس على الإمام تقاعسه عن الجهاد السياسى وملاينته الإنجليز ، وبخاصة وأنه كان رجلاً مسموع الكلمة خطير المكانة فى دار المعتمد البريطانى . وأنا أرى أنه كان على حق فى انتهاجه هذه السياسة ، لأن ذلك قد وقاه شر النفى والتشريد والتصدى ، ومكّنه من أن ينصرف إلى تأدية رسالته الإصلاحية التى أشرنا إليها ، ولا سيما أنه لم يبعد العهد بينه وبين ما أصاب أستاذه جمال الدين من العنت والاضطهاد ، وإلى جانب ذلك يشير حافظ فيقول : « ولولا أن الإمام مادّهم حبل الود وجاذبهم فضل النصح والإرشاد لأصابه ما أصاب حكيم الأفغان وقضى على هذه الأمة بالحرمان . فقد كان يغدو على الوكالة ويروح عنها ليدفع عنا شرّة القوم ويصلح ما تفسده أيدى الدسائس . فكم زحزح عنا حادثاً ودفع كارثاً . ولو كان حيًّا يوم دار الفلك لنا بالنحوس فى " دنشواى " لرأيت غير الذى رأيت من ذلك القصاص ، ولما ارتفع صوت العميد بذلك

---

(١) ليالى سطيح ص ١٢١ .

التهديد والوعيد ، ولما نزع إلى كتابة ذلك التقرير الذى جاء أبلغ ما تملى الضغينة على الموتور »[١] . ويقول شيوخ السياسة إن محمد عبده جنّب البلاد كثيراً من شرور المحتلين باتخاذه هذا المذهب (مذهب ملاينة الإنجليز) وليس بخاف علينا ما كان عليه هؤلاء القوم فى ذلك الزمان من قوة وجبروت ، وما كنا عليه نحن من ضعف وتخاذل واضمحلال .

والواقع أن صلة الإمام بالمعتمد البريطانى كانت تقوم على المهادنة لا المداهنة ولم يُؤْثَرْ عنه أنه تجاوز حد المهادنة إلى وضع لا يُحمد عليه من مدحٍ للإنجليز ، أو تحبيذٍ لسياستهم . بل إنه كان يهاجمهم فى عنف وشدة فى كثير من الأحيان . وقد سافر إلى لندن حينما كان مبعداً عن الديار المصرية وهاجمهم فى عقر دارهم ، وبيّن لهم بالمنطق السليم سوءَ عملهم وعدم شرعية احتلالهم[٢] .

على أن رسالة الإمام الإصلاحية كانت تدفعه أحيانا إلى أن يحتك بالسياسة هوناً ما فى حدود ما تحتاجه هذه الرسالة . وفى ذلك يقول تلميذه حافظ : « لكنه كان يحتك بها (أى السياسة) ما دعت إلى ذلك الحالة ، ويرصد حركاتها رصداً ، ويصدّ غاراتها صدًّا خشية أن تقطع على العلم سبيله ، أو أن تقف عثْرة فى طريق الفضيلة ، ولولا ذلك لقطعتْ عليه سلك أمانيه وحالت بينه وبين ما كان يبتغيه... ولعله أوهم العميد بيقظة حزب جديد ليردّ عاديته ويفسد عليه سياسته »[٣] .

وهكذا كان الإمام يمسّ السياسة مسًّا ويخوض غمارها بقدر ، حتى إذا أدرك مبتغاه انسلّ منها انسلالاً وهو يشمر أذياله خشية أن تفسد عليه عمله ، لأنه — كما يقول حافظ — « كان من أشد الناس تبرماً بالسياسة وأهلها ، حتى أعلن براءته من الالتصاق بها » .

والحق أن مجالس الإمام — رحمه الله — كانت مدرسة يتخرج فيها نجيل

---

(١) ليالى سطيح ص ١٢٢ .

(٢) اقرأ الفصول القيمة التى كتبها عنه فى هذه الناحية الدكتور عثمان أمين فى كتابه « رائد الفكر المصرى » .

(٣) ليالى سطيح ص ١٢١ .

من الشباب مُستنير العقل واسع الأفق متوثبُ الروح . وصدق حافظ حين سمى تلاميذ الإمام « حزب العلم والعرفان »، وتعاليمه « سياسة التقدم والعمران » .

وكان حافظ من أقرب الناس إلى قلب أستاذه حتّى إن الإمام كان يسارّه ببعض أموره الخاصة ، يقول حافظ : صحبته مرة فى إحدى روحاته إلى عين شمس ، وكانت لى عليه دالة ترفع عنى مؤونة الاحتشام ، وكنت أتبسط معه على الحديث . فكان مما ذكر لى فى هذه الليلة أنه أُلقِىَ إليه كتاب كتبه صاحبه، وإبليس جاثم بين كتفيه، ينذره فيه بالقتل ويتوعده بالاغتيال — ذكر ذلك كمن يذكر نبأ من الأنباء التى يسوقها الحديث ، فلم ألمح على وجهه ما ينمّ عما وقع فى نفسه من أثر ذلك الكتاب ، ثم خاض فى غير ما أخذ فيه . . . »(١) .

وكان بعض الحساد ينفسون على حافظ قربَه من الإمام، ويسعوْن جاهدين فى أن يفرقوا بين التلميذ وأستاذه ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن ينالوا من هذه العلاقة الموثقة منالاً ، وإلى ذلك يشير حافظ قائلاً :

أيهـذا الإمـام أكثرتَ حُسا ... دى فباتت نفوسهم فى التهاب
أبصروا موقفى فعـزّ عليهم ... منك قربى ومن عُلاك انتسابى
أجمعوا أمرهم عشاء وباتوا ... يُسمِعون الورى طنين الذباب
ونسوا ربهم وقالوا ضمنّـا ... بُعدَه من رحاب ذاك الجناب
قل لجمـع المنافقين ومنهم ... خُصّ بالقول عبدَ أمّ الحباب
إن نفس الإمام فوق مناهم ... ما تمنوْا وإننى غير صابى
شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا ... وولائى فى عنفوان الشباب(٢)

وبعث حافظ ذات مرة بهذين البيتين إلى الإمام معتزًّا بعلاقته به ، هذه العلاقة التى يتيه بها على الناس ، والتى يحسدونه من أجلها :

لقد بتُّ محسوداً عليك لأننى ... فتاك ، وهل غير المنعَّم يُحسد
فلا تُبلغْ الحسادَ منى شماتةً ... ففعلك محمود وأنت محمد(٣)

---

(١) ليالى سطيح ص ١١٣ .
(٢) الديوان ١/٢٣ .
(٣) الديوان ١/١٩٥ .

ويقول الدكتور سامى الدهان إن حافظاً قد اتبع سياسة أستاذه[1] ، ولكن الواقع ينطق بغير هذا ؛ فقد تحوّل حافظ من سياسة المهادنة التى رسمها أستاذه إلى سياسة المشايعة التى كانت تبلغ حد الملق والرياء ، من إطراء للمحتلين ، وتهنئة لملكهم حين يستوى على العرش وغير ذلك مما سنعرض له فى موضعه ، حتى لقد قال البعض إن حافظاً كان يسعى من وراء ذلك إلى نفع خاص .

والواقع أن حافظاً طول حياته لم يكن ذا لون سياسى ثابت ، ولكنه كان يميل حيث تميل الريح منذ أن عرفت مصر الأحزاب السياسية واصطبغت بألوانها الحياة البرلمانية .

مهما يكن من شىء فقد كانت صحبة حافظ للأستاذ الإمام خيراً وبركة ، وقد جنى منها حافظ أكرم ما جناه فى حياته من علم وثقافة ونور وحدب ورعاية .

* * *

وأحب — قبل أن أنتهى من الحديث فى مصادر ثقافة حافظ — أن أشير إلى مصدر آخر له أثره الكبير ، وهو تجاربه الواسعة التى اكتسبها بمخالطة الناس والاندماج فيهم . فقد أتاح له بؤسه أن يتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ، فعرف الكثير من ميولهم وأهوائهم ، وأدرك عن كثب ما كان يختلج فى نفوس الشعب من عوامل الحقد والموجدة على المستعمرين وعلى ذوى الثراء . وكان الناس يُقبلون عليه لظَرفه وأدبه ، وكان هو رجلا وفيًّا ، شديد الحفاظ على المودة والصداقة ، كثير التفقد لمجالس إخوانه ، يتنقل فيها بين جدّ القول وهزله فى خفة وظرف ، حتى ليخيل إلى جليسه أنه فى بستان قد تعطّفت جداوله وهتفت على أغصانه بلابله .

حقًّا إن حافظاً قد درس فى مدرسة الحياة واستقى كثيراً منها « فكان الناس مدرسته وكتابه ومعلمه » كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ[2] .

---

(١) شاعر الشعب ٣٦ .

(٢) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٨ .

شعر حافظ

١

معالمه ومقوّماته

لقد درس شعرَ الرجل غيرُ واحد ، وأطراه بعضهم إطراء لا حدّ له حتى لقد جعله أعظم شعراء العصر الحديث ، وغلا البعض فى ذلك فاعتبره أعظم شعراء العربية على الإطلاق . رهاجمه كذلك هو وغيره من كبار الشعراء غيرُ واحد هجوماً منكراً تشوبه شرّة الحقد والاضطغان . وقد حمل لواء هذه الحملة فى أوائل هذا القرن شباب الأدباء فى ذلك الحين أمثال إبراهيم المازنى وعبد الرحمن شكرى وعباس العقاد رحمهم الله .. وكان المرحوم المازنى عنيفاً على حافظ فى غير نَصَفَة أو هوادة . كان يراه رجلا جنى على الشعر والأدب ، وفى ذلك يقول : « ولو كان للأدب حكومة تنتصف له من المسىء وتكافئُ المحسن لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر أن يبتاع ما اشتراه الناس من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جناية على الأدب . وأنت تعلم أن من الشعر ما يكون آثماً ومنه ما هو برىء صالح ، أما الآثم فهو الذى يفسد الذوق ويعوّد الناس الكذب ويضلل النفوس ، وشعر حافظ من هذا النوع »[1] .

وقد نشر المازنى بضع مقالات فى صحيفة « عكاظ » كانت كلها حملة قاسية على شعر حافظ ، ثم جمعها فى كتيب صغير سماه « شعر حافظ » ولكنه لم يلق شيئاً ما من الرواج بين القراء ، وذلك لأن الحملة كانت ظالمة قائمة على التجنى والبخس . والظاهر أن نابتة الأدباء فى ذلك الوقت كانوا يبغون من مقارعة فحول الشعراء الشهرة والالتماع . وما أشبههم بشعراء العصر الأموى الذين كانوا يهاجمون جريرا زعيم شعراء ذلك العهد بغية ذيوع الصيت والظهور على المسرح ، وكان

---

(١) شعر حافظ للمازنى ص ١٤ .

جرير يحطمهم بضربة واحدة ، ولكنهم كانوا لا يخشون مغبة ذلك ، وحسبهم أنهم صاولوه ولوزمناً يسيراً .

والواقع أن المازنى وغيره من شباب الأدباء كانوا متحاملين على عمالقة الشعر لأنهم كانوا يحسون بأنهم مطمورون وراء هؤلاء العمالقة ، وقد أفصح الدكتور محمد مندور عن ذلك فى كتابه « إبراهيم المازنى » فقال : « وعلى أى حال فإن نقد المازنى الشاب للعمالقة من معاصريه كحافظ إبراهيم والمنفلوطى لا يخلو من تحامل شديد قد يدخل فى نطاق الدفاع عن النفس الذى يتحدث عنه المازنى ؛ ونظن أن العقاد قد شاركه هذا الإحساس فجاء نقده هو الآخر بالنسبة للمعاصرين شبيهاً بنقد المازنى متضامناً معه . والواقع أن المازنى ورفاقه قد استشعروا الكثير من الضيق من الظلال التى كان يلقيها عليهم عمالقة العصر ، وكأنهم يحجبون عنهم ضوء الشمس ووهج المجد »[1] .

على أن المازنى نفسه بعد أكثر من عشرين عاماً نراه يندم على ما فرط منه ويصف حملته بأنها كانت خبالا وسفهاً فيقول : « ولقد افتتحت سيرتى فى الكتابة بأن نقدْتُ حافظاً رحمه الله فى سلسلة مقالات كنت أعتز بها وأعتدها شيئاً ثميناً فجمعتها ونشرتها فى كتاب بيع من نسخه القليل وتكدس أكثرها عندى فبعته لبقال رومى ليلفّ فى ورقاته ما شاء من جبن وزيتون ، أو يفعل بها ما هو شر من ذلك ، وقات وقد خلصتُ أنفاسى واستراح قلبى ؛ هذا خير ، فما يستحق مثل هذا النقد إلا هذا المصير »[2] .

وقد أقنعتنى دراستى المتئدة لشعر حافظ بأن فطرته الشاعرة التى زكت فى بيئة الإمام محمد عبده قد أصبحت إلى حد ما أسيرةً لتقاليد الصناعة واللغة . وكان حافظ إذا أفلت من ذلك الأسر جاء بالشعر الرائع ، وإذا احتجزته تلك القيود واستعصى عليه التملص منها كان شعره جافاً مبتذلا لا يعلو فوق مستوى مقالة صحفية منظومة .

---

(١) إبراهيم المازنى للدكتور مندور ص ٦٠ .

(٢) مجلة أبولو (يوليه ١٩٣٣) ص ١٣٢٨ .

فإذا رام حافظ أن يعبر عن مشاعره فى صدق وحرارة أتى بالقول مصقولا كثير الإيماض نقىّ المستشفّ ، وأحياناً كان يخضع لعقله الواعى ويشعر بمنزلته من الشعب فينظم الشعر متهافتاً خالياً من صادق الإحساس إرضاء للجماهير ليس غير . وهذا — فى رأيى — هو السر فى أن حافظاً يجمع بين المتناقضات ، فنراه الشاعر العبقرى المنيع فى قصيدة ، والشاعر المتهاون المستهدَف للنقد فى قصيدة أخرى . وما أشبهه — فى قيمة شعره — بالشاعر المخضرم النابغة الجعدى الذى كان تارة يأتى بالقول جزلا متيناً ، وتارة يجىء به ضعيفاً متهافتاً ، وأحياناً يسلك بين ذلك سبيلا ، حتى قال عنه الأصمعى : عنده مطرف بآلاف وخمار بواف »[1].

وليس من شك فى أن حافظاً وأضرابه من الشعراء الذين تهافتوا على إرضاء الجماهير قد أصابوا الفن الخالص بضربة فى الصميم ، فى حين أن الجماهير « لا تعدو الموج الصاعد الهابط الذى لا يستقر ولا يؤمن جانبه »[2] كما يقول المرحوم الشاعر خليل مطران . ولا يرتفع شعرٌ — مهما كان شأنه — يكون هدفُ صاحبه تصفيق الجماهير ليس غير .

والواقع أن بؤس حافظ قد أتاح له أن يختلط بسواد الشعب وأن يتعرف أهواءهم ، فكان يحتفى باستحسانهم لشعره ، ولا يأتى من القول إلا بما يصادف هوًى فى نفوسهم ، ويقول المرحوم الأستاذ المازنى : « وسبيل حافظ إذا أراد أن يقول شعراً فى حادثة أن يغشى مجالس الناس ويذاكرهم الحديث ليعرف ما ينبغى أن يكون رأيه رغبةً فيما يتبع ذلك من طيب الثناء وجميل الذكر »[3]. ومن أجل هذا كان حافظ يُلقى بنفسه قصائده فى المحافل والمنتديات حتى يستمتع باستحسانهم وتصفيقهم . وكان يتخذ استحسان الجماهير مقياساً لجودة شعره ، ولهذا كان يتوخى الألفاظ التى يحسن وقعها فى الأسماع والتى تلعب بعواطف السامعين ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٦ طبعة السندوبى .

(٢) أپولو ص ١٢٦٣ .

(٣) شعر حافظ ص ١٤ .

ولا يأتى إلا بالمعانى التى تلتقطها أذهانهم فى غير جهد .

وكان حافظ يفتش عن اللفظ المناسب للموضوع ويوائم بين موسيقى الطول والقِصَر وبين المعانى والأغراض . وكان يعيد النظر فى شعره ، ويبدّل لفظة بأخرى ويقدم ويؤخر بغية توفير الجمال لفنه، وكان يسمى هذه العملية « بالتذوق » ، ويمدح بعض الشعراء بأنه « ذوّاق » ، يريد بذلك أن له ذوقاً طيباً يعينه على المواءمة بين موسيقى اللفظ والموضوع من ناحية الفخامة والرقة ، والشدة واللين . وكان — كما يحكى عنه أصدقاؤه — « يصنع البيت فيردده على أذنه بإنشاده اللطيف حتى يتبين موقعه من أذنه قبل أن يوقعه على آذان الناس ، ويتذوق موسيقاه بنفسه قبل أن يتذوقها الناس »[١] .

وكان حافظ يعنى أشد عناية بتوفير عناصر الجمال اللفظى لشعره ، وكان احتفاله بالمعنى لا يساوى شيئاً بجانب احتفاله باللفظ. ويقول عنه صديقه الشيخ عبد العزيز البشرى : إنه ليؤمن قبل كل شىء بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضل . وهو يرى أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى ، وأن أدق المعانى وأجلها قد تقع للدهماء فى حوارهم ومنازع كلامهم . أما إشراق الديباجة ونصاعة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر »[٢]. فالمعانى — فى نظر حافظ — لقًى فى الطريق، وهى مستراد مُشاع لكل مرتاد . ويقول حافظ عن نفسه فى حديث له مع محرر مجلة الهلال : « أما أنا فأميت المعنى إذا لم يتفق لى لفظ رائع »[٣]. وكان فى أقصى ضميره يؤثر البيت الجيد اللفظ على البيت الجيد المعنى من شعر الشعراء القدامى ويردّده مترنماً فى إعجاب كما يذكر أصدقاؤه ، ويقول إن الطلاوة ونصاعة الديباجة هى كل شىء[٤]. ويقول عنه صديقه خليل مطران : «كان يتعب فى قرض

---

(١) مقدمة الديوان ص ٤٠ .

(٢) ذكرى الشاعرين ص ١١ .

(٣) مجلة الهلال (عدد يونيه ١٩٢٨) ص ٩٠٧ .

(٤) انظر « مختارات الزهور » التى أصدرها المرحوم أنطون الجميل سنة ١٩١٤ ص ٢٠ .

قريضه تعب النحات الماهر فى استخراج تمثال جميل من حجره »[١].

ويقول الأستاذ داود بركات : «كان حافظ كثير العناية بشعره ونثره يصقله ثم يصقله حتى إذا ما تم صقله ووثق بأنه صار صورة صادقة لما يريد تصويره تغنّى به وردده فإذا أطرب وإذا طرب هو لتلاوته عرضه على نخبة من الأدباء الذين يختارهم لنقده ، فلا يستكبر ولا يعاند ، بل يباحث ، فإذا هو اعتقد بأن الصواب ما قاله ناقده لا يعز عليه هدم ما بنى وتشييد سواه »[٢] .

ولعل مبعث عناية حافظ بلفظه أنه كان يخاطب الجماهير ، وهذا يدفعه إلى أن ينتقى اللفظ القوى الجذاب . ولهذا السبب نفسه قلّ الغريب فى شعره قلة ظاهرة ، لكى تقع أفهام السامعين على معانيه فى سهولة ويسر .

وكان حافظ ذا طبيعة واضحة لا غموض فيها ولا التواء . وقد جعلت منه هذه الطبيعة البسيطة شاعراً قليل الحظ من الخصب الذهنى والعمق العقلى . وقد نجم عن ذلك أن امتاز شعره بالوضوح وسهولة المأخذ . فهو شعر قريب الغور يكاد يكون خالياً من المعانى الفلسفية التى تلذ العقل والفكر ، ولا يجد المرء عناء أو مشقة فى الوصول إلى قراره .

وقد انضم إلى هذه الطبيعة البسيطة ثقافة سطحية وقلة تعمق للمسائل وعدم اطلاع على ثقافات الأمم الأخرى فى سعة واستقصاء ، فجاء شعره ضحلا لا عمق فيه . ومن أجل هذا لا نجد فيه كثيرا من الأبيات الحِكْمية التى تجرى على الألسن والتى تنبئ عن عمق النظر فى الحياة وفلسفتها . ومن أجل هذا أيضا كانت السطحية أبين خصائص شعره[٣] كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات .

ويقول الأستاذ عزيز أباظة فى تقديمه لكتاب « حياة حافظ إبراهيم » للأستاذ أحمد محفوظ : «كان شعره يقصر عن التحليق فى سماوات الخلق الواسعة المدى كما كان يفعل شوقى مثلا . ولكنه كان يستعيض عن ذلك بسهولة شعبية

---

(١) شاعرا العروبة ص ٥٧ .

(٢) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٣٦ .

(٣) انظر كتاب « فى أصول الأدب » للزيات ١١٠/١ .

محببة اكتسبها الشاعر من طول اندماجه فى طوائف الشعب المختلفة وتشرّبَ روحه من تلك الأرواح الخالصة المصرية . فكان رحمه الله شاعراً مصريًّا قحًّا » ،

وأنت حين تقرأ قصيدة من قصائده التى نالت صيتا مدويًّا لا تأخذك منها غير جزالة اللفظ وروعة العبارة ، ولو أنك حللتها لما ألفيت فى معانيها شيئاً يروعك أو يستأثر بإعجابك . خذ مثلا قصيدته « الشعب يدعو الله يا زغلول » ، هذه القصيدة التى يقول فيها بعض الباحثين إنها من عيون الشعر العربى ، تجد فيها هذه الخصيصة الواضحة فى شعر حافظ . وحسبك أن تلقى عليها نظرة عاجلة لتتبين صدق ما نقول :

أنشد حافظ هذه القصيدة[1] ، فى الحفل الذى أقامه أعضاء البرلمان فى ٢٤ يوليه سنة ١٩٢٤ بكازينو سان استفانو بالإسكندرية ابتهاجا بنجاة المغفور له الزعيم سعد زغلول ، وتوديعاً له بمناسبة سفره إلى لندن لمفاوضة الإنجليز ، وقد استهلها بهذه الأبيات :

الشعب يدعو الله يا زغلول ... أن يستقل على يديك النيل
إن الذى اندسَّ الأثيم لقتله ... قد كان يحرسه لنا جبريل
أيموت « سعد » قبل أن نحيا به ... خطْبٌ على أبناء مصر جليل
يا سعد إنك أنت أعظم عدّة ... ذُخرت لنا نسطو بها ونصول

والقصيدة من هذا اللون الذى يمتاز بالطلاوة ونصاعة الديباجة وجزالة العبارة ليس غير . وليس فيها معنى عميق يروعك أو صورة جميلة تبهرك . وقد غلبت عليه روح الفكاهة المتأصلة فى نفسه ، فساق نكتة يستثير بها الأسماع كما يصنع خطيب المحافل ، وقد اتخذ موضوع النكتة من لقب المحتفى به فقال :

النسر يطمع أن يصيد بأرضنا ... سنريه كيف يصيده « زغلول »

ومعانى القصيدة كلها دارجة مما يدور فى خواطر السامعين وقد تتجاذبه ألسنتهم فى أحاديثهم ، ولا يرتفع على آفاق المتعلمين .

انظر إليه وهو يحذر سعداً المعروف بالفطنة والدهاء من خُدع الإنجليز

(١) الديوان ١/١١٠ .

وحيلهم الماكرة التى لا يجهلها أى امرئ ابتُلِىَ وطنه باستعمارهم :

لا تقرب « التاميز » واحـذر ورده ... مهما بـدا لك أنه معسول
الكيـد ممزوج بأصفى مـائه ... والختـل فيه مذوّب مصقول
كم وارد يا (سعد) قبلك مـاءه ... قد عاد عنه وفى الفؤاد غليـل
القـوم قد ملكوا عنـان زمانهم ... ولهم روايات بـه وفصـول
ولهم أحـابيل إذا ألقـوْا بهـا ... قنصـوا النُّهى فأسيرهم مخبول
فاحـذر سياستهم وكن فى يقظـة ... سـعدية إن السياسة غول
إن مثّلوا فدع الخيـال فإنمـا ... عنـد الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عرف السياسة فرسخ ... واليـوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عنـدهم ... معنى يقال بأنـه معقـول
نصلَتْ سياستهم وحـال صباغها ... ولكل كاذبة الخضاب نصـول
جمعـوا عقاقير الدهـاء وركّبـوا ... ما ركبـوه وعنـدك التحليـل

ويمضى حافظ على هذا النحو فيأتى بالمعانى « الشعبية » القريبة التى تخلب أسماع الحاضرين وتقنص نهاهم :

هذا وسامك فوق صـدرك مـاله ... من بين أوسمة الفخـار مثيـل
حلّيْتَـهُ بـدم زكىّ طاهر ... فى حب مصر مصـونه مبذول .
فى كل عصر للجنـاة جـريرة ... ليست على مرّ الزمان تـزول
جاروا على (الفاروق) أعدل من قضى ... فينـا وزكّى رأيـه التنـزيل
وعلى (علىّ) وهو أطهرنا فمـاً ... ويدا وسيف نبينـا المسـلول

وهكذا نجد القصيدة كلها أشبه بالخطبة منها بالشعر . وكل قصائد حافظ ، وبخاصة التى كان يلقيها فى المناسبات من هذا الطراز الشعبى . ولذلك كانت تقابل باستحسان الجماهير التى كان حافظ يحتفى برضاها كل الاحتفاء .

وأحب أن أقول إن الجزالة وسلاسة العبارة وسطوة الألفاظ وعذوبة الجرس ليست بالشىء الهين فى الشعر فهى عنصر هام وركن قوى من أركانه . وقديماً كان أدباء العرب يعتبرون هذه الناحية هى كل شىء فى الشعر ، والمعنى بجانبها

خسيس المقدار لأنه لا يكلف الشاعر عناء فى اقتناصه ، أما اللفظ ففيه يتفاضل الشعراء وتتباين قدراتهم . ومن أوائل من نزع هذا المنزع بشر بن المعتمر والجاحظ والباقلانى وأبو هلال العسكرى وعبد العزيز الجرجانى .

فحافظ على كل حال قد وفر لفنه عنصراً له خطره من عناصر الشعر ، ولو قد جمع إلى ذلك المعنى العميق والفكرة السامقة لكان من أعظم فحول شعراء العرب .

ومن أبرز خصائص حافظ الشاعر أنه كان كلفاً بتقليد القدماء ، وليس ذلك بالأمر الغريب ، فهو تلميذ صريح للبارودى . وقد نشأ التلميذ يقلد أستاذه فى نظمه ، ثم أخذ يقلد القدماء كما كان يصنع أستاذه . وهو كأستاذه فى تحصيل الثقافة ؛ كان البارودى فى ثقافته لا يتجاوز أدب الأقدمين ، يحفظه ولا يكاد يتعمقه ، وكان حظ تلميذه من الثقافة كحظه لا يكاد يعتمد فى محصوله إلا على الأدب العربى القديم . وأقصد بالأدب العربى كتب الأدب الخالصة كالأغانى وديوان الحماسة والكامل والأمالى ودواوين الشعراء . وكان فهمه لهذه الكتب على قدر ما تتسع له طاقته العقلية ؛ يصيب الفهم أحيانا ويخطئه أحيانا أخرى . فنراه يزعم مثلا فى مقدمة ديوانه القديم — حين يتحدث عن أثر الشعر — أن بيتين لسديف الشاعر قد دفعا الخليفة العباسى السفاح إلى أن يفنى أمة بأسرها . والواقع أن السفاح قد نكل بالأمويين ، ولكنه لم يستطع أن يأتى عليهم . وهذا أمر يعرفه تلاميذ المدارس . وفرق بين التنكيل بأسرة وإفناء أمة بأسرها. وأحب أن أقول فى غير حرج إن حافظاً كان مصاباً بتقصير فى الدرس وكسل فى العقل ، ولم يتجاوز فى ثقافته العربية هذه الثقافة الأدبية الخالصة التى تتصل بالشعر والخطب والرسائل وبعض الأخبار . وكانت درايته بعلوم العرب وفلسفتهم ونظمهم ضئيلة جداً .

ولهذا جاء شعره متسماً بالمسحة العربية فى ديباجته وفى صورته وفى طريقة أدائه ، فأنت ترى حافظاً يبالغ ويسرف فى المبالغة على طريقة القدماء من غير أن يمحص أو يحقق ، ولعله لم يكن يحفل بمثل هذا التحقيق أو التمحيص ، لأنه

كان يؤمن بروعة اللفظ وأثرها فى نفوس السامعين أو القارئين . ويبدو أنه كان يؤمن كذلك بأن الناس ما كان يعنيهم التحقيق بقدر ما يعنيهم الاستمتاع بجزالة اللفظ وطلاوة العبارة . وهو يرى ذلك ويقرره أمام أصحابه ، لأنه لا يحق لهم أن يكلفوا الشعر ما يكلفون النثر من الدقة والتحقيق العقلى .وهذه المبالغة ظاهرة فى رثائه وفى مدائحه بنوع خاص .

وأعتقد أن طبيعة حافظ نفسه قد أذكت من روح هذه المبالغة التى يجرى فيها على غبار الأقدمين. لأنه كان رجلا بسيطًا فى خلقه، يسرف فى الحب ويسرف فى الرضا ويسرف فى السخط ويسرف فى الحزن ويسرف فى الإخلاص . فهو يستدر الدمع المدرار على الفقيد ، ويخيل إليه أن هذه الدموع تحمل نعشه إلى قبره ، وأن أنفاس الناس تدفعه :

مشى نعشه يختال عجبًا بربه ... ويخطر بين اللمس والقبلات
تكاد الدموع الجاريات تُقلّه ... وتدفعه الأنفاس مستعرات[1]

وكم كانت الريح تتمنى أن تُسَخَّر لحمل نعش الفقيد بدل أن يحمله الماجدون . والشمس ودّت لو تهبط من عليائها مؤثرة أن تساكن الفقيد فى جدثه الموحش ، والضحى ود أن يُدرّج الفقيد فى كفن مقدود منه :

ودّتْ الريح لو كانت مسخّرة ... لحمل نعشك عن هام الأماجيد
والشمس لو أنها من أفقها هبطتْ ... وآثرتْ معكَ سكنى القفر والبيد
وكم تمنى الضحى لو أنهم دَرّجوا ... هذا الفقيد بثوب منه مقدود[2]

وحافظ يرجو تراب الأرض أن يلتمس ورده من المجرة وطعامه من النجوم :

أيهذا الثرى إلام التمادى ... بعد هذا أأنت غرثان صادى
قد جعلتَ الأنام زادك فى الده ... ر وقد آذن الورى بالنفاد
فالتمس بعده المجرة وِرْدًا ... وتزوّد من النجوم بزاد[3]

(١) الديوان ٢/١٤٤ .
(٢) الديوان ٢/١٣١ .
(٣) الديوان ٢/١٣٣ .

وهو يطلب إلى جدث الزعيم مصطفى كامل أن يكبّر وأن يهلل وأن يلقى صاحبه جاثياً رهبة وإجلالا :

أيا قبرُ هذا الضيف آمال أمة فكبّرْ وهلّلْ والْقَ ضيفك جاثيا(١)

ولعل هذه المبالغة تذكرنا بأساليب الأقدمين فى الرثاء ، وبما كان فيها من صور تغلو فى المبالغة إلى حد بعيد ، من مثل رثاء أبى تمام لمحمد بن حميد الطوسى ، ورثاء البحترى للمتوكل ، ورثاء أبى طاهر بن بقية لوزير عز الدولة ، وغير ذلك . ويذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه سأل حافظاً — رحمه الله — ذات مرة : كيف تتصور قبر مصطفى جاثياً ؟ فقال : دعنى من نقدك وتحليلك ، ولكن حدثنى ، أليس يحسن وقع هذا البيت فى أذنك ؟ أليس يثير فى نفسك الحزن ؟ أليس يصور ما لمصطفى من جلال ؟ فقال الدكتور : بلى ولكن . . . فقال حافظ ؛ دعنى من « ولكن » واكتف بمثل هذا(٢) .

ونحن حين نقرأ المقدمة التى صدّر بها ديوانه القديم نجده يحصر المثل الأعلى للشعر فى محاكاة الشعراء المتقدمين من رجال العصر الأموى والعباسى ، وهو فى ذلك متأثر — من غير شك — بأستاذه البارودى . وقد أشار شوقى فى رثائه لحافظ إلى إعزازه القديم وإيثاره فقال :

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها وإمام مَن نَجلتْ من البلغاء

ما زلتَ تهتف بالقديم وفضله حتى حميْتَ أمانة القدماء

وكان حافظ لا يحسن تقليد القدماء فى بعض مناهجهم ؛ فقد رام أن يقلد عمر بن أبى ربيعة فى نظم قصة غزلية فأخرجها هزيلة تتخلج فى مشية عرجاء . . . كما صنع فى مدحته لأستاذه البارودى التى مطلعها :

تعمدتُ قتلى فى الهوى وتعمدا فما أثمتْ عينى ولا لحظه اعتدى(٣)

وقد استغرقت القصة أكثر من ثلثى القصيدة . وأراد أن يحذو حذو القدماء

---

(١) الديوان ٢/١٤٩ .

(٢) حافظ وشوقى ص ١٧٣ .

(٣) الديوان ١/٧ .

فى بدء القصيدة بالنسيب فاستطرد فيه حتّى استغرق أكثر من نصف القصيدة ، كما نرى فى قصيدته الميمية التى قالها عند عودة الخديو عباس من الآستانة ، وقد عرض فيها للخلاف الذى كان محتدمًا فى تلك الآونة بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ ، ومطلعها :

كم تحت أذيال الظـــلام متيم   دامى الفؤاد وليله لا يعلم(١)

وتذكّرنا هذه الحال بما حدثنا به ابن قتيبة من أن بعض الرُّجّاز أتى نصر ابن سيار والى خراسان فى عهد بنى أمية فمدحه بأرجوزة انتهب معظمها فى النسيب فقال نصر : والله ما أبقيتَ كلمة عذبة ولا معنى لطيفًا إلا وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك ، فإن أردْتَ مديحى فاقتصر فى النسيب ، فأتاه مرة أخرى فأنشده :

هل تعرف الدار لأم الغمر   دع ذا وحبّر مدحة فى نصر

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ولكن بين الأمرين(٢) .

ولما عاب بعض الأدباء فى مستهل هذا القرن على الشعراء نظمهم فى حب ليلى وسلمى ، ومساءلة الدمن ووصف الناقة ، تحركت نفس حافظ متجاوبة مع هذه الدعوة وقال قصيدته المعروفة فى الشعر ومطلعها :

ضعتَ بين النهى وبين الخيال   ياحكيم النفوس يا ابن المعالى(٣)

وفيها يعيب على الشعراء تقليدهم للأقدمين ، ويسخر من تلك الأوضاع القديمة :

قد أذالوك بين أنس وكأس   وغـــرام بظبيـــة أو غزال
ونسيب ومدحـــة وهجاء   ورثاء وفتنـــة وضـــلال
حمّلوك العناء من حبّ ليلى   وسليمى ووقفـــة الأطـــلال

ويدعو فى صرخة مدوية إلى تحرير الشعر من هذه القيود :

آن يا شعر أن تفك قيـــودا   قيّـــدتْنا بها دعـــاة المحال

---

(١) الديوان ١/٢٨٨ .
(٢) انظر مقدمة الشعر والشعراء .
(٣) الديوان ١/٢٣٧ .

فارفعـــوا هـــذه الكمائم عنا ودعـــونا نَشَمّ ريح الشمال

ولكن هل جدّد حافظ ؟ الواقع أنه حاول فى بعض الأحيان أن يجدّد فكان تجديده محدود الأفق ضيق المحيط . كان القدماء مثلا يفتتحون قصائدهم بوصف الدمن والأطلال والراحلة لأن ذلك هو ما كان يقع تحت حسهم ، فأراد حافظ أن يساير روح العصر وحضارته ، فافتتح بعض قصائده بما يقع تحت ناظره من مخترعات . ومن ذلك قصيدته التى أنشدها فى حفل أقامته جماعة رعاية الأطفال بدار الأوبرا وقد استهلها بوصف القطار :

صفحة البرق أومضت فى الغمام أم شهاب يشق جوف الظلام

أم سليل البخار طار إلى القصـ ـد فاعيا سوابق الأوهـــام

مرّ كاللمح لم تكد تقف العيـ ـن على ظل جرمه المترامى

وقد استغرق وصف القطار أكثر من عشرين بيتاً، ولم أجد آصرة تجمع بين وصف القطار وملجأ رعاية الأطفال، اللهم إلا أن القطار يقوم مقام الراحلة التى كانت وسيلة السفر عند العربى القديم ، ونسى حافظ أن هذا الوضع قد اقتضته البيئة البدوية القديمة التى كانت لا تعرف القرار (١).

ولكنه اعتبر عمله هذا تجديداً، ولمَ لا يجدّد وهذه صيحة التجديد تُصم أذنيه ؟ غير أن تجديده جاء على طريقة القدماء ، مقرّراً لمنهجهم .

وكل ما صنعه أنه جدّد فى الموضوعات ، أى أنه تناول الأحداث السياسية والاجتماعية التى تفتّق عنها عصره . وهذا أمر لا أرى له فيه فضلا ، لأن الشاعر دائماً فى كل عصر يعيش فى ملابسات زمنه وبيئته ، وليس من المعقول أن يخرج شاعر من إهابه وينفض عن نفسه غبار عصره ليعيش فى أغوار القرون الماضية .

وكان حافظ شديد التعمل ، كثير التأنق ، يُعْنِت ذهنه فى تقليد شعراء العرب الأقدمين . وقد جنى عليه التقليد إلى حد ما ، وأغلق فى وجهه أبواب التصرف والتفنن ، وبخاصة فى مقتبل حياته الأدبية . ولهذا نحس بأن الصنعة قد غلبت على الكثير من شعره وهو الذى يقول فى مقدمة ديوانه القديم : خير

(١) اقرأ تعليل النسيب بالتفصيل فى مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

الشعر ما جاء عن غير كد ولا تعمُّل وتحامى طريق التعسف والتكلف » .

فشعر حافظ فى معظمه كان شعراً تقليديًّا لا يُعنَى إلا بالتقرير التام كما يقول أدباء الفرنجة ، وهو بهذا بعيد عن الشعر الرومانتيكى الذى يكون مصدره الإيحاء التام .

ومع هذا كان شعره قريبًا إلى النفوس ، لأن روحه العذبة الحلوة تنساب فيه ، ولأن بساطة خلقه تطلّ عليك من كلماته ، فى شعره — كما يقول الأستاذ أحمد محفوظ — « جاذبية غير واضحة ولا مفهومة ، يحسها القلب وينكرها الذوق الفنى »[1] .

ونحن لا ننكر أن حافظًا كان شاعراً حاضر البديهة ، سريع التأثر "Impressionist" ، ولكنه أفسد طبيعته بالصناعة بدل إطلاقها على سجيتها . وربما كان هذا عاملاً من العوامل التى جعلت إنتاجه الشعرى غير غزير .

وقد ظل حافظ محافظًا على القديم ، معتصمًا بحبله ، مقلداً للقدماء دون تجديد يذكر حتى آخر عمره . وكان فى استطاعته أن يتناول أحاسيس النفس البشرية ، فيُبرز لنا من جوانبها الكئيبة التى عاناها صوراً رائعة عميقة تمثل النفس الإنسانية أصدق تمثيل . ولكنه انزوى فى ركن القدماء وترك ميدان الشعر الرحيب وقد تفاسحت أكنافه بفعل الحضارة والعلم .

* * *

وهناك مسألة أشرنا إليها إشارة خاطفة فى فصل سابق ، ونحب أن نتناولها هنا بشىء من الإسهاب ، تلك هى أثر الوظيفة فى نشاط حافظ الشعرى . ويقول بعض الأدباء إن وظيفة دار الكتب كانت نعمة على جيب حافظ ونقمة على فنه ، لأنه اضطُر إلى المصانعة والمداراة ، وإلى أن يحسب للقول حساباً ، فتحطمت قيثارته ونضب معين شعره أو كاد ، وأصبح لا ينظم الشعر إلا فى مناسبات مُلحّة . ومعنى ذلك أنهم يضيّقون ساحة الشعر ويقيدون قدرة الشاعر ويحدّون من انطلاقه ، لأن الشعر متسع الآفاق يتناول جوانب الحياة كلها ، ولا يقتصر على

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨٦ .

السياسيات والوطنيات ؛ فهناك شعر الطبيعة والوصف وميدانه رحب فسيح ، وهناك الشعر الذى يترجم خلجات النفوس والمشاعر ، وهناك غير ذلك من الموضوعات التى كانت أخلق بالتناول . ولكن حافظاً قصّر فى هذا كله تقصيراً بادياً. وقد أشار إلى ذلك أستاذنا المرحوم أحمد أمين فقال: إن حافظاً لم يكن يستطيع حقاً — وقد قبل المنصب فى دار الكتب — أن يقول الشعر فيما كان يقول فيه قبل من اجتماعيات وسياسيات . ولكن لماذا سكت عن فنون الشعر الأخرى والمجال أمامه فسيح ؟ فليس كل شعر سياسة واجتماعاً ، فهناك شعر الطبيعة وهناك شعر القصص وهناك شعر الوصف وغيره من أنواع الشعر، ولم تكن وظيفته تمنعه من أن يقول فى كل ذلك أو فى شىء من ذلك ، وفى شوقى المثل لهذا ، فقد كان مقيداً فى القصر بأشد من قيود دار الكتب ، ومع هذا ظل يقول فى فنون مختلفة من الشعر لا تتنافى وتقاليد القصر »[1].

وغريب من حافظ ألا تحفزه طبيعة مصر الخلابة ولا نيلها الفياض ولا آثارها الرائعة ولا صحراؤها المنبسطة ولا شمسها الساطعة ولا نجومها المتألقة ولا مروجها الخضراء — غريب ألا يحفزه ذلك كله إلى أن ينظم فيه شعراً ، فقد تقاعس واستسلم للصمت ، وأبتْ شاعريته أن تحلق فى هذه الآفاق الفسيحة التى تمس شغاف النفس وتتصل بأعمق أعماقها ، وبخاصة وأنه عانى ضروباً من البؤس والشقاء شطراً كبيراً من حياته، ولم يكفّ عن الشكوى طول عمره . ويقول الأستاذ حسن الصيرفى : « وكان فى استطاعة حافظ — إذا فُرض أنه طلق الشعر تحت ضغط قيود الوظيفة — ألا يحرم قيثارته العزف عليها فى نواح أخرى ؛ كأن يرسم صوراً للشقاء الذى يلازم الحياة فى مصر وهو الذى خبره ولمسه وعاش فيه زمناً ليس بالقصير، وكان من الأسباب التى دفعته إلى نقل رواية البؤساء إلى العربية»[2].

فحافظ فى الواقع قد قصّر أيما تقصير إبان عمله فى دار الكتب ، وتخلّف عن زميله شوقى أيما تخلّف ، هذا الشاعر العظيم الذى كانت قيود القصر تغلّ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٦ .

(٢) حافظ وشوقى لحسن الصيرفى ص ٩ .

من طاقته الفنية ، ولكن شاعريته الأصيلة حلّقت فى سمٰوات الفنون الشعرية البعيدة عن السياسة فأتت بالمعجزات .

وقد نظم حافظ فى أغراض الشعر التى اعتاد الناس أن ينظموا فيها من مدح ، ومداعبة للإخوان والشكوى إليهم ، وما كان يشغل بال الناس من أمور تتصل بالمجتمع ونحو ذلك . وقل أن تجد فى شعره هذا معنى جديداً يخلب اللب ، وإنما كان يتناول معانى من سبقه من الشعراء فضلاً عن أغراضهم . ومع هذا كان يرى نفسه شاعر العصر الذى لا يدانيه شاعر آخر . وكانت ظروف الحاجة تضطره أحيانا إلى أن يقرّ بفوقان شوقى ، وهو يصرح بذلك فى موطن لم يكن له أن يسلك فيه سوى هذا السبيل فى قصيدة نظمها سنة ١٩٠١ :

قل للألى جعلوا للشعر جـائزة   فيم الخلاف ؟ ألم يرشـدكم الله ؟
إنى فتحتُ لها صـدراً تليق به   إن لم تحلُّوه فالرحمن حـلاّه
لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى   إلا فتى ماله فى السبق إلاه
ذاك الذى حكمتْ فينـا يراعته   وأكرم الله والعبـاس مثـواه

أما من عداه من كبار شعراء ذلك العصر فلا يبلغون شأوه فى نظره .

ولعل حافظًا كان يرى أن حظ مصر من الشعر فى أوائل هذا القرن كان قليلا . فالبارودى قد أدركته الشيخوخة وأخذ يدلف إلى القبر ، و إسماعيل صبرى كان يجيد فى نواح خاصة ، كالتعبير عن المعانى الدقيقة والشعور النفسى العميق فى مقطوعات صغيرة يصوّر بها أحاسيسه ومشاعره، ولم يكن يحترف الشعر كما كان يحترفه حافظ وشوقى ، لأن منصبه الحكومى الرفيع كان يسمو به عن ذلك .

وعبد المطلب كان شعره عربيًّا أعرابيًّا لا يساير العصر الذى يعيش فيه .

ولعل حافظًا كان يرى فى أعماق نفسه أن شوقى لم يبزه إلا لتفيّئه ظلال السراى وكونه شاعر الأمير ليس غير ، ولولا ذلك ما فاقه ، وهو يشير إلى ذلك من طرف خفى فى هذا البيت :

ذاك الذى حكمت فينا يراعته   وأكرم الله والعبـاس مثواه

* * *

والآن أحب أن أتناول جوانب من شعر حافظ يتسع المجال فيها لجديد من القول ، وألقى عليها أضواء تجليها وتساعدنا على أن تكون آراؤنا فيها صادقة لاشطط فيها ولا زيغ .

٢
الوصف والخيال

لم يبرع حافظ فى فن الوصف ، وما كان له أن يبرع فيه . وأكثر شعر الوصف عنده لا يهز مشاعرك ولا يملأ جوانب نفسك ولا ينال منك ذرة من إعجاب .

فلقد عجز حافظ عن أن يقف أمام مشاهد الطبيعة وقفة التأمل الشاعرى والاستغراق الحسى يستكنه أسرارها ويعكس عليها مشاعره وأحاسيسه . والطبيعة ما زالت منذ القدم وحى الشاعر ، ترفع مرآتها لعينه فيجتلى فى صقالها أعمق أعماق نفسه . . . يزحف الليل فيفنى ظلام صدره فى ظلامه الشامل ، وتعود الشمس إلى الطلوع فيذكر أيامه العذاب المواضى ، وتجنح إلى الأصيل ويخبو ضرامها ، وتدلف نحو الطَّفَل فيشيم مخايل الرجاء فى حياة ثانية يعقد بها حبل أمانيه ويصل أسبابه بأسبابها . بل إن فى قلب الطبيعة لهموما كانت ولا تزال معينا لا ينضب للشعر الحى . وما أجمل قول الشاعر الإنجليزى « وردز ورث Words Worth » : « إن فى مطلع الفجر لهيبًا متوهجًا قصير العمر يلهم الشعراء ، ولطالما اضطرم قلبى له حين أطلقت نفسى من عقال النوم »[1] .

ولست أرى حافظا من هؤلاء الشعراء الذين عناهم « وردز ورث » . فقد شغله بؤسه وشغله تندّره بالناس عن أن يتأمل ما فى الطبيعة من جمال وسحر ؛

---

(١) Lyrical Ballads by Words Worth & Coleridhe. p. 139.

ولذلك جاء وصفه جامداً هامداً . واقرأ له مثلا قصيدته فى وصف « الشمس » التى مطلعها :

لاح منهـــا حاجب للناظرين فنسوا باالليـــل وضّاح الجبين[1]

تره يرسم خطوطاً لقصة إبراهيم الخليل عليه السلام مع الشمس التى ذكرها الله تعالى فى سورة « الأنعام » بقوله : (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون) ، وكأنه يقرر حادثة تاريخية من غير أن يستشعر صلة روحية بينه وبين الشمس :

نظر ابراهام فيهـــا نظـــرة فأرى الشاك وما ضل اليقين
قال : ذا ربى ، فلما أفلت (قال : إنى لا أحب الآفلين)
ودعا القـــوم إلى خالقهـــا وأتى القوم بسلطان مبين
رب إن النـــاس ضلّوا وغوَوْا ورأوا فى الشمس رأى الخاسرين
خشعتْ أبصـــارهم لما بدتْ وإلى الأذقان خروا ساجدين

ثم أخذ بعد ذلك يسرد أثر الشمس فى الكائنات على نحو ما يدرسه تلاميذ المدارس فى علم الطبيعة :

هى أم النـــار والنور معـــا هى أم الريح والمـــاء المعين
هى طالِع الروض نوْراً وجنًى هى نشْر الورد ، طيب الياسمين

وربما كان أجمل ما فى القصيدة أنه ردّ على مزاعم من كانوا يعبدونها بأن (إلههم) لا يملك أن ينفى عن نفسه الكسوف :

أإلهٌ لم ينـــزّه ذاته عن كسوف ، بئس زعم الجاهلين !

ولكن جمال البيت جاء من ناحية العقل والمنطق لا من ناحية العاطفة والإحساس .

وعلى كل حال فالقصيدة كما رأيت وليدة العقل الواعى ، لا الإحساس الفياض ، ولذلك جاءت خالية من الروح والحياة ، مع أنها من أشهر قصائده الوصفية .

---

(١) الديوان ١/٢٠٧ .

وهاك نموذجا آخر من شعره الوصفى ، قصيدته فى وصف زلزال (مسينا) وهى قصيدة ذائعة الصيت ، ومطلعها :

نبئانى إن كنتما تعلمـــان ما دهى الكونَ أيها الفرقدان[1]

وفيها يقول :

غليانٌ فى الأرض نفّس عنـــه ثورانٌ فى البحر والبركان
ربِّ ، أين المفرّ والبحـــرُ والـ ـبرّ على الكيد للورى عاملان ؟
كنتُ أخشى البحارَ والموتُ فيها راصدٌ غفلةً من الربان
سابحٌ تحتنا ، مطلٌّ علينـــا حائم حولنا ، مُناء مـــدانى
فإذا الأرض والبحار ســـواء فى خلاق كلاهما غادران
ما (لمسّين) عوجلت فى صباها ودعاها من الردى داعيان
ومحتْ تلكمُ المحاسنَ منهـــا حين تمتْ آياتهـــا آيتـــان
خُسِفت ، ثم أُغرِقت ، ثم بادت قُضى الأمـــر كله فى ثوانى
وأتى أمرها فأضحت كأن لم تك بالأمس زينة البـــلدان

والقصيدة يبدو فيها التصنع والتكلف بحيث إنك لو حذفتَ عنوانها ولفظة (مسين) التى وردت فيها وأردتَ أن تتبين غرضها من فحوى أبياتها ومعاريض لفظها لألفيتَ ذلك مطلبًا عسيراً ، حتى لقد حقّ لبعض الباحثين أن يسميها — دون تجن — « جغرافية البراكين »[2] . ولو أنشدتك هذين البيتين :

ليتها أُمهِلتْ فتقضى حقـــوقا من وداع اللـــدات والجـــيران
لحةً يسعد الصديقان فيهـــا باجتماع ويلتقى العاشقان

ولم أقل لك إنهما من قصيدة فى زلزال (مسينا) لما جرى ببالك أنه يعنى بلداً لأن ذلك بعيد عن المعقول ، ولسبق إلى خاطرك أنه يذكر فتاة عجّل بها قدَرُ النوى . ولو قرأت هذه الأبيات على غير معرفة بما يقصد الشاعر :

لا رعى الله ســـاكن القمم الشـ ـمّ ولا حاط ساكن القيعان

---

(١) الديوان ١/٢١٥ .

(٢) حافظ وشوقى للأستاذ حسن الصيرفى ص ٥١ .

قد أغارا على أكفٍّ براها باريءُ الكائنات للإتقان
كيف لم يرحما أناملهـا الغـ ـر ولم يرفقا بتلك البنـان

(يريد النسور والحيتان) — أقول لوقرأت هذه الأبيات عرَضاً لاعتاص عليك أن تدرك أنه يصف زلزالا . فقد تقال فى زلزال ، وقد تقال فى حرب ، وقد تقال فى شيء غير هذا .

ولولا هذه الأبيات التى يصف فيها حافظ الكارثة وصفًا ليس فيه إحساس الشاعر وعميق تأثره لما أدركتَ موضوع القصيدة والغرض الذى يقصده . وهذه هى الأبيات التى تتناول صميم الكارثة ولكن فى غير حياة أو روح ، ولا تعدو أن تكون شيئًا أشبه بالقصص :

رُبَّ طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى
وفتـاة هيفـاء تُشوَى على الجمـ ـر تعانى من حرّه ما تعـانى
وأب ذاهل ، إلى النار يمشى مستميتًا تمتـد منـه اليـدان
باحثًا عن بنـاته وبنيـه مسرع الخطـو مستطير الجَنان
تأكل النار منه ، لا هو نـاج من لظاها ، ولا اللظى عنه وانى
غَصّت الأرض ، أُتخم البحر مما طويـاه من هـذه الأبـدان
وشكا الحـوتُ للنسور شكاة ردّدتهـا النسـور للحيتـان
أسرفا فى الجسوم نقـراً ونهشًا ثم باتا من كِظّة يشكوان

فأين هذا الوصف من وصف شوقى الذى ينبض بالحياة والحركة ؟ هذا الشاعر العظيم الذى رتع طرفه فى مشاهد الطبيعة فتأمل سماءها وشمسها وكواكبها وبرقها ورعدها وشفقها وضحاها ، وسرح فى بحرها وموجها ، وسمعت أذنه عصف رياحها ، وشم أنفه عَرْف رياضها ، وتغلغل فى صحرائها ورمالها ، وعرف لغة الطبيعة وألحانها . . .

والحق أن الطبيعة كانت مادة خصبة لصور شوقى الفنية ، استلهمها فألهمته وناجاها فاستجابت لمناجاته .

ولو شئت أن تعقد مقارنة بين قصيدة حافظ فى وصف زلزال « مسينا »

وبين مثيلتها عند شوقى فى وصف زلزال « طوكيو » ومطلعها :

قف « بطوكيو » وخبِّر عن « يوكوهامه» وسل القريتين كيف القيامه ؟[١]

لألفيتَ شوقى يعطيك صورة رائعة عن الكارثة قد أبدعتها يدٌ صَنَاع ، ولأحسستَ بالحركة تنبعث فى جوانب الصورة طبيعية غير مفتعلة لم تأخذ طريقها بالروح الجغرافى كما صنع حافظ . ولست أرانى فى حلٍّ من أن أذكر لك أبياتا من قصيدة شوقى أو قصائده الوصفية الأخرى لأن المقام لا يقتضى ذلك . وحسبى أن أحيلك على ديوان « الشوقيات » لتعرف براعة أمير الشعراء فى الوصف .

ومع أن شوقى أبرع شعراء العصر الحديث فى الوصف نراه لا يبلغ فيه شأو شعراء الإفرنج . فكثيراً ما نراه لا يتصل بالطبيعة بروحه وأحاسيسه ، ويصفها وصفاً مجرداً دون أن يبثها شيئاً من عواطفه. وقد كنت أقرأ نونيته المشهورة « قفى يا أخت يوشع خبرينا » فأحسست أنه لم يخلق بينه وبين الشمس صلة روحية ولم يتصل بها بقلبه وحسه على نحو ما يفعل شعراء الإفرنج مثل « دى لامارتين » الفرنسى و « ويلز » الإنجليزى وغيرهما ، وإنما اتصل بها بفكره وبعقله فقط .

وقد أصاب كبدَ الحقيقة الأديبُ الفاضل الأستاذ حسن الصيرفى حين قال: « أول ما يلاحظ على فن الشاعرين المادية التى لم يستطيعا أن يبرآ منها، حتى فى الأوصاف التى تنأى عن المادية ، وقل أن تصفو صورهما منها . . . ولكن شوقى كان يتجه صوب الخيال فى كثير من قصائده ، وبخاصة ما كان متصلا بالطبيعة . على أن اتجاهه ناحية الخيال لم يكن استغراقاً فى الطبيعة ، ولكنه كان افتتاناً حسياً أكثر منه افتتاناً روحياً »[٢] .

بيد أنى أحب أن أقول إن شوقى له — مع ذلك — قصائد الوصف الرائعة التى تمتلىء بالحيوية المتدفقة والتى تحس فيها بالصلة الروحية منعقدة بين الشاعر وبين الموصوف ، مثل قصائده فى النيل وغابة بولونيا والآثار المصرية

---

(١) الشوقيات ٢/١٠٣ .

(٢) حافظ وشوقى للصيرفى ص ٦٩ .

وتوت عنخ ودمشق وزحلة ووصف الطبيعة وغيرها . وكل هذه الأشعار آيات ناطقات بالقوة والتألق والاقتدار .

ولم أجد لحافظ ما راعني من قصائد الوصف إلا قصيدتين اثنتين هما قصيدته فى وصف حريق ميت غمر ، وقصيدته فى رحلته إلى إيطاليا . والقصيدة الأولى قالها سنة ١٩٠٢ حينما شب حريق مروع فى مدينة ميت غمر فى أول مايو سنة ١٩٠٢ وظل مندلع الأوار ثمانية أيام ، وقد أتت النار على معظم المدينة وهلك بسببها خلق كثيرون . وقد تألفت جماعة من الأعيان لتخفيف ويلات المنكوبين ، وتسابق أهل الخير لمساعدتهم ، وقامت الصحف تحض الناس على مد يد المعونة إليهم . وقد نظم حافظ قصيدته فى وصف هذه الكارثة ، واستهلها بقوله :

سائلوا الليـــل عنهم والنهارا   كيف باتت نساؤهم والعذارى[1]

وفيها يُبرزلنا هذا الخطب فى صورة حية تنفطر لها القلوب أسًى ، ولا تفقد روعتها على مر السنين ، لأنها صورة صادقة رسمها من ذَوْب نفسه وخلجات إحساسه . وقد أعانه على هذا التصوير البديع ما عاناه فى صباه وفى شبابه الأول من ألوان البؤس والشقاء ، يقول فى وصف الكارثة :

كيف أمسى رضيعهم فقَدَ الأ   مّ وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار   يتداعى وأسقف تتجـــارى
رَبِّ إن القضاء أنحى عليهم   فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومُرِ النـــار أن تكف أذاها   ومُرِ الغيث أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفلك يروى   هذه النار ؟ فهى تشكو الأوارا
أشعلتْ فحمةَ الدياجى فباتت   تملأ الأرض والسماءَ شرارا
غشيتْهم والنحس يجرى يمينًا   ورمتهم والبؤس يجرى يسارا
فأغارت وأوجهُ القوم بيضٌ   ثم غارت وقد كستهن قارا
أكلتْ دورهم فلما استقلّتْ   لم تغادر صغارهم والكبـــارا
أخرجتْهم من الديار عُـــراةً   حذر الموت يطلبون الفـــرارا

(١) الديوان ١/٢٥٠ .

يلبسون الظلام حتى إذا ما أقبل الصبح يلبسون النهارا

فالشاعر استمد من ينابيع آلامه ما بثّ الروح فى هذه الصورة . ولذلك نراه ينتفض ثائراً على المجتمع ونظامه الجائر ، وكأنما كان يترقب مناسبة ليطلق ثورته على الفوارق الاجتماعية فيقول :

أيها الرافلون فى حلل الوشـ ـى يجرّون للذيول افتخـــارا
إن فوق العراء قوماً جياعاً يتـــوارون ذلّـــةً وانكسارا

ويندد بسراة القوم الذين يبسطون أيديهم بالأموال على ملذاتهم وفى أفراحهم وهم غافلون عن مواطنيهم البائسين الذين تكرثهم الخطوب ولا يجدون من يقيل عثراتهم :

قد شهدنا بالأمس فى مصر عرساً[1] مـــلأ العين والفـــؤاد ابتهارا
سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نضـــارا

وهذه القصيدة قد بزّت — فى نظرى — قصيدة شوقى التى قالها فى وصف هذه الكارثة ومطلعها :

الله يحكم فى المـــدائن والقـــرى ياميت غمر خذى القضاء كما جرى[2]

لأن الحال قد صادفت اتفاقاً فى نفس حافظ ، فصوّر المكروبين أصدق تصوير . أما شوقى فلم يحس وقع البؤس من نفوس المنكوبين لأنه لم يذقه طيلة حياته ، فلم يحس فى نفسه الألم الذى أحسه زميله ، ولم يستطع أن يخفى ذلك فقال :

ما زلتُ أسمع بالشقاء روايـــة حتى رأيتُ بك الشقاءَ مصـــوّرا

ولذلك كانت ثورته فى قصيدته هذه باردة كالثلج ، لأنها لم تكن صادرة من أعماق نفس تحسّ شقاء البائسين وآلام المرزوئين . وقد أشار إلى ذلك العالم الأديب الأستاذ إسماعيل مظهر فقال : فحيث تشتد ثورة نفسه (أى شوقى)

---

(١) يشير حافظ إلى عرس زواج الأمير حيدر رشدى فاضل من كريمة على فهمى باشا ، وقد أقيم مهرجان عظيم بدار والد العروس مكث ثلاث ليال من ٣٠ إبريل إلى ٢ مايو سنة ١٩٠٢ ، وقد تحدثت البلاد كلها بهذا العرس فى ذلك الحين .

(٢) الشوقيات : ٢/٤٤ .

تسمو معانيه وتقوى شاعريته ، فإذا خبت نارها هبطت المعانى والشاعرية معاً إلى منزلة لم ينزل إليها الكثيرون من شعراء هذا العصر »[1] . ولهذا نراه يعرِّج على الحِكَم فيوصى بالصبر على المصيبة ، ويذكر أن كثيراً من المدن فى عصور التاريخ قد أصابه الدمار والتخريب . وهذا من عمل العقل الخالص لا من عمل العاطفة التى لم تتجاوب مع هذه الرزية الجسيمة .

وقصيدة شوقى — فيما أرى — تفضُل قصيدة حافظ فى جمال السبك وحسن الصياغة وبراعة النظم ، ولكنها تتخلف عنها فى روعة التصوير وصدق الإحساس.

أما قصيدة حافظ التى يصف فيها رحلته إلى إيطاليا فهى الأخرى زاخرة بالحياة رائعة التصوير ، وفيها يتجلى أثر هذه الرحلة فى نفس حافظ مما يدل على أنه كان فى مكنته أن يأتى بالوصف الرائع لو أتيح له ما أتيح لشوقى من مشاهد متنوعة اختزنها خياله فى رحلاته الكثيرة . وقد استهلها بقوله :

عاصف يرتمى وبحر يُغير   أنا بالله منهما مستجير[2]

ولعل من أخص ما تمتاز به هذه القصيدة مواءمة الألفاظ للمعانى مواءمةً تدل على براعة فى التصوير ودقة فى التعبير . انظر إليه وهو يصف ثورة البحر واصطخاب الأمواج وزمجرة الرياح العاتية :

وكأن الأمواج ، وهى توالى   محنقات ، أشجانُ نفس تثور
أزبدتْ ثم جرجرتْ ثم ثارت   ثم فارت كما تفور القدور
ثم أوفتْ مثل الجبال على الفُلْـ   ـك وللفلك عزمة لا تخور

ويصف السفينة وهى تتأرجح على أديم الدأماء وكأنها ريشة فى مهب الرياح فيقول :

تترامى بجوّ لا يبالى   أمياهٌ تحوطه أم صخور ؟
أزعج البحرُ جانبيها من الشد   ـد فجنبٌ يعلو وجنبٌ يغور

(١) انظر كتاب « تاريخ الفكر العربى » لإسماعيل مظهر (أحمد شوقى ودلالة شعره على نفسيته) ص ١٤٨ .
(٢) الديوان ١/٢٢٧ .

وهو آناً ينحطّ من عُلوٍ كالسيـ ـل وآناً يحوطها منه ســـور
وهى تزورّ كالجـــواد إذا ما ساقه للطعان ندبٌ جسور

ثم يصوّر جزع المسافرين وهلعهم وقد فغر الحِمام فاه يريد أن يطويهم فى جوفه :

وعليهـــا نفوســـنا خـــائراتٌ جازعاتٌ كادت شعاعاً تطير
فى ثنايا الأمواج والزبـــد المنـ ـدوف لاحت أكفاننا والقبور
مرّ يوم وبعض يوم علينـــا والمنايا إلى النفـــوس تشير

وتمتد إليهم يد الله فيهدأ البحر وتصبح الريح رُخاء، فيسكن جأشهم ويُفرخ روعهم وتجد الطمأنينة سبيلها إلى قلوبهم :

ثم طافت عنـــاية الله بالفلـ ـك فزالت عمن تُقلّ الشرور
ملكتْ دفّة النجاة يــدُ الـلـ ـه فسبحان من إليـــه المصير
أمر البحرَ فاستكان وأمسى منه ذاك العبابُ وهو حصير

ثم يتخيل حافظ البحر رجلاً عاتياً تياهاً بجبروته وحوْله، فيخاطبه مبيّناً له أنه ضئيل جداً بجانب حول الله فى ملكوته :

أيها البحر لا يغرّنْك حـــوْلٌ واتساعٌ وأنت خلق كبير
إنما أنت ذرّةٌ قد حوتهـــا ذرّة فى فضاء ربّى تـــدور
إنما أنت قطرة فى إنـــاء ليس يدرى مداه إلا القـــدير

وبعد ذلك يأخذ الشاعر فى وصف مشاهد إيطاليا وما فيها من آثار وفنون تدل على أمجاد تليدة :

فيك يا مهبط الجمال فنون ليس فيها عن الكمال قصور
ودُمًى جمّع المحاسن فيهـــا صَنَعُ الكف عبقرىٌ شهير
قد أُقيمت من الجماد ولكن من معانى الحياة فيها سطور

ثم يقارن بين إيطاليا ومصر من حيث جوهما وشمسهما وناسهما وأسباب الحياة فيهما ، ويرثى لإيطاليا — هذه البلاد الجميلة — تعرضها للبراكين التى تثور ضدهم الحين بعد الحين .

والقصيدة طويلة ورائعة ملأها حافظ بالحياة والحركة ، واختار لها الألفاظ المناسبة ليوفر لصوره جميع العناصر التي تجعلها حية معبّرة . ولعل السبب فى جودة هذه القصيدة أن حافظاً قد راعه ما شاهده فى أول رحلة له إلى أوربا ، ولعلها كانت الأولى والأخيرة .

هاتان القصيدتان هما — فى نظرى — خير ما نظم حافظ فى الوصف . أما سائر شعره الوصفى فهو — على قلته — غير جيد، خال من الحياة والجمال .

ولم يكن حافظ ذا خيال خصب قادر على الخلق والابتكار ، وقلما تجد له صورة تروعك وتستوقفك . وقد أراد أن يستعين بأحد المخترعات الحديثة فى خلق صورة بيانية فجاءت باهتة غير حية . . . اقرأ له قوله فى حبه للإمام :

كأن فؤادى إبرة قد تمغطستْ   بحبك أنّى حُرّفتْ عنك تعطف

تجد صورة هزيلة يبدو فيها أثر الافتعال والتعمل . وأراد أن يتخيل قصة غزلية فى قصيدته الدالية التى يمدح بها البارودى[1] على نحو ما صنع عمر بن أبى ربيعة فى رائيته المشهورة فجاءت القصة ممسوخة مهلهلة كما أشرنا .

وأراد كذلك أن يضع قصة تمثيلية[2] يصف فيها ضرب الأسطول الطليانى لمدينة بيروت فلم يستطع أن يرسم الجو المناسب لها ، وجاءت التمثيلية ضعيفة ركيكة ، وسنشير إليها بشيء من التفصيل فى موضع آخر .

وإذا أراد أن يُجِدّ معنى يحسبه ذا قيمة أخرج لنا صورة مضطربة غير واضحة .ومن أمثلة ذلك قوله يعرّض بحزب تركيا الفتاة الذى شرّد أفرادَه السلطانُ عبد الحميد :

تقاذفهم أيدى الليالى كأنهم   بها مثلٌ للناس فى القوم يُضرب[3]

فهو يشبههم فى تشرّدهم فى البلاد بالأمثال السائرة بين الناس من لسان إلى لسان . وهذا التشبيه — كما ترى — لا جمال فيه ، وكان الأخلق به أن يجعل

---

(١) الديوان ١/ ٧ .

(٢) الديوان ٢/ ٦٩ .

(٣) الديوان ١/ ١٥ .

سوء مغبتهم — وقد أصبحت مضغة فى الأفواه — كالمثل الذى يجرى على كل لسان .

وكان ذوق حافظ وخياله لا يخلوان أحيانا من بعض الفساد والسقم ، ومن ذلك قوله عن مدينة (مكْدن) الصينية التى حدثت فيها الموقعة الفاصلة فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٥ وقد تخضبت أرضها بدماء الضحايا :

وأصبحت (مكدن) ياقوتة يغـار منها الدر والجوهر [١]

فهذا ذوق فاسد ونفس خشنة رأت فى منظر الدماء ما يغار منه الدر والجوهر.

واقرأ له هذا التشبيه الذى يُغثى النفس ، من رثائه للبارودى :

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه كأنه دسم فى جوف ممعود [٢]

أظن نفسك تتقزز اشمئزازا عندما تسمع هذا البيت .

وقد زين له خياله السقيم أن يقذف بالقطار من فوق الجسر ليحض الناس على بذل المال لجمعية رعاية الأطفال [٣] .

وعلى أية حال فقد قصّر خياله عن أن يحلّق عالياً فى السماء فيزجى إلى الفن صوراً رائعة. ونحن لا ننكر أن له صوراً جميلة ولكنها قليلة فى شعره . وما أصدق ما يقوله عنه صديقه الوفى الأستاذ أحمد محفوظ : «كان حافظ قريب الغور ، لا يضرب فى سموات الخيال بسهم بعيد الرمية ، ولا يحلّق إلا بأجنحة متكسرة » [٤] ، وما أشك فى أن إحساس حافظ بقصور خياله كان من الأمور التى دفعته إلى أن يعتمد فى تعبيره على متانة الأسلوب وجودة العبارة أكثر من اعتماده على الابتداع أو الخيال .

ويرجع نضوب خيال حافظ وضحالته إلى أمور ثلاثة :

الأول : أن ثقافته الغربية كانت ضئيلة تافهة ، ولو قد اتصل بها اتصالا

---

(١) الديوان ٢/١٠ .

(٢) الديوان ٢/١٣٩ .

(٣) اقرأ القصيدة فى الديوان ١/٢٨٣ .

(٤) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨٥ .

قويًّا لنضج ذلك على شعره ، ولرأينا له الخيال المجنّح الذى يأتى بالرائع من الصور .

الثانى : أنه لم يعش فى أحضان النعمة كما عاش شوقى ، فلم يقع ناظراه على رائع المشاهد وفاخر الرياش ونفيس الآنية . ولا شك أن هذه الحياة المترفة كان لها أثرها البين فى خيال شوقى واتجاهاته الفنية .

الثالث : أنه كان قليل الأسفار والرحلات ، فلا نعرف عنه أنه بارح الديار المصرية إلا قليلا ، ولم يجاوز فى رحلاته الشرق العربى ، اللهم إلا رحلة واحدة يتيمة سافر فيها إلى أوربا سنة ١٩٢٣ وزار إيطاليا وفرنسا . وقد كانت قلة رحلاته سبباً فى ضيق خياله ، لأنه لم يشهد مناظر كثيرة متباينة ولم ير بيئات مختلفة للطبيعة والناس .

٣

المدح

إن فن المديح من الفنون الشعرية التى لا يخلو منها عصر من عصور الأدب وهو فن له قيمته وله خطره ، ويعتبره بعض الأدباء من أفضل المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأدب فى وقت واحد . ويقول الأستاذ عباس العقاد : « فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ القصيد فى مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه . ولا ضير على الأدب أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التى يعرفها الغربيون والشرقيون »[1] . وكل ما هنالك أن يكون الشاعر مؤمناً بعظمة ممدوحه فيسوق إليه نضيد المديح ، غير مغلوب على أمره وغير مدفوع إلى ذلك رهبةً أو طمعاً فى عاجل جزاء . وهذا النوع من المديح — فى

(١) شعراء مصر ص ١٩ .

نظرى — تمجيدٌ للعبقرية والعظمة ، واعترافٌ بما لهؤلاء العظماء من فضل على أوطانهم وعلى الإنسانية جمعاء .

وقد أكثر حافظ من المدح ، وكان مدحه موجهاً إلى الخديو وإلى العظماء والكبراء فى مصر وفى غير مصر .

وحافظ فى مديحه سائر على سَنَن القدماء، فلم يكن — فى الغالب — مجدّداً ولا مبتكراً ، بل كان مديحه كالثوب الذى يصح أن يخلعه على كل ممدوح . فممدوحه فخر البلاد والإنسانية ، وهو وضّاح الجبين ، مشرق الطلعة ، وهو متدفق البيان . سبّاق إلى العلا، محسَّد من الناس . ثم هو كالليث يحلّ عرينه إذا آب من سفر . ويكاد مدحه كله يدور حول هذه المعانى ولا يبعد عنها كثيراً . وحسبى أن أسوق مثلا واحداً :

أنشد حافظ بين يدى المغفور له سعد زغلول قصيدة على أثر قدومه من بلدته « مسجد وصيف » إلى القاهرة على الباخرة « دندرة » سنة ١٩٢٦ استهلها بقوله :

ما بال « دندرةٍ » تميس تهـادياً   ميس العروس مشتْ على إستبرق[١]

وفيها يقول :

ألعلها والتِّيــه يثنى عِطفهــا   حملت ركابَ زعيم قلب المشرق
إنى أرى نوراً يفيض وطلعــة   قــد زانها وضَحُ الجبــين المشرق
هــذا زعيم النيــل حــلّ عرينه   بعد الغياب فيا وفودُ تدفقى
كم أزمة مرتْ بنــا فاجتاحها   (سعدٌ) بسيل بيــانه المتدفق

وكان حافظ موفقاً إلى حدّ ما فى مدحه الذى ينظمه فى المناسبات كالتهنئة بالعيد ، أو بالأوبة من سفر ، أو بالترقية إلى منصب ، أو بالإبلال من مرض ، وبخاصة إذا كانت تربطه بالممدوح وشائج من الحب الصادق وأواصر من التقدير والإكبار ، كمدائحه فى الأستاذ الإمام محمد عبده وسامى البارودى . واقرأ قوله فى تهنئة الإمام بمنصب الإفتاء :

---

(١) الديوان ١١٨/١ .

رأيتك والأبصار حولك خُشَّع فقلتُ (أبو حفص) ببرديك أم (على)
وخفّضتُ من حزنى على مجد أمة تداركْتَها والخطب للخطب يعتلى
طلعتَ بها باليمن خير مطلع وكنتَ لها فى الفوز قِدْحَ (ابن مقبل)
وجرّدتَ للفتيا حسام عزيمة بحدّيه آيات الكتاب المنزل
محوْتَ به فى الدين كل ضلالة وأثبتّ ما أثبتّ غير مضلل[١]

وقوله يمدحه ويصف حضرته :

إنى لأبصر فى أثناء بُردته نوراً به تهتدى للحق ضُلاّل
حللتُ داراً بها تُتلى مناقبه ببابها ازدحمت للناس آمال
لى كل حوْلٍ لبيت الجاه منتجع كما تُشدّ لبيت الله أرحال[٢]

وقوله يهنئه بعودته من سياحته فى بلاد الجزائر :

بكّرا صاحبىّ يوم الإياب وقفا (بعين شمس) قفا بى
إنى والذى يرى ما بنفسى لمشوق لظلّ تلك الرحاب
يا أميناً على الحقيقة والإفـ تاء والشرع والهدى والكتاب
أنت نعم الإمام فى موطن الرأ ى ونعم الإمام فى المحراب[٣]

واقرأ قوله فى مدح البارودى :

سلبتَ بحار الأرض درَّ كنوزها فأمستْ بحار الشعر للدر موردا
وصيرتَ منثور الكواكب فى الدجى نظيماً بأسلاك المعانى منضدا
وجئت بأبيات من الشعر فُصِّلت إذا ما تلوْها أُلْقِىَ الناس سجدا
إذا ذكروا منه النسيب رأيتنا وداعى الهوى منا أقام وأقعدا
وإن ذكروا منه الحماس حسبتنا نرى الصارم المخضوب خداً مُورّدا
ولو أنىَ نافرتُ دهرى وأهله بفخرك ما أبقيتُ فى الناس سيدا[٤]

---

(١) الديوان ١/٤ ، وابن مقبل رجل من جاهلية العرب فاز قدحه سبعين مرة متوالية ، ويضرب به المثل فى حسن الأثر والفوز .
(٢) الديوان ١/٦ .
(٣) الديوان ١/٢٣ .
(٤) الديوان ١/٧ .

فهذه المدائح وأمثالها فيها جودة وفيها لباقة وفيها صدق ، وذلك لأنها صادرة عن نفس صادقة تحس ما تقول وتعيه . وتستطيع أنت أن تدرك من المدحة حدود ممدوحه ومعالمه إلى حد ما .

بيد أن لحافظ مدائح أخرى لم تكن وليدة الفهم الدقيق والدرس الواعى للممدوح ، ولم يدفع الشاعرَ إلى نظمها حبٌّ غامر أو إعجاب صادق. ولذلك نراه يستعير فى الغالب بعض المعانى القديمة ويرصها رصًّا من غير أن تستبين منها ناحية الفوقان فى الممدوح . وسر ذلك — فيما أرى — أنه كان قليل الميل إلى القراءة، ويذكر المرحوم الدكتور أحمد أمين — كما أشرنا — أن بعض أصدقاء حافظ حكى روايةً عنه أنه لم يقرأ كتاب« تحرير المرأة » لقاسم أمين وإن كان قال فيه شعرا[١] .

ولما ترجم الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد كتاب الأخلاق لأرسطو استقبله الشعراء فى ذلك العهد بالتقدير والإطراء، ومن بينهم شاعرنا حافظ إبراهيم . وقد زعم حافظ فى قصيدته أنه قرأ الكتاب فقال :

يا كاسى الأخلاق فى   بلد عن الأخلاق عارى
إنى قرأت كتابه   بين الخشوع والاعتبار
فإذا المؤلف ماثل   جنب المترجم فى إطار
وعليهما نور يفيـ   ـض من المهابة والوقار[٢]

ويجزم أستاذنا الدكتور طه حسين بأن حافظاً لم يقرأ الكتاب ولم يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد[٣] . والظاهر أن حافظاً قد فُتن بكلمة الأخلاق وخُيِّل إليه — كما يُفهم من قصيدته — أن أرسطو قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه، وأن المترجم كان يبغى تقويم أخلاق بنى قومه يوم ترجمه . ولو قد قرأ الكتاب لأدرك أن المؤلف والمترجم أرادا خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٣ .
(٢) الديوان ١/ ١١٤ .
(٣) حافظ وشوق لطه حسين ص ١٢٨ .

والإرشاد . ولم يكن كتاب أرسطو فى الأخلاق صالحاً لأن يكون مرجعاً للوعاظ والمرشدين يوماً ما ،وإنما هو مرجع قيم للدراسة علم الأخلاق يُدرس لطلاب الجامعات .

وقد زلّ حافظ زلة أخرى فى هذه القصيدة ، إذ ظن أن كتاب « السياسة » لأرسطو يعيننا على حل المسألة المصرية مع الإنجليز ، ولهذا آثره على كتاب « الكون والفساد » الذى كان يترجمه الأستاذ لطفى السيد وقتئذ ، وطلب إلى المترجم أن يعجل بترجمته قبل (الكون والفساد) فقال :

إنـا إلى (كتب السـيا   سة) يا حـكيم على أوار
عجّل بهـا قبـل (الفسا   د) وقبـل عادية البـوار
إنـا نناضـل أمـة   أقطابهـا أُسُدٌ ضوارى
أمسـت سـياستهم كطِلَّسْـ   ـمٍ يحيّر كل قـارى

ولكن كتاب (السياسة) هذا لا يجدى فى معالجة السياسة الإنجليزية ، ولا يقدم ولا يؤخر فى حل المسألة المصرية .

وأنت حين تقرأ قصيدته التى نظمها فى ذكرى شكسبير لا تستطيع أن تعرف منها شكسبير ولا فلسفته العميقة ولا وصفه لخوالج النفس البشرية وأحاسيسها. وكل ما تدركه منها أن حافظاً يمدح شاعراً عظيماً خليقاً بالمدح ليس غير . وليس فى القصيدة بيت واحد يفضى إلى معرفة بشكسبير أكثر مما تدلّ عليه الإعلانات على واجهات دور الخيالة والمسارح .

يقول حافظ فى مطلع القصيدة :

يحييك من أرض الكنانة شاعر   شغوف بقـول العبقريين مغرم
ويطربه فى يوم ذكراك أن مشت   إليك ملوك القول عُرْب وأعجم
نظـرتَ بعين الغيب فى كل أمة   وفى كل عصر ثم أنشأتَ تحكم
فلم تخطئْ المرمى ولا غرو أن دنت   لك الغاية القصوى فإنك ملهَم[1]

(١) الديوان ١/٧٢ .

ثم يصف شعره مشيراً إلى بعض مسرحياته فيقول :

له قلم ماضى الشَّباة كأنما أقام بشِقَّيْه القضاء المحتَّم
طهورٌ إذا ما دُنِّستْ كف كاتب وثوبٌ إذا ما قرَّ فى الطرس مِرقم
ولوعٌ بتصوير الطباع فلم يجزْ بعاطفة إلا حسبناه يرسم
أرانى فى (ماكبيث) للحقد صورة تكاد بها أحشاؤه تتضرَّم
ومثَّل فى (شيلوك) للبخل سحنة عليها غبارُ الهون والوجه أقتم
وأقعدنى عن وصف (همليت) حسنها وفى مثلها تعيا البراعة والفم
دع السحر فى (روميو) و(جولييت) إنما يحسّ بما فيها الأديب المتيم
أتاهم بشعر عبقرىّ كأنه سطور من الإنجيل تُتلى وتكرَم
ندىٌّ على الأيام يزداد نضرةً ويزداد فيها جدّة وهو يقدُم

فأنت ترى فى هذا الشعر أنه لم يقرأ شكسبير قراءة دقيقة واعية، ولم ينفعل مع شكسبير انفعال الشاعر الذى تهتاج خوالجه حين يستبطن أحاسيس شكسبير؛ هذا الفنان العظيم الذى خلق مئات من شخوص الرجال والنساء ومئات من مواقف الأفراد والجماعات . فحافظ قد عجز عن أن يستكنه مواطن العظمة فى شاعر الإنسانية الأكبر . وهذا الذى قاله حافظ عن شكسبير يستطيع أن يقوله إنسان كسائر الناس قرأ إعلانات المسارح عن تلك الروايات .

أما مدائحه للخديو والملك فؤاد وسائر الكبراء ، فلا يتجاوز فيها المعانى المألوفة التى أشرنا إليها .

٤
الرثاء

لعل فن الرثاء أهم فنون شعر حافظ، بل إنه الفن الذى برّ فيه شعراء عصره وشآهم . وأنت تحسّ فى رثاء حافظ بصدق العاطفة ووفرة الإحساس ، لأنه كان وفيًّا غاية الوفاء. فإذا فقد صديقاً جزعت نفسه أشد جزع ، وانطلق لسانه

يعبر عن ذلك فى ألفاظ كأنها نسيج ثوب من الحزن لُفَّت به نفسه. وترجع براعة حافظ فى الرثاء إلى أمرين :

الأول : أنه كان قوى الحس ، ذا نفس راضية لا تستبقى من صلاتها بالناس إلا الخير ولا تحتفظ إلا بالمعروف ، ولا ترى للإحسان والبر جزاء يعدل الإشادة به والثناء عليه .

الثانى : أنه كان منطوياً على شىء غير قليل من الحزن والأسى بسبب ما عاناه فى حياته من بؤس ومتربة .

وليس من شك فى أن يُتم حافظ المبكر قد طبعه بطابع الحزن ، وحاربته الأيام فى فجر حياته ففاضت نفسه بطوفان من الحزن والكدر ، وكان إذا خلا إلى نفسه أو إلى صديق له شكا إليه بثه وخفايا نفسه .

وقد أصبح الحزن قطعة من نفسه حتى إنه كان لا يستجيب لنداء القريض إلا إذا كان محزوناً . ويحكى عنه بعض أصدقائه أنه كان يقول : « لا يطيب لى نظم الشعر إلا إذا كنت حزينا »[1] . ويقول الأستاذ أحمد أمين : «خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة ، فأما فرحٌ بالطبيعة وفرحٌ بنفسه ونحو ذلك مما ينبعث عن عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال فى شعره »[2] .

وكان حافظ سريع التأثر ، شديد الانفعال . وقد تركت فى نفسه حياته الأولى ندوبَ حزن عميق لا تلبث أن تنغر إذا تخطف الموت واحداً من أصدقائه أو من العظماء الذين يُجِلّهم. ولعل حافظاً كان يُحس فى قرارة نفسه أن أصحابه قد أخلصوا له الود غير طامعين فى جاه أو نشَب، لأنه كان رجلا فقيراً لا حول له ولا طول ، فهم أحبوه لأنه خليق بحبهم وتقديرهم . فإذا فقد واحداً من هؤلاء فإنما يفقد قلبا يزخر له بالحب والتقدير .

هذا إلى أن حافظاً — رحمه الله — كان شديد الخوف من الموت وبخاصة حينما تقدمت به السن ، فكان يتوهم المرض ويعتقد أن الموت قريب منه ، فإذا

(١) ذكرى الشاعرين ص ٦٤ .

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٩ .

قضى له حبيب أو صديق ارتاع لذلك وأيقن أنه نذير بقُرب منيته. . . يقول فى ذكرى الإمام محمد عبده سنة ١٩٢٢ من قصيدة ضمنها رثاءه للمرحوم حفنى ناصف :

آذنتْ شمس حياتى بمغيب ودنا المنهل يا نفس فطيبى
قد مضى (حفنى) وهذا يومنا يتدانى فاستثيبى وأنيبى
اذكرى الموت لدى النوم ولا تغفلى ذِكرته عند الهبوب
راعنى فقْد شبابى وأنا لا أُراع اليوم من فقد مشيبى
حنّ جنباى إلى برْد الثرى حيث أنسى من عدو وحبيب
قد وقفنا ستة نبكى على عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوْا هكذا قبلى وإنى عن قريب
وردوا الحوض تباعاً فقضوا باتفاق فى مناياهم عجيب
أنا مذ بانوا وولّى عهدهم حاضر اللوعة موصول النحيب(١)

ومن أجل هذا كانت الكوارث تقع من نفس حافظ أشد وقع وتثير فيها أحاسيس لذّاعة من الألم الممض واللوعة المريرة. وكان لسانه ينطلق بالشعر فى تصوير هذه العواطف فيبلغ من ذلك ما يريد، ويثير فى نفوس الناس كثيراً من الجزع والحزن .

ونحن نستشف من رثاء حافظ أنه كان يجد الرثاء دَيْناً فى عنقه نحو أحبابه الذاهبين وحقّاً واجباً لهم ، فهو يعدّ رثاءه وفاءً لهؤلاء الراحلين ويعتذر إذا لم يبلغ فيه ما يريد ويستنجد بدموعه إذا لم يسعفه القريض ولهذا كان رثاؤه من النوع الإنسانى البسيط الذى يصدر عن نفس بسيطة تُحس لذع الحزن ولا تستطيع أن تخفيه . وهذا يفسر لنا خلو هذا الرثاء من الفلسفة والتفلسف اللذين يعتمدان على الأناة والعقل وعمق التفكير .

وما أحسب أنى أعرف شاعراً من شعراء العربية فى العصر الحديث قد بلغ فى الرثاء ما بلغه حافظ . فكثير منهم يرثون فيحسنون الرثاء ويجيدون وصف الفقيد

(١) الديوان ٢/٢٠٣ .

الراحل وتعديد خلاله ومآثره، ويصوّرون ذلك كله تصويراً يلذ العقول والأسماع ، ولكنهم لا يثيرون ما فى النفوس من عواطف الحزن الكامنة . وسبب ذلك أن أكثر هؤلاء الشعراء يرثون ولكن عن غير حزن صادق وينوحون ولكن عن غير لوعة محرقة . فهم يرثون لأنهم يفهمون أن الرثاء فن من فنون الشعر يجب أن يشاركوا فيه كارهين أو راضين .

أما حافظ فكان يرثى فى صدق وحرارة لأنه يحزن ويتفجع ، ولأن نفسه كانت بريئة من الضغينة والحقد .

وقد أتيح لحافظ أن يكون وثيق الصلة بهؤلاء الأفذاذ الذين ظهروا على مسرح السياسة المصرية والمجتمع المصرى . وكانت صلته بهم صافية خالية من قيود الكلفة والتزمت .

وتتجلى براعة حافظ فى الرثاء فى أنه نقله من مسألة فردية إلى مسألة عامة ، فوت الإمام محمد عبده خطبٌ فادح رُزئت به مصر والعالم الإسلامى ، وموت مصطفى كامل كارثة على مصر والوطنية ، وموت سعد زغلول رزء أصيبت به الزعامة الحقة . وهو يبين ذلك بعد أن يسجل للفقيد شمائله وميزاته الخاصة ويصوره الصورة الكاملة .

وأنت تحس حين تقرأ رثاء حافظ لعظماء الأمة بأنه صورة صادقة للجزع ونارٌ ملتهبة للوعة التى لا حد لها ، وتشعر أن قلب الشعب يخفق ألماً ، وأن نفسه تضطرم أسى وحزنا . وقد شهد له بالبراعة فى الرثاء أمير الشعراء شوقى ، وكان يؤثر أن يقضى نحبه قبله حتى يأتى منه أوفى الرثاء ، فيقول فى مستهل رثائه إياه :

قد كنت أوثر أن تقـــول رثائى　　يا منصف المـــوتى من الأحياء(١)

فلا عجب إذا كان شعر الرثاء عند حافظ غزيراً وفيراً ، وقد أحس هو بذلك فقال :

إذا تصفحتَ ديــوانى لتقــرأنى　　وجدْتَ شعر المراثى نصف ديوانى (٢)

وأول ما نلحظه فى رثاء حافظ أنه رثاء بالمعنى الإنسانى الواضح : حزنٌ غامر

---

(١) الشوقيات : ٣/٢٤ .
(٢) الديوان ١/١٣٣ .

تتنزى به نفس الشاعر يختلف قوة وضعفاً باختلاف صلة الشاعر بالمرثى وباختلاف ما تركه الفقيد من آثار فى ميادين الوطنية أو الإصلاح أو العلم ، وتبيانٌ لخلال الشاعر وصفاته الكريمة ، وذكرٌ يهصر القلب للأيام المواضى التى نعم فيها الشاعر بصداقة الفقيد ، وشجاً يتجدد كلما عدت المنية على صديق أو زعيم أو حبيب .

وأقوى ما يكون هذا الطابع حين يبكى الشاعر عظيماً من العظماء الذين اتصل بهم اتصالا وثيقاً وتلمذ عليهم وغمروه بعطفهم وحدبهم . فإذا رثى الإمام محمد عبده بيّن لك فجيعة الدين والعلم والإصلاح فيه ، وصوّر لك روائع مواقفه وآثاره ، وجسامة الخطب الذى أصاب المسلمين فى سويداء قلوبهم ، وكأنه بذلك يعلّمهم كيف يجدون لذع الحزن وألم الفجيعة . ولم ينس حافظ أن يقفو آثار القدماء فى تعديد مآثر الإمام ومفاخره فى لفظ رصين وعبارات جزلة كما عُرف عنه . وقد استهل حافظ رثاءه للإمام بهذه الأبيات :

سـلامٌ على الإسلام بعد محمد ... سـلام على أيامـه النضرات
على الدين والدنيا على العلم والحجا ... على البر والتقـوى على الحسنات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتى
فوا لهفى والقـبر بينى وبينـه ... على نظرة من تلكم النظـرات
وقفتُ عليه حاسر الرأس خاشـعاً ... كأنى حيـال القبر فى عرفات
لقد جهلوا قدْر الإمام فأودعـوا ... تجاليـده فى موحش بفـلاة
ولو ضرحـوا بالمسجدين لأنـزلوا ... بخير بقاع الأرض خير رفات (١)

فالمعانى — كما ترى — تكاد تكون مألوفة تداولها غيره من الشعراء ، ولكن الأبيات تملأ النفوس والقلوب أسى وكمداً . فقد كان حافظ ملتاعاً لفقد أستاذه ووليه ، فجعل من هذا الشعر العادى حزناً مريراً .

وحافظ يصور ذلك الجزع وكأنه طوفان من الحزن يأتى على كل نفس .

---

(١) الديوان ٢/١٤٤ .

فقد أصيب الدين بثغرة ينفذ منها المتحاملون عليه ، لأن حاميه الأكبر قد قضى :

تباركتَ هذا الدينُ دين محمــد أيُتــرك فى الدنيــا بغير حمُاة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قنــاة الدين للغمــزات

ويبين الفراغ الذى تركه الإمام فى يأس يخترم النفوس :

مــددنا إلى الأعلام بعدك راحنا فرُدّت إلى أعطــافنا صَفِرات
وجالت بنــا تبغى سواك عيونُنا فعدْن وآثرْن العمى شرِقات

وما أروع حافظاً وهو يصوّر فجيعة الشرق كله من أقصاه إلى أقصاه فى فقد الإمام :

بكى الشرق فارتجّت له الأرض رجّة وضاقت عيــون الكون بالعبرات
ففى الهند محزونٌ وفى الصين جازع وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب وفى تونسٍ ما شئتَ من زفرات
بكى عالَمُ الإســلام عالِمَ عصره سراجَ الدياجى هادمَ الشبهــات

ويختم حافظ مرثيته بأبيات يبين فيها فضل الإمام الجليل عليه وعلى كل من اتصل به ، فكلهم مغمور بفضله ، مكنوف بعظيم إحسانه . وفيها يتمثّل الحزن الصادق والاعتراف بالجميل الذى عُرِف به حافظ ، وفيها يتبيّن ما كان عليه الإمام من تقوى وورع وكرم وخير وبرّ :

فيا منزلا فى عين شمس أظلّنى وأرغم حسادى وغمّ عــداتى
دعائمه التقوى وآساسه الهــدى وفيــه الأيادى موضع اللبنات
عليك سلام الله مالك موحشاً عبوس المغانى مقفر العرَصَات ؟
لقد كنتَ مقصود الجوانب آهلا تطوف بك الآمــال مبتّهلات
مثابةَ أرزاق ومهبط حكمــة ومطلعَ أنــوار وكنز عظــات

فهذه القصيدة خالدة قد استمدت خلودها من الراثى والمرثى ، فقد كان حافظ صادقاً فى وفائه وفى حزنه ولوعته ، وكانت حياة الإمام نموذجاً بليغاً للمصلحين المخلصين الذين ينشدون لدينهم العزة والقوة ولوطنهم المجد والعظمة .

وقد استطاع حافظ أن يصور هذه الحياة تصويراً رائعاً وأن يبين الخسارة الفادحة التى أصابت الدين والإصلاح والشرق جميعا .. وقد رثى كثير من الشعراء الإمامَ ، ولكننا لا نظفر من هذه المراثى بمثل ما نظفر به من مرثية حافظ صدقَ شعور وروعة تصوير ، فهى نغمات حزينة متلاحقة ، وكأن كل مقطع فى البيت شهقة مكروب أو أنة مفجوع .

وظل حافظ يبكى أستاذه فى كل مناسبة ويعدد مآثره وأفضاله فى كل فرصة حتى لبى نداء ربه . فكان إذا رثى أحداً بعده انفتل من رثائه إلى بكاء الإمام ، وذكر الفراغ الذى ظل شاغراً بعده لم يستطع أحد أن يملأه .

وبراعة حافظ تظهر فى رثاء الأعلام والعظماء الذين تكون الفجيعة فيهم عامة لا تختص بالجزع عليهم طائفة دون أخرى ، والذين يتركون أثراً خالداً فى حياة أمتهم . فقد رثى أستاذه البارودى فى لفظ رصين جزل يعيد إلينا ديباجة الرثاء القديم ، ولكنه لم يستطع أن يمس النفوس بهذا الحزن اللاذع وهذه اللوعة المحرقة . وعلة ذلك أن موت البارودى لم يكن كارثة شعبية ، أو لعل الناس — على أصح تعبير — لم يروه فى ذلك الحين كذلك ، وإنما كان موته رُزءاً للأدباء بنوع خاص . وليس من شك فى أن حافظاً قد حزن لفقد أستاذه إمام الشعراء حزناً شديداً بسبب ما كان عليه من وفاء منقطع النظير . وقد اتهمه الدكتور طه حسين بأنه قلد فى رثائه قصيدة مسلم بن الوليد المعروفة :

* لا تدع بى الشوق إنى غير معمود *

وأنا لا أنكر أن حافظاً قد اتفق مع مسلم فى البحر والقافية والروى ، ولا أنكر أنه — وهو ينظم رثاءه — كان يستعرض بذاكرته القوية قصيدة الشاعر القديم . ولكنه لم يكن مقلداً بالمعنى الذى يقصده الدكتور طه ، فقد جاءت قصيدته مختلفة اختلافاً بيناً فى معانيها عن قصيدة مسلم ، فضلا عن أنها تعطينا ملامح واضحة للبارودى . وقد استهلها حافظ بقوله :

ردوا علىّ بيانى بعد « محمود » إنى عييتُ وأعيا الشعرُ مجهودى
ما للبلاغة غضبىَ لا تطاوعنى وما لحبل القوافى غير ممدود ؟

ظنَّتْ سكوتىَ صفحـاً عن مودته فأسلمتْنى إلى همٍّ وتسهيـد
ولو دَرَتْ أن هذا الخطب أفحمنى لأطلقتْ من لسانى كل معقود(١)

ثم يمثل لنا الشاعر المرثى تمثيلا يوضح لنا الجوانب اللامعة فى البارودى ، بحيث لو سمعه أى إنسان لعرف شخص المرثى فيقول :

لبيْـك يا مؤنس المـوتى وموحشنا يا فارس الشعر والهيجاء والجود
لبيـك يا شاعراً ضنّ الزمان بـه على النُّهى والقـوافى والأناشيد
لبيك يا خير مَنْ هزّ اليراع ومن هزّ الحسام ومن لبّى ومن نُودى
إن هُدّ رِكنُك منكوباً فقد رفعتْ لك الفضيـلةُ ركناً غير مهدود
كنتَ الوزير وكنتَ المستعان به وكان همُّك همّ القـادة الصيد

ويأخذ حافظ فى تعديد بعض مواقف البارودى المشهورة فى ميادين القتال :

كم وقفة لك والأبطـال طـائرة والحرب تضرب صنديداً بصنديد
تقول للنفس إن جاشت إليك بها هـذا مجالك سودى فيه أو بيدى
نسختَ (يوم كريد) كل مانقلوا فى يوم (ذى قار) عن (هانى بن مسعود)
نظمتَ أعداك فى سلك الفناء به على رَوِىّ ولكن غـير معـهود
كأنهم كَلِمٌ والمـوت قافيـة يرمى به عربىٌّ غيرُ رعـديد

ويمضى حافظ فى القصيدة على هذا المنوال . ولست أشك فى أنه كان محزوناً لفقد أستاذه البارودى ، ولكنه لم يبلغ من الإجادة ما بلغه فى رثاء عظماء الأمة الذين تركوا صيتاً مدويا ، لأنه لم يُثر حزنَ أحد معه من بنى وطنه على البارودى اللهم إلا طائفة الشعراء والأدباء .

وقد اكتسب رثاء حافظ لعظماء الأمة لوناً بارعاً من الخطابة كان له فعل السحر فى نفوس الناس . ولو قرأت مراثيه للزعيم مصطفى كامل لأدركت روعة تصويره لحزن الشعب وأساه ، وذلك ناجم من عمق إحساسه بفداحة الرزء كما صنع مع الإمام محمد عبده ، لأن الأول كان عظيماً من عظماء الدين وعلماً من أعلام النهضة الفكرية ومصلحاً اجتماعياً خطيراً . وكان مصطفى زعيماً سياسياً أيقظ الأمة

---

(١) الديوان ٢ / ١٣٩ .

من سُباتها وملأ نفوسها أملاً ورجاءً . وكان حافظ فى رثائهما ينطق بألسنة الجماهير المحزونة .

وقد رثى حافظ الزعيم مصطفى كامل بثلاث قصائد ، وكل واحدة منها كانت قطعة من نفسه المكروبة التى هزها المصاب . فقد كان صديقاً حميماً لمصطفى كامل برغم صلاته بخصومه السياسيين ، وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعر حافظ ، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرّظه فى جريدة « اللواء » تقريظاً يدل على تقديره له(١) .

وقد ألقى حافظ القصيدة الأولى على قبر الزعيم واستهلها بقوله :

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة   فكبّرْ وهلّلْ والق ضيفك جاثيا(٢)

ولعل جسامة الخطب هى التى دفعته إلى أن يستهلّ القصيدة بهذه المبالغة المسرفة ، وهو يصوّر فداحة المصاب فيقول :

عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى   شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا
أيا قبرُ لو أنا فقدناه وحده   لكان التأسّى من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدْنا كل شىء بفقده   وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا سائلى أين المروءة والوفا   وأين الحجا والرأى ؟ ويحك ها هيا
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صائح   فقد أُسكت الصوت الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعور وساقه   إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا

ويخاطب الفقيد مبيّناً أسى الشعب ولوعته ، ذاكراً فضل الفقيد فى إيقاظ الأمة من رقادها :

عليك ، وإلا ما لذا الحزن شاملاً   وفيك ، وإلا ما لذا الشعب باكيا
وكنّا نياماً حينما كنتَ ساهداً   فأسهدتَنا حزناً وأمسيتَ غافيا
شهيدَ العلا ، لا زال صوتك بيننا   يرنّ كما قد كان بالأمس داويا
يُهيب بنا : هذا بناءٌ أقمتُه   فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا

(١) اللواء بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١ .
(٢) الديوان ٢/١٤٩ .

يصيح بنــا : لا تُشعروا الناس أننى قضيتُ وأن الحىّ قد بــات خاليا
يناشــدنا بالله ألا تفــرّقــوا وكونوا رجالا لا تسرّوا الأعاديا

ويعاهد الفقيد على أننا سنظل أوفياء لمبادئه مقيمين على عهده :

أجــلْ أيها الداعى إلى الخــير إننا على العهد ما دمنا فنمْ أنت هانيا
بناؤك محــفوظ وطيفك مــاثل وصوتك مسموع وإن كنت نائيا

ثم يخاطب مصطفى طالباً إليه أن يرخص لهم فى البكاء لأن الرزء فادح يستأهل الانتحاب ، فهذا مقامه :

عهدناك لا تبكى وتنكر أن يُــرَى أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخّص لنا اليوم البكاء وفى غد ترانا كما تهوى جبــالا رواسيا
فيا نيلُ إن لم تجْرِ بعد وفاتــه دما أحمرًا لا كنت يا نيل جاريا

والقصيدة الثانية أنشدها فى ذكرى الأربعين ، ومطلعها :

نثروا عليك نوادى الأزهــار وأتيتُ أنــثر بينهم أشعارى[1]

وفيها يستعرض حافظ مواقف الفقيد وصلابته فى الحق . ومن أبدع ما فيها أنه يصور جنازة الفقيد تصويراً رائعاً ؛ يصوّر شعب مصر الوفى لزعمائه ومبلغ حزنه على زعيمه وقائد نهضته ، ويقدّم لذلك بأنه قد طاب نفساً لما رأى هذه الجموع الحاشدة تحفّ بنعش الفقيد تنتحب وتسكب الدمع الهتون :

عزّ القــرار علىّ ليــلة نعيــه وشهدتُ موكبــه فقــرّ قــرارى
شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته وعلمتُ منه مراتب الأقــدار
ورأيتُ كيف تفى الشعوب رجالها حقّ الولاء وواجب الإكبــار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشّعٌ يمشون تحت « لوائك » السيار
خطّوا بأدمعهم على وجه الــثرى للحزن أسطاراً على أســطار
آنــاً يوالون الضجيــج كأنهم ركبُ الحجيــج بكعبــة الزوّار
وتخالهم آنــاً لفرط خشوعهم عنــد المصلى ينصتــون لقارى
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ما بــين سيل دافق وشرار

---

(١) الديوان ٢/١٥١ .

أسعى فيأخذنى اللهيب فأنثنى ... فيصدّنى متدفق التيار

وإنى لجدّ مفتون بهذه الأبيات لروعتها وجمال نظمها وحسن تصويرها :

أُدرِجْتَ فى العلَم الذى أصفيتَه ... منك الودادَ فكان خير شعار
علمان من فوق الرءوس كلاهما ... فى طيه سرٌّ من الأسرار
ناداهما داعى الفراق فأمسيا ... يتعانقان على شفير هارى
واهاً على تلك المواقف إنها ... كانت مواقف ليث غاب ضارى
لم يلْوِه عنها الوعيدُ ولا ثنى ... من عزمه قولُ المريب : حذار
فاهنأ بمنزلك الجديد ونم به ... فى غبطة وانعم بخير جوار
واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما ... ضحّيتَ للأوطان من أوطار
نعم الجزاء ونعم ما بُلّغْتَه ... فى منزليك ونعم عقبى الدار

والقصيدة الثالثة أنشدها فى الحفل الذى أقيم عند قبره لإحياء ذكراه الأولى ومطلعها :

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا ... واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم(١)

وفيها يخاطب الفقيد الذى كان جذوة فخبت وحركة دائبة فسكنتْ :

يأيها النائم الهانى بمضجعه ... ليهنك النوم لا همٌّ ولا سقم
باتت تسائلنا فى كل نازلة ... عنك المنابر والقرطاس والقلم
تركتَ فينا فراغا ليس يشغله ... إلا أبىٌّ ذكىّ القلب مضطرم
منفّرُ النوم سبّاقٌ لغايته ... آثاره عممٌ آماله أمم

ويصف عظمة الزعيم وعلوّ قدره وجلاله ، ويهيب بمواطنيه أن يقسموا على الذود عن مبادئه ، وإنه لقسم — لو علموا — عظيم :

إنى أرى وفؤادى ليس يكذبنى ... روحاً يحفّ بها الإكبارُ والعظم
أرى جلالا ، أرى نوراً ، أرى ملكا ... أرى محيّا يحيّينا ويبتسم
الله أكبر ، هذا الوجه أعرفه ... هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غُضّوا العيون وحيّوه تحيته ... من القلوب إذا لم تُسْعد الكلِم

(١) الديوان ٢/١٦٠ .

وأقسموا أن تذودوا عن مبادئه ... فنحن فى موقف يحلو به القسم

ثم يخاطب الزعيم فى حماسة متقدة يستهديه ، ويصور ما يلاقيه المصريون من ظلم الإنجليز وضغطهم :

لبيكَ نحن الألى حركتَ أنفسهم ... لما سكنتَ ولما غالك العدم
جئنا نؤدى حساباً عن مواقفنا ... ونستمدّ ونستعدى ونحتكم
قيل : اسكتوا ، فسكتنا ثم أنطقنا ... عسفُ الجناة وأعلى صوتنا الألم
قد اتُّهِمنا ولما نطّلبْ جللاً ... إن الضعيف على الحالين متَّهم
إذا سكتنا تناجَوْا ، تلك عادتهم ... وإن نطقنا تنادوا : فتنة عمم
قد مرّ عام بنا والأمر يحزبنا ... آناً وآونة تنتابنا النقم
فالناس فى شدة والدهر فى كَلَبٍ ... والعيش قد حار فيه الحاذق الفَهِم

وأخيرا يحث النشء على أن يسيروا فى الدرب الذى نهجه الفقيد حتى يُتمُّوا ما بدأه :

يا أيها النشء سيروا فى طريقته ... وثابروا ، رَضِيَ الأعداء أو نقِموا
فكلكم (مصطفى) لو سار سيرته ... وكلكم (كامل) لو جازه السأم

وقد رثى حافظ الزعيم الشعبى الكبير « سعد زغلول » بقصيدة رائعة استمدت روعتها من شعبية الفقيد ، فجاءت مرثية قوية تصوّر حزن الشعب الشديد لفقد زعيمه العظيم ، مثل مراثيه فى الإمام محمد عبده والزعيم مصطفى كامل . وهو فى هذه المرثية أطول نفساً منه فى جميع مراثيه الأخرى ، وذلك لأن سعداً ناضل الإنجليز نضالاً عنيفاً واحتمل آلام النفى والاضطهاد وهو شيخ لوت السنون كفّه على العصا كما يقولون ، ومع ذلك لم تلنْ له قناة ولم تفتر له عَزْمة ، وقد هبّت الأمة كلها عن بكرة أبيها تشدّ أزره شيباً وشباناً ، رجالا ونساء ، فكان بحق زعيماً شعبيّاً عظيماً اتجهت إليه النفوس وهى مفعمة بالأمل والرجاء . ولهذا كان حزن الأمة عليه بالغاً . هذا إلى أنه كان يغمر حافظاً بفيض رعايته ، وكان حافظ من خاصة جُلاّسه وسُمّاره . ومن أجل هذا كله جاءت القصيدة آية ناطقة بالوفاء وعمق الإحساس وصدق التصوير .

وفيها يرينا حافظ عظم الخطب ، وكيف ينصبّ فى النفوس انصباباً ، ويناشد الليل أن يجلل الوجود بظلامه :

إيه يا ليل هل شهدتَ المصابا كيف ينصبّ فى النفوس انصبابا
قُدّ يا ليل من سوادك ثوباً للدرارى وللضحى جلبابا
انسج الحالكات منك نقاباً واحْبُ شمس النهار ذاك النقابا(١)

ويدعو جنود سعد أن ينادوه فإذا لم يُجب فليشقّوا عليه الثياب ، لأن فقده كان طامّة كبرى أصابت البلاد :

أى جنودَ الرئيس نادُوا جهاراً فإذا لم يُجب فشقوا الثيابا
إنها النكبة التى كنتُ أخشى إنها الساعة التى كنت آبى
إنها اللفظة التى تنسف الأنفس نسفاً وتَفقرُ الأصلابا
مات(سعد)، لا كنتِ يا(مات سعد) أسهاماً مسمومة أم حرابا
كيف أقصدْتِ كل حىّ على الأرض وأحدثتِ فى الوجود انقلابا

ويخبر أهل فلسطين الذين دهاهم الزلزال فدكّ ديارهم دكّاً أن زلزال مصر أدهى وأعنف لأنه نكبها فى زعيمها الأوحد :

قل لمن بات فى (فلسطين) يبكى إن زلزالنا أجلّ مصابا
قد دُهيتم فى دياركم ودُهينا فى نفوس أبَيْنَ إلا احتسابا
ففقدتم على الحوادث جفْناً وفقدنا المهند القرْضابا
قدَرٌ شاء أن يزلزل مصراً فتغالى فزلزل الألبابا
طاح بالرأس من رجالات مصر وتخطى التُّحوت والأوشابا

ويبين الشاعر كيف شيّعت الأمة زعيمها بين زفرات الحزن والأسى كما صنع فى رثاء الإمام والزعيم مصطفى كامل :

خرجت أمة تشيّع نعشاً قد حوى أمة وبحراً عبابا
حملوه على المدافع لما أعجز الهام حَمله والرقابا
حال لونُ الأصيل والدمع يجرى شفقاً سائلا وصُبحاً مُذابا

---

(١) الديوان ٢/٢١٨ .

وسها النيلُ عن سُراه ذُهولا حين ألفى الجموع تبكى انتحابا
ظنّ يا سعد أن يَرى مهرجاناً فرأى مأتماً وحشداً عُجابا

ويأخذ فى تعديد مواقف الفقيد وسجاياه كعادته فى رثاء عظماء الأمة :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ مال أين اعتزمتَ عنا الذهابا
كيف ننسى مواقفاً لك فينا كنتَ فيها المهيب لا الهيابا
كنت فى ميعة الشباب حساماً زاد صقلا فرندُه حين شابا
عِظَمٌ لو حواه (كسرى أنوشر وان) يوما لضاق عنه إهابا
ومضاءٌ يُريك حد قضاء الله يفرى متنا ويَحْطِم نابا

ويشير حافظ إلى صلابة قناة سعد التى لم تلن تحت وطأة النفى والتشريد والاضطهاد ، وإلى ذكائه ودهائه ويقظته :

لم يُنهنِهْ من عزمك السجنُ والنفـ ىُ وساجلتَها بمصر الضرابا
سائلوا (سيسلا) أأوجس خوفاً وسلوا (طارقا) أرام انسحابا ؟
عزْمةٌ لا يصدّها عن مداها ما يصدّ السيول تغشى الهضابا
كلما أحكموا بأرضك فخاً من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
تقتل الدس بالصراحة قتلا وتُسقّى منُافق القوم صابا
وترى الصدقَ والصراحة ديناً لا يراه المخالفون صوابا
قد بلوناك قاضيا ووزيراً ورئيساً ومِدْرهاً خَلاّبا
فوجدناك من جميع نواحيـ ك عظيما موفقاً غلاّبا
لم ينَلْ حاسدوك منك مُناهم لا ولم يلصقوا بعلياك عابا

وحين نقرأ مرثيته لقاسم أمين نجده إنساناً محزوناً صادق الحزن ، ولكننا لا نحس فيها بالجو الشعبى الذى نحسه فى مراثيه لزعماء الأمة . وذلك لأن قاسماً لم يكن فقده خسارة شعبية مثل الأستاذ الإمام والزعيمين مصطفى كامل وسعد زغلول ، وفيها يقول مشيراً إلى جهاده فى سبيل تحرير المرأة من غير أن يبدى فيه رأيا خاصًّا :

إن رِيْتَ رأياً فى الحجاب ولم تُعصَم ، فتلك مراتب الرسل

الحـكم للأيـام مرجعـه فيما رأيتَ فنم ولا تسـل
وكـذا طهـاة الرأى تـتركه للـدهر يُنضجـه على مهـل
فإذا أصبتَ فأنت خـير فـتى وضـع الدواءَ مواضـع العلل
أولا ، فحسبك مـا شرفْتَ بـه وتركتَ فى دنيـاك من عمـل

ولا نلحظ فى القصيدة فاجعة شعبية عامة تأسى لها نفوس المصريين جميعاً ، لأن حافظاً لم يجد فى فقد قاسم خسارة عامة ولذلك نراه لا يخرج فى رثائه هذا عن تعديد شمائل الفقيد وإقفار الديار منه :

واهاً على دار مررتُ بهـا قفراً وكانت ملتقى السبل
أرخصْتُ فيهـا كل غالية وذكرتُ فيهـا وقفة الطلل
ساءلتها عن (قاسم) فأبتْ ردَّ الجـواب فرحتُ فى خبل

ويخرج من ذلك إلى مخاطبة قاسم قائلا :

قل للإمام إذا التقيتَ بـه فى الجنتين بأكرم النُّـزُل
إن الحقيقة أصبحت هدفاً للراكبين مراكب الزلل
لله آثـارٌ لكم خـلدَتْ صاح الزوال بها فلم تَزُل
لله أيـامٌ لكم درجتْ طالت عوارفها ولم تطُـل
نعم الظـلال لو انهـا بقيتْ أو أن ظلاً غـيرُ منتقل

ولم يترك حافظ صديقاً أو زعيماً يمضى إلا وفّاه حقه من الرثاء ، يسوقه إلى ذلك وفاء نادر وكمد يطوّق النفس من جميع جوانبها . وكان وفاؤه يدفعه إلى أن يمتدح المرثى ، غير مبال برأى الناس فيه . فقد رثى الدكتور (شبلى شميل) وسرد شمائله الكريمة برغم أن كثيرا من الناس قد أنكروا منه ذلك، لأنهم كانوا يغتمزون فيه التواء العقيدة ورقة الدين ، ويشير حافظ إلى ذلك فيقول :

إيه شبلى قد أكثر الناس فيـك الـ قـول حتى تفننـوا فى عتـابى
قيل : ترثى ذاك الـذى ينكر النـو ر ولا يهتدى بهدى الكتـاب
قلت : كفّـوا فإنما قمتُ أرثى منه خلاً أمسى طويل الغيـاب
أنا والله لا أحابيـه فى القـو ل فقد كان صاحبى لا يحـابى

أنا أرثى شمائلا منـه عـندى كنّ أحلى من الشّهاد المـذاب(١)

وحافظ فى كل موقف من مواقفه الرثائية يذيب نفسه — كما رأيت — حسرة على المصاب ويندب حظه فى ألا ّفه وحظ الأمة فى رجالاتّها وحظ الشرق فى زعمائه وحظ الدين فى حُماته . وكثيراً ما يجعل مرثيته سجلاً لما كان بينه وبين المرثى من ألفة ومودة وما كان بينهما من مجالس أنس وسرور « يشتاقها هرون أو جعفر » ، وما كان يدور فى المجالس من طُرف وفكاهات « عن غيرهم فى الحسن لا تصدر » :

فكم لنا من مجلس طيب يشتاقه هارون أو جعفر
نلعب باللفظ كما نشتّهى ونُضمر المعـنى فما يَظهر
ونرسـل النكتـة محبـوكة عن غيرنا فى الحسن لا تصدر
ثم انطوى هذا وهـذا وما يُطوَى من الأيام لا يُنشر(٢)

ولست أشك فى أن حافظاً كان صادق الحزن فى رثائه للأشخاص الذين عرفهم ولمس مآثرهم وجمعته بهم أواصر من المحبة الخالصة والصداقة والألفة . ولكن هذا الحزن يتفاوت قوة وضعفا بحسب منزلة المرثى من نفسه أو من نفوس مواطنيه .

ولست أوافق الدكتور طه حسين فى « أن شعره فى رثاء الأباظيين متكلّف لا يدل على حزن صادق ولا على لوعة ، وإنما دُفع إليه بواجب المجاملة »(٣) . فإنك لو قرأت رثاءه فيهم لأحسستَ أنه صادر من قلب محزون ينبض بالوفاء . وذلك لأنه قد نشأ بين الشاعر وبين أسرة الأباظيين جميعا صداقة قوية كانت تزداد مع الأيام رسوخاً « حتى امتنعت الكلفة وأصبح يحسب نفسه واحداً منهم ولا يحسّ فى بيوتهم بوحشة الاغتراب» كما يقول المرحوم الأستاذ دسوقى أباظة(٤).

---

(١) الديوان ٢/١٨١ .
(٢) الديوان ٢/٢١٦ .
(٣) حافظ وشوقى ص ١٦٧ .
(٤) مجلة أبولو ص ١٣٤١ (يوليه سنة ١٩٣٣) .

ولهذا لم يكد يقضى واحدٌ منهم حتى يدفع الوفاءُ حافظاً إلى رثائه في صدق وإخلاص . واقرأ له مثلا قوله من قصيدة يرثى بها عميد الأسرة المرحوم سليمان أباظة تجد فيها شيئاً من المبالغة التى لم تخلُ منها مرثية فى الشعر العربى :

أنّى حللتُ أرى عليك مآتما فلمن أوجّهه فيك حسن عزائى ؟
لبنيك ، أم لذويك ، أم للكون، أم للدهر ، أم لجماعة الجوزاء ؟
لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ما حُمِّلتْ من منّة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للروضة الفيحاء[1]

ومثل ذلك قوله أيضا فى رثائه :

رحم الله منه لفظاً شهيّاً كان أحلى من ردّ كيد الأعادى
رحم الله منه شهماً وفيّاً كان ملء العيون فى كل نادى
بتّ فى حُلّة النعيم وبتنا فى ثياب من الأسى والسهاد
وسكنتَ القصور فى بيت خلد وسكنا عليك بيتَ الحداد[2]

ونحن لا ننكر أن هذا الشعر وأمثاله لم يكتمل له نضجه الفنى ، لأنه قاله فى فجر شبابه . والذى يهمنا منه أنه تعبير صادق عما كان يحسّ به حافظ من حرقة الحزن لفقد أحبابه من الأباظيين .

ويشبه الدكتور طه مراثيه للأباظيين بمرثيته للملكة « فكتوريا » ، ولكنى لا أرى هذا الرأى ، لأن حافظاً كان وفيّاً لأصدقائه الذين اتصل بهم من الزعماء وغيرهم. ولم تكن الملكة فكتوريا صديقة له . وأخْلِقْ بهذا الشعر الذى قاله فيها أن يكون شعراً سياسيّاً . ولعل حافظاً كان يبغى من وراء ذلك أمراً ما ، كما سمعتُ من بعض مَن كانوا على صلة به .

والقارئ لمراثى حافظ يلمح فيها ظاهرة واضحة ؛ وهى أنه كان يصوغها فى الغالب من الأبحر الطويلة ذات التفاعيل المديدة لتوائم مواقف الحزن وتناسب وقار الرثاء . وقد ساعده على التزام ذلك أنه كان يلقى قصائده بنفسه ، فكان

---

(١) الديوان ص ١٣٥/٢ .
(٢) الديوان ١٣٧/٢ .

يحس بجمال هذه البحور الطويلة فى مثل ذلك المقام ، ويدرك مناسبة موسيقاها ورحابة مقاطعها .

وبعد ، فهذا هو رثاء حافظ ، ولعله بلغ فيه من نفوسنا ما يريد ، ولعل أحداً من الشعراء الذين رثوه لم يبلغوا فى رثائه ما بلغه فى رثاء أئمة مصر وزعمائها ورجالاتها .

ولم يستطع شوقى أن يبلغ فى رثائه ما بلغه حافظ ، لأنه كان على نقيضه فى طباعه وفى حياته . فقد كان ذا شخصية غامضة يعجز المرء عن الوصول إلى قرارها . ولم يصادف فى حياته شيئاً من شظف العيش والإقتار . وقد ارتبطت حياته بالقصر ، فاضطر إلى أن يرسُم لنفسه طريقاً خاصًّا لا يجرّ عليه سخط صاحبه . ولهذا قلما كان فى رثائه مكان للبكاء أو استثارة للحزن . فهو لا يذوب أسى وحسرة على الراحلين ، ولا يتحدث عن نفسه فى معرض الحزن والبُرَحاء كما كان يفعل حافظ . ولكنه كان يجعل من المرثى وسيلة للتحدث فى الحياة وفلسفتها وتفاهتها ونهاية الدنيا ، ويتخذ من ملابسات المرثى وظروفه ميداناً للإفاضة فى الأحداث الإنسانية العامة واستخلاص العبر منها . وقلما نحس فى مراثيه باللوعة إلا فى أحوال قليلة كرثائه لأمه ولمصطفى كامل وعمر لطفى وأمين الرافعى ، لأن هؤلاء كانت تربطه بهم وشائج من القرابة أو التعلق الشديد أو التجاوب الفكرى .

وهذا يفسر لنا ما كان يصطنعه شوقى فى مراثيه من الحكم العامة البالغة التى يستخلصها من عبرة الفناء والموت والحياة، لكى يستعيض بها عما كان يشعر به من فتور العاطفة وضعف الإحساس . ولكن عبقرية شوقى كانت تضفى على مراثيه كثيراً من الجلال يعوضها ما تفقده من صدق الشعور .

وكثير من مراثى شوقى صيغت فى أبحر قصيرة لا تليق بوقار الحزن ومواقف الرثاء ، وإنما هى أليق ما تكون بمواقف الرقص والمرح ، وذلك لأنه كان فى قفصه الذهبى ، يحيا حياة ناعمة بعيدة عن أجواء الحزن والألم .

٥
معارض التاريخ

كانت ثقافة حافظ التاريخية غير فسيحة ، ولذلك نراه لا يُعنى كثيراً بالتاريخ وحوادثه والتعليق عليها . وكل ما كان يصنعه أنه كان يشير إلى بعض الأحداث والأعلام إشارة عابرة .

وكان حافظ بطبيعته قلما يميل إلى الالتفات إلى الماضى ، وإذا التفت إليه لا يعدو الماضى القريب . فهو يسبح فى التاريخ ولكنه لا يحلّق ، وذلك لأنه كان يتناول مادة شعره مما يجرى حوله أو يقع تحت حسه .

وإذا قلبنا النظر فى شعر حافظ نلتمس فيه أثر التاريخ المصرى القديم لا نجد له إلا قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » التى أنشدها فى الحفل الذى أقيم بفندق (الكونتننتال) لتكريم المرحوم عدلى يكن بعد عودته من أوربا قاطعاً المفاوضة مع الإنجليز ومستقيلا من الوزارة فى ديسمبر سنة ١٩٢١ .

وهذه القصيدة من روائع شعر حافظ ، وقد غنت السيدة أم كلثوم أبياتاً منها، وهو يستهلها استهلالاً رائعاً فيقول :

وقف الخلق ينظـرون جميعاً ... كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبُنـاة الأهرام فى سالف الدهـ ... ـر كفَوْنى الكلام عند التحدى
أنا تاج العـلاء فى مفرق الشـ ... ـرق ودُرّاته فرائـدُ عقـدى
أى شىء فى الغـرب قد بهر النا ... س جمالا ولم يكن منه عندى
فترابى تـبرٌ ونهـرى فـراتٌ ... وسمائى مصقـولة كالفـرند[1]

ويمضى حافظ على هذا المنوال من الفخر ، حتى إذا حلّق فى الأفق

---

(١) الديوان ٢/٨٩ .

التاريخى كان تحليقه خاطفاً عجلا يدل على روح خطيب لا على روح شاعر ينفذ إلى أغوار المعانى . . يقول :

قل لمن أنكروا مفاخر قومى مثل ما أنكروا مآثر وُلدى
هل وقفتم بقمة الهرم الأكـ بر يوما فريتُم بعض جهدى؟
هل رأيتم تلك النقوش اللواتى أعجزتْ طوق صنعة المتحدّى ؟
حال لونُ النهار من قدم العهـ ـد وما مسّ لونها طولُ عهد
هل فهمتم أسرارَ ما كان عندى من علوم مخبوءة طىّ بَرْدى ؟
ذاك فنّ التحنيط قد غلب الدهـ ـرَ وأبلى البلى وأعجز ندّى
قد عقدْتُ العهود من عهد فرْعَوْ ن ففى (مصر) كان أول عقد
إن مجدى فى الأوليات عريق مَنْ له مثل أولياتى ومجدى ؟
أنا أمّ التشريع قد أخذ الرو مانُ عنى الأصول فى كل حدّ
ورصدْتُ النجوم منذ أضاءت فى سماء الدجى فأحكمتُ رصْدى
وشدا (بنتئور) فوق ربوعى قبل عهد اليونان أو عهد نجد
وقديماً بنى الأساطيلَ قومى ففرقْنَ البحار يحملنَ بندى
قبل أسطول (نلسنَ) كان أسطو لى سريًّا وطالعى غيرَ نكد

ثم نرى حافظا ينفتل من معارض التاريخ لأنه لا يستطيع أن يقف فيها وقفة المتأمل المتفحص ، وينحو نحواً آخر ، هو تبصيرُ مواطنيه بمناهل القوة والعلا ليردوها فيقول :

قد وعدْتُ العلا بكل أبىّ من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
أمهروها بالروح فهى عروس تَشْنأ المهر من عُروض ونقد
وردُوا بى مناهل العزّ حتى يخطبَ النجمُ فى المجرة وُدّى
وارفعوا دولتى على العلم والأخـ ـلاق فالعلم وحده ليس يُجدى
وتواصوْا بالصبر فالصبر إن فا رق قوماً فما له من مسدّ

والقصيدة كلها جزلة رائعة الديباجة محكمة النسج كما ترى . وقد وفّر لها حافظ كل العناصر التى تجعلها أخاذة صالحة للإلقاء فى المحافل . فهى خطبة

منظومة تستهوى الجماهير وتخلب أسماعهم لما فيها من سطوة فى القول وعذوبة فى الموسيقى وبراعة فى الأداء . ولكن الشاعر لم يوفق فى أن يرسم لنا فى الأبيات التى يشير فيها إلى قوة مصر العسكرية زمن الفراعنة — صوراً رائعة يستمد ألوانها وخيالها من الصور التى اختزنتها ذاكرته من حياته فى الجيش .

وهذا هو جهد حافظ الوحيد فى ميدان التاريخ الفرعونى . أما جهده فى ميدان التاريخ الإسلامى فلا نعرف له إلا مطولته المشهورة المعروفة (بالعمرية)[١] . وقد أقيم حفل خاص لإلقائها فى ٨ فبراير سنة ١٩١٨ فى مدرج وزارة المعارف بدرب الجماميز . وهى سرْدٌ مسهب لتاريخ الخليفة عمر بن الخطاب وأعماله ومواقفه ، وتبلغ عدتها ستة وثمانين ومائة بيت . وقد قسمها حافظ إلى أجزاء وضع لكل منها عنواناً ، مثل مقتل عمر ، وإسلام عمر ، وعمر وبيعة أبى بكر ، وعمر وعلى . . . إلخ . وقد استهلها حافظ بالضراعة إلى الله أن يمنحه بيانا يستعين به على قضاء حقوق هذا الخليفة الفذ الذى يعتز به التاريخ الإسلامى أيما اعتزاز :

حَسْبُ القوافى وحسبى حين أُلقيها ... أنى إلى ساحة الفاروق أُهديها
لا همَّ ، هَبْ لى بياناً أستعين به ... على قضاء حقوق نام قاضيها
قد نازعتنىَ نفسى أن أوفيها ... وليس فى طوق مثلى أن يوفيّها
فمُرْ سرىَّ المعانى أن يواتينى ... فيها فإنى ضعيف الحال واهيها

وليس هناك من سبب ظاهر لنظم هذه المطولة ؛ فقد يكون الدافع إليه إعجاب حافظ الشديد بالخليفة العظيم مفخرة الإسلام والمسلمين . وقد تكون القصيدة نفحةً روحية أضفتها عليه صحبته لزعيم الشرق والإسلام الإمام محمد عبده . ويجوز أن يكون حافظ قد أراد أن يضع أمام نابتة الشباب صورة واضحة لهذه الشخصية الإسلامية الجليلة من صميم تاريخهم ، لتكون مثلا لهم يحتذونه ويقتدون به ، وبخاصة بعد ما رآه من التياث حال العالم الإسلامى إبان الحرب العالمية الأولى وفساد أمر الخلافة .

---

(١) الديوان ١ /٧٧ .

وهو يشير إلى ذلك فى ختام القصيدة فيقول :

هــذى مناقبه فى عهــد دولته للشاهدين وللأعقــاب أحكيهــا
فى كل واحــدة منهن نابــلة من الطبــائع تغذُو نفسَ واعيها
لعل فى أمــة الإســلام نابتةً تجــلو لحاضرها مرآة ماضيهــا
حتى ترى بعضَ ما شادت أوائلها من الصروح وما عاناه بانيهــا
وحَسْبها أن ترى ما كان من (عمر) حتى ينبِّه منها عينَ غافيهــا

وما من شك فى أن حافظاً كان ينظر إلى شوقى فيراه يصول ويجول فى ميدان التاريخ الفسيح فيبدع ويجيد ، فأراد أن يجرى فى غباره ، وبخاصة بعد أن نظم شوقى مطولته المشهورة « نهج البردة » ، فنظم « عمريته » ليبين أنه ليس أقل استظهاراً لأمور التاريخ من زميله .

والقصيدة فى مجموعها طيبة الأسلوب دقيقة النظم رصينة العبارة كسابقتها . وهى — فيما أرى — اللفتة الوحيدة التى أرسلها حافظ إلى الماضى البعيد . وقد وُفق فى تجلية شخصية عمر إلى حد كبير .

ويتضح من ذلك أن حافظاً قد تخلف عن شوقى فى ميدان التاريخ تخلفاً كبيراً جداً . فشوقى هو الشاعر العربى الأعظم الذى استعرض التاريخ ، وبخاصة التاريخ المصرى والتاريخ الإسلامى ، فاستجلاه واستخلص منه العبر ، واتخذه وسيلة لاستنهاض الهمم ، وجعله مادة دسمة لشعره ، وهو ينوِّه بقيمة التاريخ فيقول :

غالِ بالتاريخ واجعــل صحفه من كتاب الله فى الإجلال قابا
قلِّبْ الإنجيل وانظر فى الهدى تلق فى التاريخ وزناً وحسابا
واطلب الخلــد ورُمه منزلا تجد الخلد من التاريخ بابا
عاش خلقٌ ومضوْا ما نقصوا رقعة الأرض ولا زادوا الترابا
أخذ التــاريخ مما تركــوا عملا أحسن أو قولا أصابا[1]

وشوقى يعتبر التاريخ أحد مصدرَىْ الشعر فيقول : « والشعر ابن أبوين :

---

(١) الشوقيات : ٢/٥٣ .

التاريخ والطبيعة » [١]. وقد تناول تاريخ الدول وسير عظماء التاريخ فى الشرق والغرب ، وتناول الآثار وأخذ يناجيها ويحاورها .

وكان شوقى يتخذ شخصياته التاريخية من العصاميين لتكون الصورة أروع والعبرة أبلغ ، ومن غير العصاميين لمكانتهم الأثيرة فى التاريخ .

ولست بصدد الحديث عن شوقى ، وحسبى أن أحيلك على ديوانه لتدرك أنه زاخر بألوان شتى من التاريخ . وذلك لأن شوقى كان مؤرخا بطبيعته كما كان شاعرا بسليقته . وله من ألوان التاريخ ما يغوص فى بطون الماضى السحيق ، ومنها ما يتناول حوادث العصر الحديث . ولعل أبرز تاريخياته مطولته المشهورة التى نظمها فى شبابه وافتتح بها الجزء الأول من ديوانه بعنوان « كبار الحوادث فى وادى النيل » ، وقد قالها فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى « جنيف » سنة ١٨٩٤ ، وكان مندوب مصر فيه . وهى قصيدة تدل على سعة الطاقة الفنية وطول النفس إذ تبلغ تسعين ومائتى بيت التزم فيها قافية واحداً وروياً واحدا ، ومطلعها :

همّت الفلك واحتـــواها الماء وحداها بمن تُقِـلّ الرجاء[٢]

وقد عرض فيها شوقى لتاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى تاريخ نظمها . وقد جمعت هذه القصيدة إلى براعة الفن جمال العرض ولباقة الأداء ، يتخلل ذلك الحكمة البالغة المستوحاة من أعماق التاريخ . وهو يعرض أمام ناظريك مواكب التاريخ منتظمة آخذاً بعضها برقاب البعض فى نظام فنى ساحر . وقد وصف المرحوم الدكتور « محمد حسين هيكل » هذه القصيدة وصفاً رائعاً فقال : «رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد على ، وقف فيها الشاعر وقفة مصرى صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ . . . وأنت تراه فى عرضه هذا التاريخ ممتلىء النفس فخرا بمجد مصر حين يرتفع بها المجد إلى عليا ذراه ، آسفاً حزيناً حين تمر بمصر فترات ظلم وذلة ، مستفزاً للهمم ، حافزاً لعزائم أهل جيله والأجيال التى بعده كى

---

(١) من كلمة قدم بها قصيدة « رومه » الشوقيات : ١/٣٠٦ .

(٢) الشوقيات : ١/١ .

يعيدوا مجد الماضى وعظمته . . . »[1]

أما الجانب الإسلامى فقد كان له من قريض شوقى أكبر نصيب . ولعل ألمع إسلامياته قصيدتا « نهج البردة » و « الهمزية » . وفى خلال إقامته بأسبانيا إبان الحرب العالمية الأولى استفزه مجد الإسلام الدائر إلى أن ينظم سلسلة من القصائد فى التاريخ الإسلامى، وقد طبعت بعد وفاته فى كتاب عُرف باسم « دول العرب وعظماء الإسلام » . وقد قدّمها اللغوى العالم المرحوم محمود خاطر بقوله: « هذه درة فى تاج الأدب وغرة فى جبين القريض ، نظم أمير الشعراء عِقدها وصاغ معناها ولفظها ، وهو يعانى ألم النوى ويتجرع غصص النوى إبان الحرب العالمية الكبرى بين ربوع الأندلس التى عمّر الإسلام فيها ثم درس . . . » .

وقد استهل شوقى هذه المجموعة بالكلام على لغة العرب ، وختمها بالكلام على دولة الفاطميين . وقد نظمها من بحر الرجز على غرار المنظومات العلمية كما صنع ابن المعتز فى تاريخ الخليفة المعتضد ، وأبان اللاحقى فى بعض أبواب من الفقه ، فهو يقول مثلا :

الخلفاء الراشــدون أربعــة مرضيــة سنتهم متّبعــه
العُمَــران وابن أروى وعلى فى الذروة الشماء والأوج العلى

بيد أنه أبدع أيما إبداع فى منظومته « صقر قريش » وهى موشحة رائعة نظمها على غرار موشحة ابن سهيل الأندلسى شاعر إشبيلية المعروف . ولعل الجو الذى كان يعيش فيه وهو الأندلس قد ذكّره بهذه العهود الغابرة التى أسس فيها عبد الرحمن الداخل دولة زاهرة فى الأندلس ، فجاءت الموشحة من قرارة نفسه آية فى الروعة والجمال . وقد صوّر فيها شوقى قصة هذا المغامر العربى الجرىء تصويراً بديعاً حقًّا ، وهى قريبة الشبه بأندلسيته المشهورة :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينــا نأسَى لواديك أم تأسى لوادينا

مهما يكن من شىء فإن مجال القول لا يتسع للحديث بإسهاب عن شوقى الشاعر الفنان المؤرخ ، ولكنى أحب أن أقرر أن حافظاً لم يستطع أن ينهض ليحاذى شوقى فى معارض التاريخ ، بل كان فى السفح وزميله فى القمة .

---

(١) انظر مقدمة الدكتور هيكل للجزء الأول من الشوقيات .

٦
الوطنيات

كان الشرق العربى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يتوثّب للنهوض والتحرر من أغلال الاستعمار بعد أن مضت عليه فترة غشيته فيها سُحبٌ من الاستكانة والخمول والتواكل، حتى لقد قال أحد زعماء الشرق : « لقد نزلتْ هذه الأمة منزلة من الخمول هبطت بها إلى مصاف العجماوات حتى خشيتُ أن يخطئها البعث فى يوم البعث(١) » .

وكان لا بد للشعراء أن يحملوا العبء الأكبر فى استنهاض الهمم وإيقاظ الشعوب العربية من غفوتهم التى طال ليلها ، لأن الصحافة فى ذلك الوقت كانت لا تزال غضة العود لا تقوى على النهوض بهذه الرسالة . لذلك قامت فى كل وطن عربى صيحات مدوية تتفاوت قوة وضعفاً ، تفيض بها قرائح الشعراء ، مترجمين عن آلام أممهم وآمالهم ، وباعثين الهمة القعساء والعزم الحديد فى نفوسهم .

وبهذه الروح وجد الشعر العربى باباً جديداً واسعاً يطرقه الشعراء ، فيضيفون إلى أبوابه لوناً جديداً لا عهد للعربية به من قبل وهو الشعر الوطنى .

ولقد تلفتت مصر إلى شعرائها لتحمّلهم هذه الأمانة فلبّوا نداءها سراعاً . وكان فى الرعيل الأول شاعراها الكبيران أحمد شوقى وحافظ إبراهيم .

نعم ، لم يكد هذان الشاعران يبلغان الحُلُم حتى سمعا صوت « جمال الدين الأفغانى » يوقظ المسلمين من غفواتهم ويُهيب بهم أن يحطموا تلك الآصار التى ضُربت عليهم . ثم لم يلبثا أن استمعا إلى صيحة الجهاد والتحرير تستجيب لنداء جمال الدين على لسان الشاب مصطفى كامل حوالى سنة ١٨٩٠ ، وقد رددتها

---

(١) ليالى سطيح ص ١١٤ .

جنبات الوادى ، واستيقظ على صداها ذلك الجيل المستسلم . ثم أصاخ الشاعران إلى صيحات أخر تدوّى فى جنبات البلاد العربية والإسلامية داعية إلى التحرر من ضراوة الاستعمار الأجنبى ، ومن الجهل الجاثم فوق الصدور ، ومن الخوف الذى يثبّط العزائم ويقبض الهمم .

نشأ الشاعران إذن فى زمن كل ما فيه يدعو الفرد إلى أداء ضريبة الوطن الأولى وهى الجهاد . وكان من البديهى أن يُسهم الشاعران فى هذا الجهاد على طريقة تُسقط عنهما عب الجهاد العسير فى السياسة أو فى الجماعات السرية التى تسترخص النفوس فى سبيل استنقاذ الوطن المصرى خاصة والوطن العربى عامة من إسار الرق وأغلال الاستعباد . وكان طريقهما فى هذا الجهاد الشعرَ الذى يستنهض الهمم ويحث على الجهاد ، وهذا الشعر هو الذى يُعرف بالشعر الوطنى أو الشعر القومى .

وكانت هذه البلاد كلها فى ذلك الحين تغلى وتتحرك . وكانت مصر ملجأ كل مضطهد ومهاجَر كل مظلوم ، وكانت تئن تحت نير الغاصب الجبار وتحاول أن تستردّ حريتها المسلوبة .

وقد وجد الشاعران إذن الميدانَ فسيحاً لكى يؤديا لوطنهما ضريبة الجهاد على الطريقة التى قصداها .

والآن أحب أن أبين نصيب شاعرنا حافظ فى هذا الجهاد ، وهل أفلح فى تأدية ضريبته على أكمل وجه أم لا ، وقبل أن أشرع فى تبيان ذلك أود أن أوضح مفهوم الشعر الوطنى :

يعرّف أديب فاضل الشعر الوطنى تعريفاً صادقاً فيقول : « أصل الشعر الوطنى هو الحماسة ، أى أن تكون ثائر النفس ، جياش الفؤاد ، فتصبّ ثورة نفسك فى بيان يتدفق فى قلوب أبناء أمتك فيثيرهم ويثير أحلامهم ويجيّش هممهم ويوقظ نائم أحقادهم ويرفع لهم مُثل الحياة الحرة الشريفة العزيزة ويهزهم هزاً إلى صراع عدوهم وإن خيف بطشه وجبروته ، ويحبب إليهم احتمال الأذى ولقاء

الردى ، والجود بالنفس والمال والولد ونعيم الحياة وراحة الحياة الدنيا » [١]

هذا هو التعريف الحق للشعر الوطنى. والواقع أن حافظا — فيما أعتقد — لم يكن له نصيب يذكر من هذا الشعر. وأظن أنه لم يكن فى طوقه أن يُسهم فى ميدان الجهاد بهذا اللون من الشعر الوطنى . فقد كان رجلا فاتر النفس ، خائر العزيمة، مستغرقاً فى همم صغار لا تنزع به إلى ثورة ولا إلى تحريض على ثورة ؛ وكان — حتى آخر أيامه — جد حريص على أن يكون مكفىّ الرزق بسبب ما لاقاه من بؤس وضيق فى بواكير عمره .

وكان مما قصر بحافظ عن أن يكون شاعراً وطنيًّا بالمعنى الصحيح أنه كان إنساناً مذعور القلب فى غير ذعر، ضعيف القدرة على تحمل المشاق وتكاليف الجهاد ، كثير الشكوى والنقمة على الزمان، شديد الجزع إذا أصابه ضرّ مهما كان هيناً . فقد نشأ فتى يتيماً وعاش صدر حياته عالة على خاله كما ذكرنا، فكان فى إنشاده يكتم أنفاسه حذراً ويجمجم شعوره تقية، وبخاصة بعد أن عاد من السودان طريداً معاقباً .ولم تفارقه تلك الرهبة التى استولت على مشاعره ، فكان شعره يمثل نفساً مقهورة مذعورة مستكينة. وكان إذا جاش بنفسه شعر يخشى أن يؤخذ عليه خاف مغبة ذلك وطواه وأبى نشره. ويذكر لنا أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين أن حافظاً — رحمه الله — أنشده قبيل وفاته قصيدته التى مطلعها :

قد مر عام يا سعاد وعـــام ··· وابن الكنانة فى حماه يُضام

وكانت نحو مائتى بيت يذكر فيها بشاعة حكم إسماعيل صدقى عام ١٩٣٢ فأشار عليه بأن ينشر بعضها أو يكتبها أو يمليها أو يحتفظ بها فقال : « إنى أخاف السجن ولست أحتمله » [١]. وله من أمثال ذلك كثير .

وقد ظهر أن معظم هذا الشعر الذى كان يخشى مغبة إذاعته أهونُ من أن

---

(١) مجلة الكتاب ص ١٥٧٦ (عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧) .

(٢) مقدمة الديوان ص ١٩ .

يخافه إنسان من عامة الناس فضلا عن شاعر مذكور كان يعتبر نفسه فى عداد المجاهدين .

وكان ذعره وخور همته يدفعانه إلى أن يتلمس الطريق التى تقرّبه من المستعمرين الباطشين ، فكان يختار مناسبات يقول فيها شعراً تبرأ منه الوطنية ولا يدل إلا على أن قائله يطلب السلامة لنفسه من غير أن يكون هناك ما يتّهدد حياته أو ما يجب توقّيه . والعجيب فى ذلك أنه كان يعلم — كما كان يعلم غيره — عدم جدوى هذه الزلفى الرخيصة ، وأنه لن يجنى من ورائها قليلا أو كثيرا . ولست أدرى لم كان يكدّ ذهنه فى نظم هذا الشعر التافه .

تموت فكتوريا ملكة بريطانيا — وقد ذاقت بلاده شر أنواع البلاء إبان حكمها — فيرثيها ، مبيناً مناقبها (الغُرّ) ويعزى قومها الذين ساموا بلاده من الخسف والهوان ما شهده حافظ بعينىْ رأسه . ومن المؤلم أن هذا الشعر المسفّ قد نُشر فى يناير سنة ١٩٠١ ولم يقرأه إلا قومه المساكين المغلوبون على أمرهم[1] .

ويخلفها على عرش إنجلترا ابنها إدوارد السابع فينبرى شاعرنا يهنئ ملك المستعمرين الطغاة بقصيدة مطلعها :

لمحتُ من مصر ذاك التــاج والقمرا فقلتُ للشعر هذا يوم من شعرا[2]

وهى قصيدة مليئة بالكلام الغث المرذول ، فيه خنوع وتصاغر أمام المستعمر ، وفيه تثبيط لهمم الشباب وتحطيم لآمالهم فى الجهاد ، وفيه إلى جانب ذلك مدح للإنجليز وإشادة بعظمة دولتهم التى لا يجسر أحد على مناوأتها ، لأن الأقدار تجرى بما تشاء :

من ذا يناويك والأقدار جارية بما تشائين والدنيا لمن قهرا

وما أشقّ على نفس المصرى أن يقرأ شعر « شاعر النيل » فيجده انهياراً مخزياً أمام الإنجليز ؛ فإذا ابتسمتْ لنا إنجلترا سعدنا ودان لنا الدهر ، وإلا فالويل لنا إن كشرت عن أنيابها :

---

(١) اقرأ القصيدة فى الديوان ٢/١٣٦ .

(٢) الديوان ١/١٨ .

إذا ابتسمتِ لنا فالدهر مبتسم وإن كشرتِ لنا عن نابه كشرا

ثم يصف الإنجليز بالعدل الذى مكن لهم فى الأرض :

ماثلّ ربك عرشاً بات يحرسه عدل، ولا مدّ فى سلطان من غدرا

فأى عدل رآه حافظ من الإنجليز ؟ لعله لم ير ما تعانيه الأمم الخاضعة لهم من ضروب الظلم والهوان . ولعله قد رأى فى هذا الظلم رعاية كريمة منهم للبشر حين يقول :

اليوم يلثم تاجُ العز محتشماً رأساً يدبر مُلكاً يكلأ البشرا

وما أعجب أمر حافظ حين يقرن (عدل) إدوارد السابع عند الإنجليز بعدل الفاروق عمر عندنا :

هم يذكرونك إن عدّوا عدولهم ونحن نذكر إن عدّوا لنا عمرا

وقد نشر حافظ هذه القصيدة فى أغسطس سنة ١٩٠٢ ، أى فى وقت لم يكن يشغل فيه وظيفة ما ، يخشى أن يصاب فيها ؛ فقد ترك وظيفته العسكرية سنة ١٩٠٠ وعين فى دار الكتب سنة ١٩١١ .

وتحدث حادثة دنشواى فى ١٣ يونية سنة ١٩٠٦ فيهتز لها ضمير العالم كله جزعاً ، وتغلى نفوس المصريين حقداً على الإنجليز ، ويدوّى صوتُ الزعيم الشاب مصطفى كامل فى الخافقين كالرعد القاصف منددّاً بوحشية الإنجليز ، فينبرى حافظ الشاعر (الوطنى) — وهو فى فورة العزم وحُمَيّا الشباب — أخذاً بنصيبه مع الخانقين ، وينظم قصيدة كلها لين وعتاب رقيق ، وتحس فيها بأن الشاعر يقف من القساة المحتلين موقف الذلة والاستجداء ، مذكراً إياهم (بولاء المصريين) لهم :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا[1]

ويرجوهم أن يحسنوا القتل إذا ضنوا بالعفو :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردتمُ أم كيادا ؟

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتمُ أم جمادا ؟

---

(١) الديوان ٢ / ٢٠ .

وقد بلغ من تطامنه أن وجّه اللوم إلى مواطنيه الذين اتُّهموا ظلمـًا فى هذه الحادثة وقُتل منهم من قتل وعُذبَ منهم من عُذب من غير ذنب أو جريرة مع أن الحق كان ينطق ببراءتهم :

جاء جُهّالنا بأمر وجئتم — ضِعف ضعفيه قسوة واشتدادا
كيف يحلو من القــوىّ التشفى — من ضعيف ألقى إليه القيــادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم — إنمــا يُكرم الجواد الجوادا
أمة النيــل أكبرتْ أن تعادى — من رماها وأشفقتْ أن تعادَى

فمن هم (جهالنا) الذين يشير إليهم حافظ ؟ إنهم مواطنوه البرآء من تهم الإنجليز ومن تهم حافظ نفسه . وماذا يعنى حافظ بقوله : « من ضعيف ألقى إليه القيادا » ؟ فهل ارتضينا أن نسلم قيادنا إلى المستعمرين ؟ إن حافظاً يعلم أننا غُلبنا على أمرنا فسلبونا استقلالنا على الرغم منا وقبضوا على أزمّة أمورنا .

والقصيدة كلها من هذا الطراز الغث الذى لا يبعث فى النفوس ثورة ضد مظالم المستعمرين .

ومن الذى يقول هذا الشعر ؟ إنه ضابط بالجيش ، كان أولى به أن تمتلىء نفسه بفورة التضحية والفداء . إنه علَم من أعلام الشعراء الذين يُنتظر منهم التوجيه السليم والقدوة الحسنة . إنه حافظ إبراهيم الذى لم يكن صاحب ذرية ضعاف يخشى عليهم البؤس والتشريد . ومن غريب الأمر أن أستاذه البارودى يقرّظ الجزء الأول من ديوان تلميذه فيصفه بالشجاعة والإقدام قائلا :

لا زال يبلغ شأو كل فضيلة — بمضاء صمصام وصولة بازى

يلوم اللائمون شوقى لأنه لم يعرض لهذه الحادثة إلا بعد مرور سنة . وهو — فى نظرى — قد سلك مسلكاً أكرم من مسلك حافظ ، لأنه لاذ بالصمت حتى تحين فرصة للقول ، وقد صدق النبى الكريم حين قال : «رحم الله امرأ قال خيراً فغنم أو سكت فسلم » .

كان هذا شأن حافظ مع الإنجليز ؛ العتاب الرقيق الذى يوجهه صديق لصديق لم يأت فى حق الصداقة أمراً إدًّا . فى حين أنه قسا قسوة مريرة على

(المدعى العمومى) المصرى وتهكم عليه تهكماً لاذعاً :

أيهـــا المدعى العمـــومى مهلا   بعضَ هذا فقد بلغْتَ المرادا
قد ضمنّا لك القضاء بمصر   وضمنّا لنجلك الإسعادا
إيه يا مدره القضاء ويا من   ساد فى غفلة الزمان وشادا
أنت جلادنا فلا تنس أنا   قد لبسْنا على يديك الحدادا

وكان المستعمرون الطغاة أولى بهذه السهام لأنهم أسّ البلاء ، فهم الذين أفسدوا الضمائر والنفوس وبثوا فيها روح الملق والإسفاف .

وأدهى من ذلك أن شاعر النيل ينظم قصيدة يستقبل بها (كرومر) عاهل الاحتلال عند عودته من مصيفه بعد حادثة (دنشواى) . ويستفتحها بتحية اللورد ، ويعاتبه عتاباً يسيل رقة :

قصرَ الدبارة هل أتاك حـــديثنا   فالشرق ريع له وضجّ المغرب[1]
أهـــلا بساكنك الكريم ومرحبـــاً   بعـــد التحيـــة إننى أتعتب

ومن المؤلم أن يذكر أن اللورد هو الذى علمنا الحياة فيقول :

علّمتَنا معنى الحيـــاة فمـــا لنـــا   لا نشرئبّ لهـــا ومالك تغضب

نعم ، لقد علمنا (كرومر) الحياة ، ولكنها حياة الخنوع والذلة والاستسلام ، هذه الحياة المتطامنة التى جُبلت عليها نفس حافظ . أنا على يقين من أن حافظاً كان يؤمن فى قرارة نفسه بأن الإنجليز قد (علمونا) الجهل والانقسام والتهافت على الدنايا ، حتى ذهبت ريحنا وأصبح كبراؤنا وأولو الأمر فينا براذع لكرومر وأعوانه من ذوى الوجوه الحمر .

ويتوسل حافظ فى ذلة وانكسار إلى (اللورد) أن يرفق بنا وأن يذكر ولاءنا لهم ، فلعل هذا الولاء يشفع لنا عنده فى حسن المعاملة :

رفقـــاً عميـــد الدولتين بأمـــة   ضاق الرجاء بهـــا وضاق المذهب
رفقـــاً عميـــد الدولتين بأمـــة   ليست بغـــير ولائها تتعـــذب
كن كيف شئتَ ولا تكلْ أرواحنا   للمستشار فإن عدلك أخصب

---

(١) الديوان ٢/٢٢ .

فاجعـــل شعارك رحمـــة ومودة إن القلوب مع المودة تُكسب

يا لها (من نصائح غالية) يزجيها هذا الشاعر الوطنى إلى عميد الاحتلال الطاغية (صاحب العدل الأخصب) الذى لم تسلم من بوائقه زاوية فى أرض مصر .

وليت حافظاً يكتفى بذلك ويمسك لسانه عن القول ، ولكنه يرمى أمته بكل نقيصة ، وكأنه لم ير هدفاً لهجائه إلا مواطنيه المساكين ، فيخاطب (اللورد) قائلا :

وإذا سُئلتَ عن الكنانة قل لهم هى أمـــة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتهـــا ونم عنهـــا تنم فالناس أمثال الحوادث قُلّب

ولست أشك فى أن حافظاً لم يغب عنه أن الإنجليز هم سبب هذا الانحلال وذلك اللهو ، فهم أحق بهجائه من شعب مصر البائس . ولكنه ترك هجاء الأعداء وأخذ يهجو أمته لتكون كلماته عوناً للمستعمر فى تثبيت أقدامه حين تنتشر وتجرى على ألسنة المنافقين وحشوة الأمم ممن نزلوا أرض مصر مع الاحتلال البريطانى . . . وحافظ هو صاحب البيت المشهور الذى يؤذى الآذان من قصيدة نظمها سنة ١٩٠٠ .

إذا شئت أن تلقى السعادة بينهم فلا تك مصرياً ولا تك مسلما[١]

وحافظ هو القائل فى سنة ١٩٠٤ يهجو أمته ويقرعها :

فما أنت يا مصر دار الأريب ولا أنت بالبـــلد الطيب
يقولون : فى النشء خـــير لنا وللنَّشءُ شرٌّ من الأجنبى
(وكم ذا بمصر من المضحكات) كما قال فيهـــا أبو الطيب
أمـــورٌ تمر وعيش يُمـرّ ونحن من اللهو فى ملعب
وشعب يفرّ من الصالحـــات فـــرارَ السليم من الأجرب
وقالوا : دخيـــلٌ عليه العفاء ونعم الدخيل على مذهبى

---

(١) الديوان ٢/١١٤ .

ألفنا الخمــول ويا ليتنـــا ألفنا الخمول ، ولم نكذب[١]

فما الذى يعنيه حافظ بمثل هذا الشعر ؟ إن كان يريد التقريع لاستنهاض الهمة واستثارة الحمية فما أبعده عن الصواب ! إن مثله كمثل المدرس الذى يظل يوبخ تلميذاً مهملا ، ويكثر من توبيخه بحق وبغير حق حتى يتبلد إحساسه ويصبح التوبيخ لا جدوى منه . أو كمثل خطيب المسجد فى القرى فى الزمن الغابر . . . كان جل همه أن يوجه إلى المصلين السباب المر حول عصيانهم لله وتنكبهم جادة الهدى من غير أن يبصرهم بأمر دينهم بطريقة تؤثر فيهم ، فكان الكلام يصل إلى آذانهم دون قلوبهم ولا ينتصحون به أو يتأثرون .

لقد كان الأخلق بحافظ أن يشجع مواطنيه ويستحثهم على استنقاذ وطنهم من ربقة الاحتلال ، مذكراً إياهم بمجدهم الغابر وماضيهم السالف كما كان يصنع زميله شوقى . فالفرق بين الشاعرين أن شوقى يصور لنا من حياتنا ناحية الكبرياء الجريحة ، لأنه كان يشعر بالكرامة الوطنية ويحاول أن يشد العزائم ويحشد الهمم . أما حافظ فهو يصور لنا ناحية الثورة المهزومة والنفوس الخائرة ، وصدق من قال : إن حافظاً نفسه كان أشد على مصر من هذا النشء الذى ذمه ، وإنه ابن هذا الشعب الذى يفر من الصالحات » [٢] .

ولما أقضت صيحات الزعيم مصطفى كامل مضجع الطاغية « كرومر » واضطر إلى الاستقالة سنة ١٩٠٧ بعد حادثة دنشواى ودعه حافظ بقصيدة فيها إطراء لسياسته واعتراف (بفضله على المصريين) بدأها بقوله :

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميـــد وإنه حقيق بتشييع المحبـــين والعـــدا
فودع لنا الطود الذى كان شامخاً وشيع لنا البحر الذى كان مزبدا[٣]

ثم أخذ يعدد (أيادى اللورد البيضاء) ، هذا الذى كان يرى فيه حافظ (ذلك المصلح المتوددا) ، فيخاطبه قائلا :

---

(١) الديوان ١/٢٥٦ .
(٢) مجلة الكتاب ص ١٥٧٢ (أكتوبر سنة ١٩٤٧) .
(٣) الديوان ٢/٢٦ .

سنطرى أياديك التى قد أفضتها علينــا فلسنا أمة تجحد اليــدا
أمنّــا فلم يسلك بنا الخوفُ مسلكاً ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقــدا
وكنتَ رحيم القلب تحمى ضعيفنا وتدفع عنا حادثَ الدهر إن عــدا

فأى شيء يريده الإنجليز أكثر من هذا الكلام فى تبرير الاحتلال وتثبيته ؟

والغريب أن حافظاً يتنصل من إبداء رأيه الصريح فى سياسة هذا الطاغية ، وهو الشاعر الذى كان خليقاً به أن يكون قدوة لمواطنيه فى تأجيج ضرام الثورة ضد المستعمرين وصب اللعنات عليهم . وكان يرى أن الشاعر لا يجوز له أن يدخل فى غمار السياسة ، وحسبه أن يسجل التاريخ ويخلد الأعمال :

ولو كنتُ من أهل السياسة بينهم لسجلت لى رأياً وبلّغتُ مقصــدا
ولكننى فى معرض القــول شــاعر. أضاف إلى التــاريخ مجداً مخلدا

وقد ختم القصيدة بتحية كريمة يزجيها إلى عاهل الاحتلال :

فيأيها الشيخ الجليــل تحية ويأيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليثُ عنك لعلةٍ لقد لبثتْ آثاره فيك شُهّدا

— أما شوقى فقد ودع « كرومر » بقصيدة رائعة كلها سخط على الرجل وتنديدٌ بسياسته وشماتة به وتشهيرٌ بأعمال الإنجليز يقول فيها :

لما رحلتَ عن البــلاد تنهدَتْ فكأنك الداءُ العياء وبيــلا
أنذرْتنــا رقّاً يــدوم وذلــة تبقى وحــالا لا ترى تحــويلا
أحسبتَ أن الله دونــك قــدرة لا يملك التغيــير والتبــديلا
قالوا : جلبتَ لنــا الرفاهة والغــنى جحــدوا الإله وصنعه والنيــلا
فارحــل بإذن الله جل صنيعــه مستعفياً إن شئت أو معــزولا
إنا تمنّينــا على الله المــنى والله كان بنيلهن كفيــلا(١)

ويخيل إلىّ وأنا أقرأ قصيدة حافظ أنه كان يقول وهو يتلفت وراءه خشية أن يعود (اللورد) ويبطش به .

---

(١) الشوقيات : ٢٠٩/١ .

ربما كان حافظ يعتقد أن الملاينة والإطراء يدعوان المحتلين إلى أن يردّوا إلينا بعض حقوقنا . ولكنه كان يعلم كما يعلم سائر المصريين أن الحقوق لا تُردّ إلى ذويها إلا بالجهاد ، سواء أكان هذا الجهاد بالسيف أم بالقلم . ولا شك أن حافظاً قد أدرك أن جهاد مصطفى كامل قد أثمر ثمرته المرجوة بعزل جبار الاحتلال عقب حادثة (دنشواى) المشئومة . ولو سلك معهم سبيل حافظ لما جنت البلاد إلا الفشل والخسار .

ويظن بعض الناس أن حافظاً كان يسلك هذا المسلك أملاً في أن يحقق صالحاً خاصًّا له وقد يكون هذا القول صحيحاً . ولعل أهون ما يقال فى هذا الاتجاه المريب أنه ينم عن ضعف فى المُنّة وخور فى العزيمة .

وقد دافع بعض الأدباء عن موقف حافظ هذا بأنه « لم تتوافر له أسباب الحرية التامة ومقوماتها بالقدر الذى توافر لشوقى . فهو كان يعمل مضطرًّا فى أحيان كثيرة على أن تكون علاقته بذوى النفوذ والسلطان حسنة ما استطاع » (١) .

وهذا الكلام فيه طعن صريح فى وطنية حافظ ، لأنه كان يتخذ مدح الإنجليز الذين أذلوه واستذلوا مواطنيه سلماً للتقرب منهم طمعاً فى صالح ذاتى أو خشية أن يلحقه أذى .

ويستطرد هذا الكاتب فيقول : « وشاعرنا لم يكن على اتصال وثيق بالخديو الذى كان يناصبه (اللورد كرومر) العداء كما كانت الحال مع شوقى . ويأتى أخيراً ذلك الاعتبار الذى ذكره حافظ نفسه فى قصيدته من أنه فى ذلك الموقف ليس من أهل السياسة ولكنه مؤرخ للحقيقة المنصفة البعيدة عن الهوى والغرض » .

وفى هذا القول يشير الكاتب إلى سر الموقف النبيل الذى وقفه شوقى من وداع اللورد . على أن دفاعه عن حافظ قد زاد موقف الشاعر سوءاً . فمثله كمثل الدبة التى رأت ذبابة حطت على وجه صاحبها وهو نائم فقذفتها بحجر حطم رأسه وقضى عليه .

فهل يُساغ من حافظ أن يُعرض عن نقد طاغية الاستعمار (كرومر)

---

(١) انظر كتاب « حافظ إبراهيم الشاعر السياسى » للأستاذ روفائيل مسيحة ص ٧٧ .

لأنه أى (كرومر) يناصب الخديو العداء ؟ لقد كان الأجدر به أن يتخذ من هذه الحال القائمة بين اللورد والخديو ما يشد أزره لمهاجمة عدو الوطن .

ألا رحمك الله يا حافظ ، فهل ران على قلبك ركام من النسيان فنسيت أو تناسيت ما ذاقه المصريون على يد هذا الطاغية الجبار ؟ وهل من التأريخ « للحقيقة المنصفة البعيدة على الهوى والغرض » أن تثنى على من أذاق مواطنيك ألواناً من الظلم والهوان ؟

والواقع أنك تتبين هذا الاتجاه المزرى من حافظ فى كثير من قصائده ؛ فقد استقبل « مكمهون » المعتمد البريطانى الجديد بقصيدة كلها إشادة بعدل الإنجليز ونبل أخلاقهم ، وفيها استجداء مسفّ يكاد يجعل الأنف فى الرغام . ذلك أنه كان من خلق حافظ أن يميل مع من يواليه من العظماء فى أى اتجاه من غير أن يستبين وجه الحق والصواب . فلما أرسلت إنجلترا (السير مكمهون) أول مندوب سام يحكم مصر تحت ظل الحماية لما شب ضرام الحرب العالمية الأولى — استقبله وكيل الجمعية التشريعية فى محطة مصر يوم ٩ من يناير سنة ١٩١٥ مع لفيف من العظماء وكبار رجال الدولة . فلمارآه، يترجل من القطار قال على مسمع من الحاضرين: «إن دلائل الخير بادية على وجهه »[١] ، وكان حافظ محسوباً فى بطانة وكيل الجمعية هذا . فلم تكد تمضى أيام حتى نشر حافظ هذه القصيدة يخاطب بها المندوب الجديد ، وقد بدأها بقوله :

أى (مكمهون) قـدِمتَ بالـ ... قصد الحميـد وبالرعـايه
مـاذا حملتَ لنـا عن المـ ... لك الكبـير وعن (غرايه)
أوضِـحْ لمصر الفـرق ما ... بـين السـيادة والحمايه[٢]

واسمع قوله منها يخاطب الإنجليز :

أنـتم أطبـاء الشـعو ... ب وأنبـل الأقوام غايه
أنّى حللـتم فى البـلا ... د لكم من الإصـلاح آيه

---

(١) صحيفة المقطم ١٩١٥/١/١١ .
(٢) الديوان ٨٢/٢ .

رسخت بنـاية مجـدكم فـوق الروية والهـدايه
وعـدلتم فلـكم الـ ـدنيا وفى العـدل الكفايه
إن تنصروا المستضعفـ ـين فنحن أضعفهم نكايه

فقل لى بالله عليك ؛ ماذا بقى لبريطانى من قول يقوله فى تسويغ الاحتلال وفى تأييد دعواهم العريضة (الإصلاحية) التى يدعونها على كل شعب وقع تحت سنابك استعمارهم الغشوم ؟

أنا على يقين من أن حافظاً كان يعلم حق العلم أنهم ليسوا (أنبل الأقوام غاية) ، وأنهم ليسوا (أطباء الشعوب) كما يقول ، ولكنه رجل تنطوى نفسه على الذعر والاستسلام . ويخيل إليك — وهو يخاطب مكمهون — أنه يخاطب ولى الأمر فى مصر الذى بيده العقد والحل كما يقول أحد المدافعين عنه[1] .

ويمعن حافظ فى اتجاهه هذا إمعاناً مزرياً حتى إنه يدعو السلطان حسين إلى أن يوالى الإنجليز وأن يوادهم وأن يتعاون معهم ، لأنهم يخاصون لنا الود وينصروننا إذا استنصرناهم ؛ يقول من قصيدة يهنئ بها السلطان بالسلطنة سنة ١٩١٥ :

ووال القـوم إنهم كـرام ميامين النقيبة حيث حـلوا
لهم ملك على التاميز أضحت ذراه على المعانى تستهل
وليس كقومهم فى الغرب قوم من الأخلاق قد نهلوا وعـلوا
فإن صادقتهم صـدقوك وداً وليس لهم إذا فتشت مثل
وإن شاورتهم والأمر جـد ظفرت لهم برأى لا يـزل
وإن ناديتهم لبـاك منهم أساطيل وأسياف تسل
فمادد هم حبـال الود وانهض بنا فقيادنا للخير سهل[2]

ومهما قيل من أن الظروف الاستثنائية التى كانت تكتنف مصر آنئذ هى التى دعت حافظاً إلى ألا يقول غير هذا ، فلن تغتفر له الوطنية المصرية مثل

---

(١) حافظ إبراهيم والشاعر السياسى ص ٧٨ .
(٢) الديوان ١/٦٧ .

هذا الشعر الغث . وكان فى استطاعته أن يخلد إلى الصمت ولا تثريب عليه ، فالصمت أزكى وأكرم من شعر يقبض الأفئدة ويُغثى النفوس . .

وكان حافظ داعية يأس وقنوط ، يثبط عزائم المصريين ويقعدهم عن الكفاح ويحطم آمالهم فى النهوض بوطنهم ، ويطفئ فى نفوسهم جذوة الوطنية المتأججة . . . اقرأ قوله لما رأى العلم البريطانى يخفق على مدينة الخرطوم :

دعـــانى وما أرجفـــتما باحـــتماله ‎ ‎ ‎ فإنى بمكر القوم (شِقّ) زمانى[1]
وأكبر ظنى أن يـــوم جـــلائهم ‎ ‎ ‎ ويوم نشور الخلق مقـــترنان
إذا غاضت الأمواه من كل مُزبد ‎ ‎ ‎ وخـــرّت بروج الرجم للحدثان
وعـــاد زمان السمهرىّ وربـــّه ‎ ‎ ‎ وحُـــكّم فى الهيجاء كل يمـــانى
هنـــاك اذكُرا يوم الجلاءِ ونبّهـــا ‎ ‎ ‎ نيـــاماً عليهم ينـــدب الهرمان[2]

وزعم كاتب فرنسى فى سنة ما أن جلاء الإنجليز سيكون فى أكتوبر من نفس السنة ، فعلق حافظ على ذلك بهذين البيتين اللذين يدلان على نفس ممتلئة باليأس :

كم حـــددوا يوم الجـــلاء الذى ‎ ‎ ‎ أصبـــح فى الإبهـــام كالمحشر
وسنّ قـــومُ الطيش من جهلهم ‎ ‎ ‎ كذبةَ (إبريـــل لأكتـــوبر)[3]

فحافظ — كما ترى — يصور لنا ناحية الثورة الهزيمة والنفوس الحائرة . ولم يكن حال شوقى (شاعر السراى) كحال حافظ (شاعر الشعب) . فقصائد شوقى تمور بنفحات الوطنية المتوفزة ، حتى قصائد المديح التى كان يزجيها للخديو ، لا تخلو من ترديد لمجد مصر التليد والتفاؤل بزوال غمامة الذل عنها وإقالة عثرتها ، واستعادة الاستقلال الأثير فى كل القلوب . وكان شوقى يمزج

(١) شق (بكسر الشين) : كاهن عربى قديم اشتهر بمعرفة الغيب ، وكان فى زمن كسرى أنو شروان .
(٢) الديوان ٢/٥ .
(٣) الديوان ٢/١٠٩ .

ذلك بنفحات من روحه العالى ليملأ القلوب ثقة فى المستقبل الباسم ، ويصور ما يجيش فى قلوب أهل عصره من الآمال . أما حافظ فسلكه يدعو إلى العجب . فأنت لا تسمع من « شاعر الشعب » بيتا يحيى فى نفوس المصريين أملاً طالعاً ، أو يدعوهم إلى تضحية أو جهاد . وإذا اضطره الموقف إلى أن يستحث المصريين على المطالبة بحق من حقوقهم رجاهم أن يترفقوا فى الطلب ، كقوله من قصيدة أنشدها فى الحث على تعضيد مشروع الجامعة :

لا تهجعــوا إنهم لن يهجعــوا أبداً وطالبــوهم ولكن أجملوا الطلبا[1]

فالفرق بين الشاعرين — كما ترى — كبير جداً ؛ فشوقى كان يناجى أحلام الماضى وآمال المستقبل ، ويهيب بالهمم أن تستيقظ ويصدح بالعفو عما فات والتأهب لما هو آت . فى حين كان حافظ قابعاً فى ثلة من أصحابه أو قاصداً أبوابَ عظماء زمانه ، يمدح هذا ويحيى ذاك . ومن الغريب أنه مدح شاعر الثورة العرابية (البارودى) عام ١٩٠٠ ورثاه عام ١٩٠٤ ولم يشر إلى موقفه من الثورة ودَوْرِه فيها ، ولم يذكر من مواقفه الحربية إلا يوم (كريد) فى الحرب العثمانية اليونانية .

حقاً إن حافظاً كان يصور الجانب الهزيم المحطوم من مصر . . . ذلك الجانب الذى أرهبه يوم الإسكندرية ويوم التل الكبير ، ورنّق عليه شبحُ الذعر من القوة الغالبة ، حتى كاد — وهو يرتعد فرقاً — يلثم اليد التى تمتد إليه بالسيف.

والحق أن بؤس حافظ قد طبع وطنياته بطابع خاص هو طابع التشاؤم والضعف والقنوط وتحطيم مجاديف الجهاد .

وأحيانا يستبين طريق الرشد ، فيبثّ الأمل فى نفوس المصريين وأهل الشرق ، كقوله من قصيدة أنشدها فى مدرسة مصطفى كامل :

فدينـــاك يا شرق لا تجــزعن إذا اليــوم ولّى فراقب غـــدا
فكم محنـــة أعقبت محنـــة وولّتْ سراعاً كرجع الصدى

---

(١) الديوان ١/٢٧٢ .

فلا يوئسنَّك قيلُ العداة ... وإن كان قيلا كحزِّ المُدى (١)

ويحسن الظن بالنشء فيقول من نفس القصيدة :

فيأيها الناشئون اعملوا ... على خير مصر وكونوا يدا
ستُظهر فيكم ذواتُ الغيوب ... رجالا تكون لمصر الفدا

وينبثق فى نفسه فجر الأمل وتقوى ثقته بالأمة المصرية فيقول مخاطباً سعد زغلول من قصيدة وقد تهيأ لمفاوضة الإنجليز سنة ١٩٢٤ :

فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ... ألا تنام وفى البلاد دخيل
عُزْلٌ ولكن فى الجهاد ضراغم ... لا الجيش يفزعها ولا الأسطول (٢)

ويبث الحماس فى نفوس الشباب ليستعيدوا مجد بلادهم الغابر فيقول من قصيدة يحيّ بها العام الهجرى (عام ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م) :

أهلا بنابتة البلاد ومرحباً ... جددتم العهد الذى قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم ... فلربّ مغلوب هوى ثم ارتقى
فتجشموا للمجد كل عظيمة ... إنى رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصْلَ الشمس حاك خيوطها ... سبباً إلى آماله وتعلقا
عارٌ على ابن النيل سباق الورى ... مهما تقلّب دهره أن يُسبقا (٣)

ويهيم حبًّا بمصر فيقول من قصيدة نظمها سنة ١٩٠٩ بمناسبة محاولة مد امتياز شركة قناة السويس أربعين سنة أخرى :

وما أنا والغرام وشاب رأسى ... وغال شبابىَ الخطب الجُسام
لعمرك ما أرقتُ لغير مصر ... ومالى دونها أمل يُرام (٤)

ويستّهل قافيّته المشهورة بقوله :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى ... فى حب مصر كثيرة العشاق

---

(١) الديوان ١/٢٦١ .
(٢) الديوان ١/١١٠ .
(٣) الديوان ٢/٥٨ .
(٤) الديوان ٢/٥٣ .

إنى لأحمل فى هواك صبابة   يا مصر قد خرجتْ على الأطواق[١]

ونحن لا نجرد حافظاً من الوطنية ، ولا نشك فى أنه كان يحب وطنه حبًّا جمًّا ، وقصائده التى ذكرنا طرفاً منها شاهدة على ذلك ، وكلها تفيض حبًّا للوطن وإشفاقاً على مصيره وأنيناً من وطأة المحتل ، ولكنها قصائد ليس لها نهج مرسوم ولا تتوافر فيها عناصر الشعر الوطنى الحق الذى حددنا سماته آنفاً ، وكانت تقال فى فورة الأمر وعنفوانه فلا تخطئُ هدفها فى وقتها ، إذ تجد النفوس مهيأة لتلقيها ، أما بعد ذلك فلا تثير فى نفوسنا شيئا من الإعجاب الذى أحس به الناس حين سمعوها أو قرأوها فى حينها . فحافظ فى حقيقة الأمر قد أخفق فى فى التهدّى إلى حقيقة الشعر الوطنى الصحيح .ونحن نلاحظ أنه كان يردّد دائماً الآراء والأفكار التى كانت تجرى على ألسنة الناس ، ولم يكن يأتى بشىء جديد أكثر من أن ينظم هذه الآراء وتلك الأفكار شعراً ، وفى ذلك يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات : «فإذا تهيأ (أى حافظ) للشعر أو للنثر عمد إلى الآراء التى تختلج حينئذ فى النفوس وتستفيض فى المجامع وتتردد فى الصحف فيجمعها فى باله ويديرها فى خاطره »[٢] . ومن ثم اشتهر حافظ بأنه شاعر الشعب الذى يعبر عن آلامه وآماله . وإلى هذا يشير المرحوم الأستاذ المازنى فيقول : « وحافظ عندى لسان العصر الذى عاش فيه وصوت الشعب الذى أنجبه »[٣] . وقد نظم حافظ فى جميع المسائل القومية والاجتماعية التى كانت محور أحاديث الناس فى زمنه، مثل اللغة الفصحى ، والسفور والحجاب ، وأزمات المال ، ومضاربات الأغنياء فى سوق القطن ، وأضرار الشركات وغير ذلك . ولكنه كان يسجل هذه الأحاديث ليس غير .

وقد اتخذ حافظ كتاب « ليالى سطيح » ميدانا لينفث فيه حقده على الإنجليز[٤] . وقد أكبر ذلك منه بعض الأدباء واعتبروه نبيًّا من أنبياء الوطنية .

---

(١) الديوان ١/٢٧٩ .

(٢) انظر كتاب (فى أصول الأدب) للزيات ص ١٠٩ .

(٣) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٢٨ .

(٤) انظر « ليالى سطيح » ص ٦٨ وما بعدها .

والواقع أن ما ذكره فى هذا الكتاب لا يعدو أن يكون وصفاً لسوء حالنا فى ذلك الزمن الأغبر ، لا يستنهض همة ، ولا يستثير حماسة ، ولا يترك فى النفوس أثراً أكثر من مصمصة الشفاه رثاءً لهذه الحال . أما الدعوة إلى الجهاد وتحطيم عوامل اليأس من النفوس المريضة فلم يُعنَ به حافظ ، ولعله لم يكن من طبعه أن يُعنَى به .

ومن أشد ما يؤخذ على حافظ تذبذبه وميله حيث تميل الريح ، وذلك فيه خطر شديد ، لأنه يلعب بعقول الناس ويشككهم فى مشاعرهم الوطنية ، وفى مواقفهم من القضايا السياسية الكبرى ... كان حافظ لا يمدح الحاكم لشخصه ، وإنما يمدح الجالس على الكرسى ، حتى إذا سقط من فوقه لا يتورع حافظ عن ذمه وإظهار الشماتة به . وكان تقلبه هذا من الأسس التى قامت عليها دعائم حياته . . . كان يتحول من الأمر إلى نقيضه ، ويجهر بذلك فى غير ما تحرّج ما دام يتوقع أن هذا التحول يسوق إليه مغنماً أو يقربه من ذوى السلطان . وإن كنت فى ريب من هذا فاسمع قصته مع السلطان عبد الحميد خليفة آل عثمان :

كان عبد الحميد حاكماً مستبداً ، وكان يُخمد كل صوت يطالب بالإصلاح ولو برز كالنبأة الخافتة ، بوساطة عيونه الأيقاظ المنبثين فى جميع أطراف الدولة . بيد أن هذا الضغط الشديد جعل الجماعات السرية تخرج من غياباتها وتجهر بمعارضة السلطان الطاغية . وظهر من هذه الجماعات حزب عُرف بحزب (تركيا الفتاة) ، أنشأه ثُلة من الشبان المخلصين للوقوف فى وجه الطاغوت وحمله على إعادة الدستور الذى كان قد ألغاه عقب توليه الخلافة لتتم له مقومات الحكم الاستبدادى المطلق . . . فاضطهدهم السلطان وفرّق جمعهم قِدداً وطرّدهم شر مُطرّد . ولما حلّت ذكرى عيد جلوسه سنة ١٩٠١ هنأه حافظ بقصيدة ملأها بالمدح الكاذب والزلفى الممقوتة ، وقد استهلها بهذه الأبيات :

لمحتُ جلال العيد والقوم هُيّب ... فعلّمنى آىَ العلا كيف تُكتب
ومثّل لى عرش الخلافة خاطرى ... فأرهب قلبى ، والجلالةُ تُرهب
سلوا الفلك الدوار هل لاح كوكب ... على مثل هذا العرش أو راح كوكب

وهل أشرقتْ شمس على مثل ساحة … إلى ذلك البيت «الحميدى» تُنسب (١)

وكان حافظ يعلم أن عبد الحميد من شر سلاطين آل عثمان وأشدهم فسقاً وجوراً ، ولكنه يقول فيه :

تجلّى على عرش الجلال وتاجه … يهشّ وأعـــواد السرير تُرحّب
سما فوقه والشرقُ جـــذلان شيقٌ … لطلعته والغرب خـــذلان يرقب
فقـــام بأمر الله حتى ترعرعتْ … به دوحةُ الإسلام والشركُ مُجدب

ويهاجم حزب (تركيا الفتاة) هجوماً عنيفاً مشيراً إلى قوة الخليفة وسعة سلطانه فيقول :

فِدًى لك يا (عبد الحميد) عصابة … عصَتْ أمر باريها وحزبٌ مذبذب
ملكتَ عليهم كل فج ولجـــة … فليس لهم فى البر والبحـــر مهرب
تَقاذفُهم أيدى الليـــالى كأنهم … بها مثلٌ للناس فى القوم يُضرب
وكم ســألوها لثمَ أذيالك التى … لها فوق أجرام السموات مسحب
فما بلغوا سؤلاً ولا بلغوا مُنًى … كذلك يشقى الخـــائن المتقلب

وتتابعت مدائحه للسلطان عبد الحميد فى كل مناسبة . ولما اضطرته الحوادث إلى أن يُعلن الدستور مرة أخرى سنة ١٩٠٨ عاد حافظ يذكر بالحمد هؤلاء الأحرار ويحيى يوم عودتهم إلى الوطن الذى جنى ثمار جهادهم :

يا يومَ عـــاد النازحـــون لأرضهم … يتسابقون لرؤيـــة الأوطـــان
خلعـــوا الشباب على البشير وأخلقوا … باللثم عهـــد خليفـــة الرحمن
وتعانقوا بعد النـــوى كخمائل … يحلو بهنّ تعانقُ الأغصان (٢)

ويعرّض ببطانة السوء التى كانت توغر صدر السلطان على كل حر أبىّ ، ويشير إلى ما ينتظرهم من حساب عسير :

ولّى زمان المعتـــدين كما انطـــوتْ … حيـــلُ الشيوخ وإمرة الخصْيان
وُضِع الكتابُ وسيق جمعهمُ إلى … يوم الحساب وموقف الإذعان

(١) الديوان ١/١٥ .
(٢) الديوان ١/٤٤ .

قد جاء يومهمُ هنا ، وأمامهم . بعد النشور هناك يومٌ ثانى

ثم دالت دولة عبد الحميد وسقط عن عرشه، فقلب له حافظ ظهر المجنّ ونظم قصيدة بمناسبة خلعه وتولية السلطان محمد الخامس فى مايو سنة ١٩٠٩ مطلعها :

لا رعى الله عهدها من جدود كيف أمسيت يا ابن (عبد المجيد) (١)

وفيها يندد بحكم عبد الحميد ويشير إلى ما كان يأتيه من ضروب الفساد وألوان الظلم :

مشبعَ الحوت من لحوم البرايا ومجيعَ الجنود تحت البنود

يشير بذلك إلى الذين كان يأمر السلطان عبد الحميد بإغراقهم فى مضيق البسفور . ثم يغمزه غمزات تناقض ما قاله فى مديحه إبان سلطانه :

أصحيحٌ ما قيل عنك وحقٌّ ما سمعنا من الرواة الشهود
أن عبد الحميد قد هدم الشر ع وأربى على فعال الوليد ؟
أصحيحٌ بكيتَ لما أتى الوفـ ـد ونابتْك رعشةُ الرعديد ؟
ونسيتَ الآباء والمجد والسؤ دد والعز يا كريم الجدود ؟

وينصرف عن عبد الحميد وعن دولته الزائلة ، ويستقبل السلطان الجديد :

حيّ عهد الرشاد يا شرقُ وابلغْ ما تمنيتَ من زمان بعيد
قد تولى (محمد الخامس) الملـ ـكَ فأعظِمْ بتاجه المعقود
وتجلّى فى مهرجان تجلّى سيفُ (عثمان) فيه بالتقليد
وقف الدهرُ خاشعاً إذ رأى السيـ ـفين فى قبضة العزيز المجيد
طأطئى للجلال يا أمّ الأر ض سجوداً ، هذا مقام السجود
علم الله أن عهد (رشاد) خير فأل بردّ عهد (الرشيد) .

وفى يوليه من السنة نفسها أقيم فى حديقة الأزبكية حفلٌ بمناسبة عيد الدستور وأنشد فيه حافظ قصيدة مطلعها :

---

(١) الديوان ٢/٤٣ .

أجَـــلْ هـــذه أعلامه ومواكبــه هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبه(١)

وفيها يصف هؤلاء الوطنيين الذين كانوا فى نظره (عصاة متمردين) بأنهم أبطال مصلحون وحماة للدستور :

فمن يطلب الدستور بالسوء بعدما حمته يد (الفاروق) فالله طالبه
إذا (شوكتُ) الفاروق قام منـــادياً إلى الحق لباه (نيازى) وصاحبه(٢)
ثلاثة آســـاد يجـــانبهـــا الردى وإن هى لاقاها الردى لا تجانبه
روَتْ قول (بشار) فثارت وأقسمت وقامت إلى (عبد الحميد) تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعّر خدّه مشينا إليه بالسيوف نعاتبه)
رجالٌ من الإيمـــان ملأى نفوسهم وجيش من الأتراك ظمأى قواضبه

ولا ينسى حافظ أن يعرّج على السلطان المنفى (عبد الحميد) فيسلقه بلسان حديد، ويخاطبه خطاب الشامت المحنق، وهو الذى كان بالأمس — فى نظره — الحاكم العادل الذى (ترعرعت به دوحة الإسلام). وكان الأجمل به أن يترك الرجل فى محنته يقاسى مرارة المنفى وآلام الوحشة. ولكن هذا ديدن حافظ الذى عرُف به طول حياته . . . يقول :

يناديه صوت الحق: ذُقْ ما أذقتَهم فكل امرئ رَهنٌ بما هو كاسبه
همُ منحوك اليوم ما أنت مُشْته فرُدَّ لهم بالأمس ما أنت سالبه
ودع عنك ما أمّلتَ إن كنتَ حازماً فلم يبق للآمال فضلٌ تجـــاذبه
مضى عهدُ الاستبداد واندكّ صرحه وولّتْ أفاعيـــه وماتت عقـــاربه

ثم يمدح الجالس على العرش السلطان (رشاد الخامس فيقول) :

يُطيفون بالعرش الـــكريم وربِّهُ تُطيف بهم آلاؤه ومنـــاقبـــه
لتهنئْ أمـــير المـــؤمنين محمـــداً خلافته فالعرش سعدٌ كواكبـــه
ستملك أمواجَ البحـــار سفينهُ كما ملكتْ شمَّ الجبال كتائبه

وظل حافظ يهتبل كل فرصة ليعرّض بالسلطان عبد الحميد ويظهر الشماتة

---

(١) الديوان ٢/٤٨ .

(٢) يريد (شوكت ونيازى وأنور) من أبطال حزب (تركيا الفتاة) ، وكان لهم الفضل الأكبر فى إعادة الدستور .

به وكأنه عدو لدود قديم ، حتى أفل نجم الخلافة العثمانية .

وهذه المواقف المتناقضة التى كان يضطرب فيها حافظ ترجع — فى نظرى — إلى أمرين :

الأول : أنه كان رجلا تغلب عليه طبيعة الخطيب الشعبى ، ولهذا كان يميل إلى مجاراة التيارات القوية التى تسيطر على الجماهير . فهو دائماً أبداً يساير النزعات الشعبية التى تتناقض ولا تستقر على حال .

الثانى : أنه كان رجلا مذعور القلب ، يرى السلامة فى ممالأة ذوى السلطان ، حتى إذا دالت دولتهم انقلب عليهم وشيّعهم بالذم والشماتة واستقبل خلفاءهم بالمديح والإطراء .

وهذا التناقض الصريح يكاد ينفرد به حافظ دون غيره من شعراء عصره . ولم يكن زميله شوقى كذلك مع أنه كان مرتبطاً بسياسة السراى التى كانت تلتمس القربَ من الجالس على عرش الآستانة مهما يكن شأنه . فقد كانت طبيعة المؤرخ تغلب على شوقى ، ولم يكن يبالى بإرضاء الجماهير قدر مبالاته بإرضاء النزعة الفنية فيه ، فنية التاريخ وفنية الشعر . ولهذا كان لا يميل مع هوى الجماهير ، فلا ينقض فى يومه ما قاله فى أمسه . وقد ظل على وفائه للسلطان المخلوع (عبد الحميد) الذى أكرم وفادته واستضافه فى الآستانة ، فشيعه بالقصيدة المشهورة التى مطلعها :

سل (يلدزا) ذات القصور　　　هل جاءها نبأ البـــدور[١]

وهى ناطقة بما كان يكنّه الشاعر لهذا العاهل الطريد من آيات الوفاء والتقدير .

* * *

وبعد فإننا نستطيع أن نقول — فى غير جوْر — إن شعر حافظ الوطنى لم يكن طيباً ، بل كان داعية قنوط واستسلام ، وما اتسم منه بنفحات الوطنية تجده ضئيل الأثر ، إذ لم تتوافر فيه صفات الشعر الوطنى الحق الذى يؤجج نار

---

(١) الشوقيات : ١٣٦/١ .

الحماسة فى النفوس ويدفع إلى الثورة ضد الغاصب الظلوم فى تضحية وفداء .

وما من شك فى أن بؤس حافظ وخوفه قد خلقا منه نفساً مريضة تتوجس الشر من كل شيء ، ولهذا كان يصطنع المداهنة والرياء ويبلغ فى ذلك مدًى تبرأ منه الوطنية والنفس الأبية كما رأيت .

٧
الشكوى

نشأ حافظ نشأة يكتنفها البؤس ويُغَشّيها الشقاء، فقد قضى أبوه وهو ما يزال فى المهد صبيًا ، وشنّت عليه الأيام فى مستهل حياته حرباً شعواء تحدثنا عنها بإسهاب فى الفصول السابقة .

ولما أُقصى عن عمله فى السودان عاد إلى مصر كسير القلب مكلوم الفؤاد ، وأخذ يبحث عن عمل يرتزق منه فلم يوفق . فضاقت الدنيا أمام ناظريه وأخذ يشكو ويندب حظه الأسود فى هذه الدنيا :

سعيتُ إلى أن كدتُ أنتعل الدما وعُـدتُ وما أعقبتُ إلا التندما
سـلام على الدنيا سـلام مودّع رأى فى ظـلام القبر أُنساً ومغنما(١)

ويقول :

لكننى غير مجـدود وما فتئتْ يد المقادير تُقصينى عن الأرب
وقد غـدوتُ وآمـالى مطرّحـة وفى أمورى ما للضب من ذنب(٢)

وأمثال هذا الشعر كثير . وأغلب الظن أن حافظا لم يكن جادًّا فى سعيه ، لأن العمل فى ذلك الحين كان مُيسَّراً لكل من يحمل شهادة ، إذ كان

(١) الديوان ٢/١١٤ .
(٢) الديوان ٢/١١٦ .

حملة الشهادات قلة ضئيلة جداً . ولكن حافظاً كان متواكلاً كسلان ، ينشد عملا طيباً يقبض منه الراتب الضخم دون أن يكلفه شيئاً من الجهد والعناء .

ولم يتصل حافظ بسلطان أو أمير ، وقد حاول أن ينال شيئاً من الحظوة التى نالها شوقى عند الخديو عباس ، فكان يحتفل بمديحه فى المناسبات المختلفة ، ويختار لقصائده من القوافى (كل كاسية تاهت بنضرتها فى ثوبها القشب) ، ولكنه برغم هذا الاحتفال لم يبلغ بقصائده المكانة التى كان يبتغيها . وكان يدافع عن قِصَر نفَسه بأنه شاعر مُقل ، وأن مدح الملوك يجب أن يخلو من الثرثرة . وأحيانا يحب أن يتقرب إلى شوقى فيقول إنه (أى شوقى) لم يترك له قولا يحاوله :

لم يُبق (أحمـــد) من قول أحاوله   فى مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب

وليس من شك فى أن حافظاً كان يشعر بمرارة الحرمان من عطف الخديو وآلائه ، وكانت نفسه تتشوف إلى أن يتيح له شوقى مكاناً ولو ضيقاً لدى صاحب الأمر . وقد انضمّ هذا الحرمان إلى ألوان الشقاء التى عاناها الشاعر فى حياته ، فنجم عن ذلك أن اتشحت نفسه بثوب من الحزن والبرَم بالحياة ، فأكثر من الشكوى ، وأخذ يندب حظه فى هذه الدنيا ، ورانت على نفسه مسحة كثيفة من التشاؤم والضيق وضعف الأمل فى صلاح حال الوطن ، فجاء شعره مثبطا لعزائم الشباب ، مصوّرا لهم مستقبل وطنهم فى لوحة قاتمة الظلال .

وقد سرى هذا الشعور القاتم فى معظم شعره . حتى الظواهر الطبيعية من موج وبحر وجبل وليل ونهار ، يشهدها فلا تثير فى نفسه إلا النواحى الحزينة المظلمة بدل أن تثير فيها الإحساس بالمتعة والجمال .

وهذه النفس الحزينة المتشائمة الساخطة تجيد — من غير شك — تصوير البؤس ومشاركة البائسين . ولم أر شاعراً عربيًّا فى العصر الحديث يحسن وصف مآسى المنكوبين والمكروثين مثل حافظ ، لأنه يصف ما يحسه فى حرارة وصدق .

وقد استمرأ حافظ عادة الشكوى ، فلم يكفّ عنها طوال حياته حتى فى أيام رخائه وصلاح حاله . . .

كان موظفاً بدار الكتب يتناول مرتباً ضخماً يسيل له اللعاب فى ذلك

الحين ، وكان هذا المرتب يحقق له كل رغائبه ؛ فلا يضنّ على نفسه بما تتشهاه ، ولا يضن على إخوانه بثمن ما يطعمون وما يشربون ، ولا يستعمل فى تنقلاته إلا سيارة الأجرة ، ولا يدخن إلا (السيجار) الفخم ، ويولم الوليمة فينفق فيها بضعة جنيهات . . . ومع كل ذلك نراه يشكو البؤس ويكثر من الشكوى ويتلمسها فيما لا يدعو إليها ، بل إنه يطلبها فيما هو خليق بالغبطة والرضا . ويقول الشيخ البشرى عنه : « على أنه ما فتئ طوال حياته يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألف جُنّ جنونه أو ينفقها فى يوم إن استطاع . فإذا استغلقت عليه أحياناً وجوه الإنفاق عدّ هذا أيضا من معاكسة الأقدار »[١] .

وليس لدينا من سبب لهذه الشكوى الدائبة إلا ما يقوله شباب ذلك العصر ممن أصبحوا الآن من كبار المفكرين ؛ فهم يذكرون أن الشكوى كانت بدعة من البدَع التى شاعت فى أوائل هذا القرن ، وأن حافظاً كان حامل لوائها . . . يقول الدكتور طه حسين : «كان البدْع فى أيام صباى تكلُّفَ البؤس وانتحال سوء الحال والافتنان فى شكوى الناس والزمان ، وكان ذلك بدعاً فى العصر الأول من هذا القرن ، وكان حافظ يذيع هذا البدْع ويروّجه »[٢] .

ويخبرنا الشيخ البشرى أن حافظاً كان يتخذ الشكوى من البؤس وسيلة لشحذ قريحته وتجويد صناعته فيقول : « ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته فى باب شكوى الزمان ، وقال فيه ما لم يتعلق بغباره شاعر . فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ويتفقده تفقداً إيثاراً لتجويد الصنعة والتبريز فى صياغة الكلام »[٣] . ثم يذكر الشيخ البشرى بعد ذلك أن الشكوى « كانت دعوة للمرحوم الإمام محمد عبده تحسب أن حافظا يحققها بيده إذا قصرت فى تحقيقها الأيام » . ومعنى ذلك أن كلمة (البؤس) التى كان يرددها حافظ لم يكن يعنى بها مدلولها المادى المفهوم ، وإنما كان يرمز بها إلى أمر معنوى .

---

(١) ذكرى الشاعرين ص ٥١ .

(٢) حافظ وشوقى لطه حسين ص ١٠٩ .

(٣) مجلة أبولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٢٦ .

فلم يكن بؤس حافظ منشؤه الحرمان من المال ، لأن الرجل كان موفور الرزق ، يتناول مرتباً كبيراً ويصيب من أصدقائه الأغنياء كثيراً من العطايا والهبات . ولعله لم يكن مملقاً قبل وظيفة دار الكتب إلى الحد الذى يصوره لنا شعره الشاكى ، بدليل أنه تزوج سنة ١٩٠٦ ، وليس من المعقول أن يبنى بزوجة ويجعل من نفسه رب أسرة وهو لا يكاد يجد قوت يومه كما يظن .

وأنا أعتقد أن حافظاً كان يرى نفسه غير حظيظ فى هذه الدنيا وهو الذكى الأريب — كما كان يعتقد — بالقياس إلى ما ناله شوقى من مكانة ملحوظة فى السراى أفاد من ورائها ثروة ضخمة . وقد حاول حافظ أن يصل إلى ما وصل إليه شوقى فأخفق . وأراد أن يتقرب من خليفة الآستانة فحيل بينه وبين ذلك .

وكان يتطلع إلى عيش أرغد وأرخى مما هو فيه ، ويقول صديقه الأستاذ محفوظ : « أنا لا أعدّ بؤسه إلا بؤساً فى الرغبة والطموح . كان فيه خلق الأدباء المتطلعين إلى الترف والحياة الناعمة التى يزعمون أنها من حقوقهم وحدهم ، لأنهم فقهوا جمال الحياة ونعيمها ، ولأنهم فوق الناس فهماً وإدراكاً ، فهم أحق منهم بكل خير فى هذه الدنيا »(١) .

ولهذا أرجح أن بؤس حافظ كان بؤساً نفسانيًّا روحانيًّا ، ولم يكن بؤس المادة والحاجة ، أى أن بؤسه ينحصر فى آماله المنهارة وقصوره التى بناها فى الخيال ولعبت بها أيدى الرياح الهُوج .

والظاهر أن عادة الشكوى التى لا تنقطع نحيزةٌ نجدها فى الشعراء منذ القدم . فالأحوص الأنصارى وأبو العتاهية ومروان بن أبى حفصة وأبو تمام والبحترى والمتنبى كانوا لا يكفون عن الشكوى ، مع أنهم كانوا أغنياء يملكون الكثير ، ويعيشون عيشة ناعمة رطيبة .

وأيًّا ما كان الأمر فقد أخذ حافظ يذكر البؤس ويردّد الشكوى فى شعره وفى نثره ، وكأنه كان يجد فى ذلك راحة لنفسه ولعقله . وكان لا يترك مناسبة إلا ذكر البؤس والبائسين وما يلقونه من مغالبة الأيام وعنت الدهر . . . يقول

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٨١ .

مخاطباً أستاذه الإمام محمد عبده فى إهدائه إياه كتاب (البؤساء) : « إنك موئل البائس ومرجع اليائس . وهذا الكتاب — أيدك الله — قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين . . . وقد عُنيت بتعريبه لما بين عيشى وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب» . ويفتتح المقدمة بقوله : « هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أُخرج للناس فى هذا العهد ، وضعه بائس وعربه معرّبه وهو بائس ، فجاء الأصل والتعريب كالحسناء وخيالها فى المرآة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو فى منفاه وعرّبه كاتب هذه الأسطر وهو فى بلواه » ، ويبين أن الذى أعانه على تجويد الترجمة اتحاده والمؤلف فى الشقاء فيقول : « ولولا أنى أشرب بالكأس التى كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ علمى إلى مبلغ علمه . ولما سبح يراعى فى قطرة من سيول قلمه . . . ولما حدثتنى النفس بتعريب ذلك الكتاب لولا اتحادنا فى الألم وتشابهنا فى الشقاء » .

ويقول بعضهم إنه كان لحافظ شخصيتان متناقضتان : إحداهما تنطوى على المرح والدعابة حين يتاح لصاحبها أن يلتقى بالناس ، والثانية منطوية على البؤس واليأس حين يخلو الشاعر إلى نفسه . ويستدلون على ذلك بالمداعبات الشعرية التى كان يرسلها إلى أصدقائه من السودان ، وهى مداعبات تنم على المرح وخلو البال ، وتخرج أحياناً عن حد التوقر ، مما يدل على أن صاحبها هانئٌ بحياته فى الظاهر على الأقل ، فى حين أنه كان يعانى إبان ذلك ألوانا شتى من الضيق والبؤس[1] .

ومهما يكن من شىء فقد لوّن البؤس نفس الشاعر بألوان من الأخلاق لا تكاد تفارقه ؛ فكان يُعجب بالبساطة والسذاجة ، ويضيق بالنظام والرسميات ، ويحتفى بمألوف العادات ، ولا يتطلع إلى تقليد الأرستقراطيين . بل كان شعبيًّا فى طبعه وفى حديثه وفى مأكله وفى مشربه وفى نظرته إلى الدنيا . كما كان صافى السريرة نقيها ، حاضر البديهة لماعها .

---

(١) انظر مداعباته لإخوانه بالديوان « الجزء الأول » ، وبخاصة صديقه محمد البابلى .

٨
الفكاهة

لقد وُهب حافظ رغم بؤسه خفة فى الروح وسرعة فى الخاطر وحضوراً فى البديهة . وقد خلق ذلك كله منه رجلا بارعاً فى الفكاهة وصوْغ النادرة . وليس من شك فى أنه كان يتخذ من ذلك وسيلة للتنفيس عن شقائه وحرمانه .

وكان حافظ فى بؤسه صورة صادقة للمصرى الصميم . فإن من أخص صفات المصرى أنه صاحب نكتة يرسلها فى كل وقت وفى كل مناسبة ، وبخاصة فى أحلك أيامه العصيبة ، بل إنه ينتزع نكاته من الخطوب التى تحدق به . وكذلك كان حافظ يتخذ من بؤسه معيناً لفكاهاته ونوادره .

وقد منحت الطبيعة حافظاً قدرة فائقة على إزجاء الفكاهة اللطيفة والنادرة المستملحة ، فراح يضحك من البؤس ومن الشقاء ومن الأوضاع المقلوبة ومن الأحداث ومن كل شىء .

وكان أعجوبة الأعاجيب فى استخلاص النكتة مما يصادفه ، ويقول عنه المرحوم أستاذنا الدكتور أحمد أمين : « كان له ذوق بارع فى اختراع النكتة من كل ما يدور حوله ، فما يسمع حديثاً أو يعرض أمامه شىء حتى يدرك موضع الفكاهة منه فيصوغ ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق صدورهم وقرارات قلوبهم ، فكان فى مجالسه موضع إعجابهم ومنبع سرورهم . يرسل النكتة من بديهة حاضرة فتستخف الوقور وتستهوى الرزين . فهو زينة المجلس وبهجة النادى »[1]. وكان حافظ — إلى جانب ذلك — يحفظ رصيداً ضخماً من مُلح العرب وطُرفهم يشْحذ بها جُلاّسه فيقبلون عليه فى شغف شديد . فلا عجب إذا هَوِيتْه الأفئدة ، ولا غرو إذا غصّت مجالسه بطلاب

---

(١) مقدمة الديوان ص ١٦ .

المتعة والبهجة يلتفون حول رجل « خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة » كما يقول صديقه الشيخ البشري[١].

وكانت سخريته من تصرفات الناس ومفارقاتهم آية فى اللباقة والظرف وحضور البديهة ، والسخرية أرقى أنواع الفكاهة ، كما تحتاج إلى ذكاء وخفاء ومكر كما يقول صديقنا الأديب الدكتور شوقى ضيف[٢] . وللحافظ لفتات ساخرة عجيبة تنتزع الإعجاب والضحك . وحسبى أن أسوق إليك واحدة منها لتدرك مدى مهارته وسرعة خاطره :

يحدثنا صديقه الأستاذ أحمد محفوظ فيقول : « لما نزلتُ دار الكتب حديثاً التحقتُ بالقسم الأدبى فيها . وكان هذا القسم يتولى يومئذ طبع كتاب " أساس البلاغة " للزمخشرى . فجاءنا يوما مدير الدار ومعه ملزمة من المطبعة مهيأة للطبع الأخير ، ومعه حافظ . وكان المدير لا يحسن شيئاً إلا الخط ، فلو تقدم إليه نابليون وإسماعيل سرى المهندس والدكتور حسين هيكل وغيرهم من الأفذاذ المتعالم عنهم قبحُ الخط — أقول لو تقدموا لسعادته طالبين الالتحاق بأعمال الفراشين والسعاة ، لرفض طلبهم لقبح خطوطهم . .

« وجاء سعادته وجمعنا حوله ، وأخذ يقرأ علينا الملزمة المشكولة كلها شكلا كاملا ، إلا الأسماء المعروفة التى لا يخطئ فى قراءتها طفل فى كُتّاب . وكان من سوء حظه ، بل قل من سوء حظى أنا ، أن أول الملزمة كان شعراً ، وأن قائله هو الفرزدق ، وكان الاسم غير مشكول بالطبع . فقال وهو يقرأ علينا ، ويجلس منا مجلس الأستاذ من تلاميذه : قال الفرزدق ، وكسر سعادته الفاء . فلم يستطع غرورى وقلة خبرتى أن يسكتا عن هذا الخطأ الذى لا يخطئ فيه أحد ، فرددت قائلا : الفرزدق بفتح الفاء .

فانبرى شيخ من الذين قال فى شبيههم أبو حيان التوحيدى : " لقد شاخ فى الخدائع وتحنّك " وابتدرنى قائلا : " اخرس دا سعادة البك بيمتحنا " .

(١) ذكرى الشاعرين ص ١٥ .
(٢) الفكاهة فى مصر للدكتور شوقى ضيف ص ١٣ .

فلم يسكت حافظ الساخر ، بل التفت إلى الشيخ وقال : بس يا أستاذ السؤال ده صعب شوية »[١].

فحافظ كان مفطوراً على الفكاهة والسخرية . وأخباره مع أمراء الفكاهة فى زمانه — وبخاصة إمام العبد ومحمد البابلى وعبد العزيز البشرى — معروفة يتفكه بها الناس . ومجالس حافظ فى مقهى (متاتيا) وفى مقاهى (باب الخلق والناصرية) يعرفها كل الناس فى ذلك الحين ، ونحن لا نزال نتملح بها فى أيامنا هذه ، وهى كثيرة لا يحصرها عد[٢] .

وإنى لذاكرٌ لك طرفاً منها على سبيل المثال : يُروَى عنه أنه كان يلبس حلة لا يغيّرها ، فقال له أحد أصدقائه : لماذا لا تغير هذه البذلة ؟ فأجاب على الفور : لأن فيها صفتين من صفات الله : القِدَم والوحدانية .

ومرض أحد أصدقائه وعرف أن عنده المصران الأعور ، وهو عادة فى الجانب الأيمن ، وحدث أن أحس حافظ بألم فى الجانب الأيسر بعد أن انتهى من زيارة صديقه المريض ، فدخل فى وهمه أنه مريض بالمصران الأعور ، فقال له صديق طبيب :« إن المصران الأعور لا يكون إلا فى الجانب الأيمن ، فقال له : يمكن يكون أعور شمال يا أخى » .

وسمع حافظ أن إمام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خلق حافظاً ، فلما التقى إمام بحافظ أسرّ إليه بأنه فى حاجة ملحة إلى مبلغ من المال ذكره له ، فقال حافظ على الفور : « والله يا مولاى كما خلقتنى » .

وأبصره أحدُ أصحاب الصحف الأسبوعية جالساً فى المقهى فأسرع إليه وقال له : إنما كنت أتفقدك لأقترض منك جنيها أنا فى أشد الحاجة إليه ، فضحك حافظ وقال : « عمرك أطول من عمرى » .

وكان شانئوه والمتحاملون عليه يعترفون بخفة ظله وحلاوة حديثه . . . فالأستاذ المازنى — رحمه الله — يقول إبان حملته القاسية عليه : وليس لنا عنده كما توهّم

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٦٦ .

(٢) انظر كتاب الدكتور شوقى ضيف « الفكاهة فى مصر » ص ١٦٧ وما بعدها .

بعضهم ثأرٌ نجزيه به ، فإن الرجل ليس بصديق لنا ولا عدو ، ولسنا نحتقره كما توهم آخرون ، ولكن نحتقر شعره ونزدري مظاهر نفسه ، فإن الرجل ظريف المحاضرة ، مليح النكتة ، عذب المحادثة . ولا عيب فيه إلا أنه يحاول أن يقول شعراً ويعالج ما ليس فى طبعه » [١] . وغير المازنى يشهد لحافظ بالظرف وخفة الروح .

حقًّا كان حافظ بهجة المجالس وزينة المحافل ، لا يحتويه مجلس إلا رأيته يتنزّى تنزياً من ضحك ومن طرب ومن إعجاب . وقد رثاه الأستاذ عباس العقاد على قبره بقصيدة بدأها بقوله :

أبكـاءٌ وحـافظ فى مكـان تلك إحـدى طـوارق الحدثان
كنتَ أنساً فكيف أمسيتَ يا حا فظ تدمى لذكرك العينـان [٢]

بيد أننا نلاحظ أن شعر حافظ قد خلا أو كاد من الفكاهة التى عُرف بها فى المجالس والسوامر ، ولا نجد لهذه الروح أثراً فى شعره إلا أثارات قليلة جدًّا أشبه بالدعابة الخفيفة منها بالنكتة والفكاهة . وسر ذلك — فيما أرى — أمران :

الأول : أنه كان يعتبر الشعر ضرباً من الفن الرفيع يجلّ عن أن تشوبه هذه الفكاهات ، أو بعبارة أخرى كان يعدّ الشعر ضرباً من الأدب الأرستقراطى لا يصح أن تدنسه هذه النوادر الشعبية .

الثانى : أنه كان ينطوى على حزن دفين بسبب ما عاناه من تنكر الأيام له . ويقول الأستاذ أحمد أمين : « إن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة لمظهر الخارجى . كان مظهره الخارجى ضحوكاً مرحاً ، لا يراه الرائى حتى يضحك من ضحكه ، ولا يكون فى مجلس حتى يملأه سروراً وضحكاً ، ولكنه فى أعماق نفسه حزين ، كالشمعة تضىء وهى تحترق ، أو كالممثل يجيد تمثيل دور الضاحك وهو فى نفسه يذوب حسرات » [٣] .

---

(١) شعر حافظ للمازنى ص ١٧ .
(٢) ذكرى الشاعرين ص ٢٠٣ .
(٣) مقدمة الديوان ص ٣٨ .

فحافظ كان يستعين بالدعابة — كنوع من السخرية بالحياة — لتخفيف حدة الشعور بالبؤس والحزن . فهو يتهكم بالدنيا ويصوغ ذلك فى قالب من الفكاهة التى تحمل أقسى معانى الألم كما عرفنا من تندره على حلته القديمة .

ويقول بعض الأدباء إن بؤس حافظ فى نفسه قد طفح كيله فتحوّل إلى نقيضه ،وقديماً قالوا : إذا زاد الشيء عن حده انقلب إلى ضده . وهذا رأى له وجاهته .

والواقع أن حافظاً كان يجمع بين النقيضين : الحزن والمرح ، فالحزن « قد رسب فى نفسه أيام يُتمه ، وأيام فشله فى المحاماة ، وأيام خدمة الجيش ، وأيام تعطله ورزقه القلق الذى كان لا يعرف مورداً ثابتاً . وأما مرحه فقد كان ينبع من طبيعة نفسه ، ومن فلسفة اعتقدها كانت تستقى من سخريته بالحياة وبالناس »[١] .

على أن أشعاره التى تسرى فيها روح الدعابة لا تكاد تعدو بضع مقطوعات قليلة تُعدّ على أصابع اليد الواحدة ، مثل قصيدته التى قالها فى الدكتور محجوب ثابت رحمه الله . وكان الدكتور — كما يقولون — تطمح نفسه إلى أمرين : وزارة يتولاها ، وفتاة جميلة عريقة غنية يتزوجها . . . يقول حافظ فى مطلعها :

يرغى ويزبد بالقـــافات تحسبها ... قصف المدافع فى أفق البساتين
من كل قاف كان الله صورها ... من مارج النار تصوير الشياطين[٢]

وفيها يصور أحلام الدكتور :

يبيت ينسج أحـــلاما مذهَّبـــة ... تغنى تفاسيرها عن (ابن سيرين)
طـــوراً وزيراً مشاعاً فى وزارته ... يصرّف الأمر فى كل الدواوين
وتارة زوج عُطبـــول خـــدلَّجة ... حسناء تملك آلاف الفدادين[٣]

---

(١) حياة حافظ إبراهيم ص ١٩٤ .

(٢) الديوان ١/١٨٩ .

(٣) العطبول من النساء : الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . والخدلجة : الممتلئة الذراعين والساقين .

يُعفى من المهر إكراما للحيته وما أظلَّتْه من دنيا ومن دين

ومثل قصيدته التى أنشدها فى حفل أقيم بطنطا تكريماً لصديقه المرحوم « حفنى ناصف » لانتقاله من القضاء إلى التفتيش (بنظارة المعارف) ، وفيها كثير من الدعابات التى تدل على خفة روح حافظ ، يقول منها :

لولا الحياء ولولا دينى وعقلى وسنى
لقمت فى يوم حفنى أدعو لسكرة (ينّى)
لا تنس عيشا تولى ما بين شرح ومتن
ولّى شبابك فيه ما بين مدّ وغنّ
وذقتَ من (جاء زيد) ومن شروح الشُّمُنّى
ومن حواشى الحواشى على متون (ابن جنى)
ما لم تُذقك الليالى قلبن ظهر المجنّ
أيام (سلطان) يلهو (بمشّه) ويغنى
يبيت يقصع ما لم أسمّه أو أكنّى
يشكو إليك وتشكو إليه عيشة غبن
أيام يدعوك : (حفنى) من الحياة أجرنى
هات المسدس إنى سئمتُ (مشى) و(جُبنى)
من لى بدرهم لحم عليه حبة سمن
قَرِمتُ والله حتى صاحت عصافير بطنى (١)

ثم أحسّ حافظ بأنه قد خلع عن الشعر ثوب الوقار والأرستقراطية بهذه الدعابات الخفيفة ، فاعتذر عن هذا المزح ، وأخذ يلقى التبعة على صديقهم الدكتور (إبراهيم شدودى) وهو شاعر معروف ، وكان قد نظم مقطوعة فى تكريم حافظ نحا فيها هذا النحو من المزح ، وذكّر حافظاً بعهده السابق فى الجيش . . . يقول حافظ من نفس القصيدة :

أسرفتُ فى المزح فاصفح يا سيدى واعف عنى

---

(١) الديوان ١٧٩/١ . القرم : شدة الشهوة إلى اللحم .

فالذنب ذنب شـدوى   فالعن (شلودى) ودعنى
قد سنّ فينـا مُزاحـاً   عـلى الحقيقـة يجـنى
ذقتُ الأمـرّين منـه   فسل (سليا) وسلنى[١]
واسمـع مـديح محب   يُطـرى بحـق ويثنى

ومن دعاباته قصيدة بعث بها إلى أحد أصدقائه وكان معروفاً بشدة شحّه :

ولقـد عجبت لبخـله   ولكـفّه المستحجر
لا يصرف السُّحتـوت إلا   وهو غـير مخـيّر
لـو أن فى إمـكانه   عيشاً بغـير تضـوّر
لاختـار سـدّ الفتحتـ   ين وقال : يا جيب احذر[٢]

وبعث بأبيات إلى الأستاذ « حامد سرى » فى يوم زفافه يستهديه شيئاً من طعام العرس وثياباً ، وكانا إذ ذاك متجاورين بالجيزة يقول فيها :

أحامد كيف تنسانى وبينى   وبينك يا أخى صلة الجـوار
أيشبع مصطفى الخـولى وأمسى   أعالج جوعتى فى كسر دارى[٣]
وبيـتى فارغ لا شىء فيـه   سواى وإننى فى البيت عارى
وما لى جـزمة سـوداء حتى   أوافيـكم على قرب المـزار
وعندى من صحابى الآن رهـط   إذا أكلوا فآساد ضـوارى
فإن لم تبعثنّ إلىّ حـالا   بمائدة على متن البخـار
تغطّيها من الحـلوى صنوف   ومن حمـصـلٍ تتبّل بالبهـار
فإنى شـاعر يُخشى لسانى   وسوف أريك عاقبة احتقارى[٤]

وتكاد دعاباته كلها تنحصر فى هذه القصائد التى أشرنا إليها . وهى لا تُعتبر من أنماط الفكاهة التى تقوم على ما نسميه نحن (بالقفشات) التى تدور حول

---

(١) يريد (سليم سركيس) الصحفى المعروف ، وكان من أصدقاء حافظ .
(٢) الديوان ١/١٩١ .
(٣) كان بين الأستاذ مصطفى الخولى والأستاذ سرى صلة نسب .
(٤) الديوان ١/٢٠٤ .

التورية والمفارقات وتصدر عن بديهة حاضرة وخاطر لماح كان يُعرف بهما حافظ . والدعابة أخف ألوان الفكاهة ، وهى فكاهة الذين يعتصمون بالتوقر ، ولا تنتزع من السامعين إلا الابتسام الخفيف ، لا القهقهة والضحك الصاخب .

٩
الأخطاء والسرقات

شاع فى شعر حافظ كثير من الأخطاء ، ولعلى لا أجاوز الصواب إذا قلت إن منشأ الكثير منها شيوع هذا النوع من الخطأ فى الصحف والمجلات وفى الكتب التافهة ، وجريانه على ألسنة كثير من المتعلمين الذين لا يُعنون بالبحث والتقصى .

ويذكر الشاعر المرحوم الأستاذ أحمد محرم أنه التقى بحافظ بعد نشر قصيدته فى شكسبير ومطلعها :

يحييك من أرض الكنانة شاعر   شغوف بذكر العبقريين مغرم[١]

فقال له : « أقرأت قصيدتى فى شكسبير ؟ فأجاب الأستاذ محرم : نعم ، وابتسم ، فضحك حافظ وقال : وماذا نصنع يا أخى وقد ابتلانا الله بلغة الصحف ؟ لقد أُغرم كتابها بكلمة (شغوف) فهى لا تفارق أقلامهم ولا تنجلى عن شفاهنا ، والصواب (مشغوف) كما تعلم ، لقد جعلتُ مكانها كلمة (ولوع) وانتهى الأمر »[٢] .

ومما يؤسف له أنه لم يكن يطيق بذل الجهد فى البحث عن مادة لغوية للتحقق والاستيقان ، وفى ذلك يقول الشيخ عبد العزيز البشرى : « لم يكن له صبر على مراجعة معاجم اللغة فيما يُغَمّ عليه من مفرداتها . ولعل الأمر إذا كرثه فى بعض هذا تقدم إلى غيره فرجع إليه بما أصاب »[٣] .

---

(١) الديوان ١/ ٧٢ .
(٢) مجلة أپولو ص ١٢٩٧ (يوليه ١٩٣٣) .
(٣) مجلة أپولو ١٣١٣ (يوليه ١٩٣٣) .

وأخطاء حافظ اللغوية والنحوية كثيرة منبثة فى ديوانه . ويغلب على ظنى أنه كان يعرف وجه الخطأ فى كثير منها ، ولكنه كان يخضع لأوزان الشعر ويستبيح لنفسه من الأخطاء ما لا يباح . وكان يداخله الشك ويزايله اليقين فى بعضها ، ولكنه كان لا يحب أن يتكلف الجهد فى سبيل الاستيثاق .

وقد تتبعتُ أخطاءه فى شعره فوجدتها كثيرة ، ولست بمستطيع هنا أن أثبتها كلها ، وحسبى أن أذكر أمثلة منها ظاهرة كل الظهور لا يحتاج الفكر إلى جهد لإدراكها ، قال حافظ :

أزجى إليك قــواف منكسات الرءوس[1]

والصواب (قوافىَ) بإثبات الياء وفتحها . وقال :

سما فوقه والشرق جــذلان شيّق لطلعته والغرب خذلان يرقب[2]

يريد بكلمة (خذلان) مخذول ، ولم نجد هذه الصيغة بهذا المعنى فى معاجم اللغة ومدوناتها ، والظاهر أن الشاعر ذكرها مقابلة لكلمة (جذلان) فى الشطر الأول . وقال حافظ :

وتفانيك فى سبيل (أبى حفــ ص) ومسعاك عند دفع المصاب[3]

يريد بلفظة (التفانى) الاستماتة فى نصرة الحق . ولكن التفانى لا يتأتى إلا من طرفين ، فيقال : تفانت القبيلتان أى أفنى بعضهم بعضا . وقال :

وأشركنا مع الأخيــار منكم إذا جلسوا لإيقــام الحدود[4]

لم يرد فى كتب اللغة (إيقام) بياء بعد الهمزة كما يقول حافظ ، والذى ورد (إقام) بدون ياء مصدر « أقام » ، وقال :

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا يرنّ كما قد كان بالأمس داويا[5]

---

(١) الديوان ١/١٠٣ .
(٢) الديوان ١/١٥ .
(٣) الديوان ١/٢٣ .
(٤) الديوان ٢/٣١ .
(٥) الديوان ٢/١٤٩ .

المعروف فى كتب اللغة أن الفعل (دوّى) بتشديد الواو ، واسم الفاعل منه : مدو . وأما (دوى) بالتخفيف فهو استعمال شائع فى كلام الناس فى هذا العصر . وقال حافظ :

لهفى عليك قضيتَ مرتحــلا   لم تشك ، لم تستوص ، لم تقل[١]

يريد بكلمة (تستوصى) توصى . ولم أجد فيما راجعته من كتب اللغــة استوصيت بمعنى أوصيت . وقال :

أغمضْتَ عينيك عنها وازدريْتَ بها   قبل الممات ولم تحفل بموجود[٢]

أخطأ فى قوله (ازدريْتَ بها) لأن الفعل يتعدى بنفسه . وقال :

هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا   حدّ القراءة فى صحف وفى كتب[٣]

كان ينبغى أن يقول (بلغ) بدل (بلغا) لأن (أو) وُجدت بين الأجير والحراث . وقال :

ولا تنس من أمسى يقلّب طرفــه   فلم تر إلا أنت فى الناس عيناه[٤]

كان الصواب أن يقول (إلا إياك) أو (إلاك) بضمير النصب . وقال :

وبات زغلولها فى وكرها فزعــا   مروّعا ، لرجوع الأم ينتظر[٥]

أخطأ فى قوله (لرجوع الأم ينتظر) والصواب إسقاط اللام من (رجوع) لأن الفعل (ينتظر) متعد . وقال :

أو كان (فى) ظبى الحمى مغــرما   أما لهذا الظبى من مرتــع[٦]

والصواب أن يقول (بظبى الحمى) بدل (فى ظبى الحمى) ، لأنه يقال مغرم بكذا ولا يقال مغرم فيه . وقال :

وعين اليم تنظــر للبخــار   بنظرة واجد قلق الرجـــاء[٧]

---

(١) الديوان ٢/١٥٦ .
(٢) الديوان ٢/١٣٩ .
(٣) الديوان ١/٢٦٥ .
(٤) الديوان ١/٣٧ .
(٥) الديوان ١/١٩٤ .
(٦) الديوان ١/٣٤ .
(٧) الديوان ٢/١٣٧ .

أخطأ فى قوله (بنظرة واجد) والصواب حذف الباء . وقال :

أيهـــا الرافلون فى حـــلل الوشـ ـى يجرّون للذيول افتخـــارا[١]

أخطأ فى قوله (يجرون للذيول) والصواب حذف اللام لأن الفعل متعد . وقال :

رجـــوتك مرة وعتبتُ أخرى فلا أجدى الرجاء ولا العتاب[٢]

الصواب أن يقول (فما) بدل (فلا) ويستقيم الوزن .

وهذه الأخطاء كثيرة فى شعر حافظ ، وتكفينا النماذج التى ذكرناها منها .

وكان حافظ يسطو على معانى الأقدمين ، وقلما كان يزفها فى أثواب قشيبة تكسبها حسنا وبهاءً . ولكنه كان يكسوها فى الغالب الأعم أسمالا بالية تمسخها مسخاً وتشوّهها تشويهاً يؤذى الذوق والفن جميعاً .

والواقع أن سرقات حافظ وإغاراته على شعر غيره كثيرة يكاد يخطئها العدّ . وقد أورد له المرحوم الأستاذ إبراهيم المازنى الكثير من هذه السرقات[٣] ، وردّها إلى أصولها ، ولكنه كان متحاملا عليه — فى غير نصَفة — تحاملا يأباه النقد البرىء . فهو يرى « أن حافظاً نكِد القريحة ، وأنه لزمانة سليقته يلجأ إلى السرقة وانتحال شعر الأوائل » ، ويرميه بكثْرة الإسفاف وقلة السمو حتى فى سرقاته « لأنه لا يعمد إلا إلى المعانى الصغيرة فيطلق يده فيها إذ كانت روحه لا تسع المعانى الجليلة »[٤] . ويسرف الأستاذ المازنى — رحمه الله — فى حملته إسرافاً لا يُقرّه عدل ولا ذوق ، فيحكم عليه بأنه « من ساقة الشعر ومتلصصيهم ، ولولا مؤازرة الأستاذ الإمام له وتنويهه به وحث الناس على اقتناء ديوانه لكان اليوم نكرة من النكرات وغُفْلا من الأغفال »[٥] .

---

(١) الديوان ١/٢٥٠ .
(٢) الديوان ١/١٦٦ .
(٣) انظر كتاب الأستاذ المازنى (شعر حافظ) .
(٤) شعر حافظ ص ١٧ .
(٥) شعر حافظ ص ٢١ .

والواقع أن حافظاً كان يتناول المعنى القديم فلا يضفى عليه شيئاً من الجدّة أو الطرافة ، بخلاف زميله شوقى الذى كان يصوغ المعنى القديم صوغاً رائعاً ويطوّره تطويراً يكسبه طرافة وجمالا . وأمامنا معارضاته لفحول الشعراء ، ففيها تتضح قدرته على الخلق والابتكار . أما حافظ فكان حظه من ذلك تافهاً ضئيلا . وإنى لذاكرٌ هنا نماذج لهذه السرقات ، وستدرك منها أن حافظاً لم يكن يأتى بشىء جديد يروعك أو يستأثر بإعجابك كما كان يصنع شوقى . . قال حافظ :

جنيتُ عليك يا نفسى وقبلى ... عليكِ جنى أبى فدعى عتابى

أخذه من بيت أبى العلاء المشهور :

هذا جناه أبى ع ... لىّ وما جنيت على أحد

وقال :

ليت شعرى هل لنا بعد النوى ... من سبيل للقا أم لات حين

أخذه من قول بشار :

يا ليت شعرى وقد شط المزار بهم ... هل تجمع الدار أم لا نلتقى أبدا

وقال :

لست أدعوك بالتراب ولكن ... بقدود الملاح والأجياد
بخدود الحسان ، بالأعين النج ... ل ، بتلك القلوب والأكباد

استأنس فيه بقول أبى العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأ ... رض إلا من هذه الأجساد

ولعلك تدرك أن بيت المعرى أجمل صُياغة وأنصع ديباجة . هذا إلى ما فى كلمتى (القلوب والأكباد) فى بيتى حافظ من القلق والركاكة ، وقال :

رحم الله منه لفظاً شهيًّا ... كان أحلى من ردّ كيد الأعادى

أخذه من قول الخوارزمى :

وكيف ونظرة منها اختلاساً ... ألذّ من الشماتة بالعدو

وقال :

إنى فتاك فلا تقطع مواصلتى ... هبنى جنيتُ فقل لى كيف أعتذر

نظر فيه إلى قول جميل :

فإن لم يكن قولى رضاكِ فعلّمى   نسيم الصبا يابُثْن كيف أقول

وقال :

لا تعيبنّ يا شكيب دبيبى   إنما الشيخ من يدب دبيبا

أخذه من قول الشاعر :

زعمتنى شيخاً ولستُ بشيخ   إنما الشيخ من يدبّ دبيبا

وقال :

وحسرة فى القلب لو قُسّمتْ   على ذوات الطوق لم تسجع

أخذه من قول الشاعر :

قد مرّ بى من صرفه حاصب   لو مرّ بالورقاء لم تسجع

وقال فى وصف الأرض فى حرب اليابان :

وأصبحت تشتاق طوفانها   لعلها من رجسها تَطّهر

أخذه من قول أبى العلاء :

والأرض للطوفان مشتاقة   لعلها من درن تُغسل

وقال من قصيدة يمدح بها البارودى :

تيمّمتها والليل فى غير زيه   وحاسدها فى الأفق يغرى بى العدا

أخذ معنى الشطر الثانى من قول المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى   وأنثنى وبياض الصبح يُغرى بى

وقال :

وما الذى تخشاه لو أنهم   قالوا فلان قد غدا عبدكا ؟

أخذه من قول مهيار الديلمى :

ما على قومك أن صار لهم   أحد الأحرار من أجلك عبدا

وقال من قصيدة يرثى بها الأستاذ الإمام محمد عبده :

لقد كنت أخشى عادى الموت قبله   فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

أخذه من قول الشاعر :

كنت أخشى صرف الحِمام فلما راح يحيى أصبحتُ أخشى حياتى

وقال :

نامت بمصر وأيقظت لحوادث الأيام سعد

أخذه من قول بشار :

إذا أيقظتك صعاب الأمور فنبِّـهْ لها عمراً ثم نـَم

وقال يرثى الإمام :

لقدْ جهلوا قدر الإمام فأودعوا تجاليده فى موحش بفلاة

أخذه من قول محمد بن بشير الخارجى :

أقول وما يدرى أناسٌ غدوا به إلى اللحد ماذا أدرجوا فى السبائب

وقال فى رثائه أيضاً :

بكينا على فرد وإن بكاءنا على أنفس لله منقطعات

أخذه من قول الشاعر :

وما كان قيس هلْكُه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّما

هذه أمثلة من سرقاته ، ولو شئت أن أذكر سرقاته كلها لاحتجت إلى عشرات الصفحات ، وحسبى ما ذكرت منها .

وعلى أية حال فنحن نستطيع أن نقرر بعد الذى ذكرنا أن حافظاً لم تكن لديه القدرة على التجديد والابتكار ، بل إنه كان فى كثير من الأحيان يمسخ المعنى ويسلبه بهاءه وجماله .

خاتمة القول فى حافظ

١

بين حافظ وشوقى

رأيت من الخير — إتماماً للبحث — أن أكتب فصلا عن حافظ وشوقى ، لأنهما كانا الشاعرين اللذين احتلا مكان الصدارة بين الشعراء فى الثلث الأول من هذا القرن ، وقد شغلا الناس ردحاً طويلا من الزمان . ولا زالت أقلام مؤرخى الأدب ونقدته تجرى فى المقارنة بينهما والمفاضلة بين شعريهما . وكان لكل منهما أنصار يتغنون فى تأييده ويشيدون بذكره فى الآفاق. ولا زال هذان الشاعران الفرسين المجليين فى حلبة الشعر العربى الحديث. ولم يستطع شاعر عربى آخر أن ينتزع من أحدهما قصب السبق حتى الآن . وكان هذان الرجلان متلازمين فى أفكار الناس ، فلا يذكر أحدهما حتى يتداعى له اسم الآخر . ولحافظ فى ذلك نادرة لطيفة ؛ فقد حدث أن كتب المرحوم الدكتور حسين هيكل مقالا عنهما بعنوان « شوقى وحافظ » ، فبلغ حافظاً أن شوقى غضب لذكره معه فى مقال واحد ، وكان لا يرى حافظاً نداً له ، فقال حافظ : «لماذا يغضب ؟ إننا متلازمان ، أما سمع الناس يقولون : " زفتى وميت غمر " فهل غضبت من ذلك زفتى أو غضبت ميت غمر ؟ ويقولون " سميط وجبنة " و " خيار وفقوس " و « عسل وبصل » ، ثم يعقب — رحمه الله — على ذلك بقوله : أما من يكون العسل ، ومن يكون البصل ، فهذه مسألة أخرى »[1] .

وأريد فى هذا الفصل أن أعقد مقارنة عاجلة بين الشاعرين تبين منحى كل منهما الفنى والظروف التى اختلفت عليه وأثرت فى اتجاهاته الفنية ، فأقول :

(١) الفكاهة فى مصر للدكتور شوقى ضيف ص ٧١ .

كان الخلاف بين الشاعرين يتصل بالمزاج وأفق الخيال وطريقة التفكير أولا ، وبالبيئة والنشأة وظروف الحياة والثقافة ثانيا .

فقد كان شوقى رجلا هادئ الطبع وديع النفس ، يعيش فى جو من التأملات وذكريات الماضى البعيد الملىء بتاريخه ودياناته وأحداثه وعِبَره . وقد أتاحت له الحظوة لدى الخديو والحياةُ الرخية الناعمة التى كان يحياها أن يجلس فى برج عاجى وينظر إلى الدنيا بمنظار الحكيم الفيلسوف الذى يشهد زيفها وخداعها وزخرفها وذهاب بنيها إلى غير رجعة ، ويستخلص من ذلك كله ما يستخلصه المعلم الناقد، ويُزْجيه إلى الناس حكما ونُصْحا وتوجيهاً . وقد أعانته بسطة رزقه على أن يوفر همه كله فى إجادة نظم القريض ، فجال فى آفاق الشعر مطلق الجناح .

وقد شهد شوقى حقبة طويلة من تاريخ مصر والعالم العربى وكان يشهد هذه الأحداث من مربأ عال لم يتيسر لغيره من أدباء عصره أن يتسنمه ، وتبلورت فى نفسه أحداث هذا العهد الطويل ، واختلطت بأحاسيسه وامتزجت بمشاعره ، فأبرز لنا ذلك كله فى قصائد غرّاء استهوت أفئدة المصريين والعرب والمسلمين جميعا ، ووجدت فيها الطوائفُ على اختلافها غذاء لعقولهم وأفكارهم ، وشُغف بها الشباب شغفاً شديداً ، وأخذوا — وما زالوا — يرددون بعضها ألحاناً وطنية يشحذون بها العزائم كلما انغمروا فى الحركات الوطنية .

وظل شوقى فى برجه ينظم فى نواحى الحياة المصرية والعربية والإسلامية ويتأنق فى فنه وهو قابع فى كَرْمته بعيدا عن صخب الحياة وضوضائها ، وقد توافرت له كل عناصر العيش الرخىّ ، فصفا ذهنه ، وانشحذت قريحته ، وفرغ لفنه مستمداً خواطره من عوالم فسيحة الأرجاء ، ليرسلها فى أشعار تُنشَد عنه فى المحافل القومية والمناسبات المختلفة ، حاملة طابع المعلم الفيلسوف الحكيم الذى يرسم للناس المثل العليا . وأحياناً يزف إليهم ذلك فى ثوب ملحة تاريخية ، أو عبرة على ألسن الحيوان والطير ، أو قصص مسرحية . وبذلك سدّ فراغاً كبيراً فى

فنون الشعر العربي . . . أقول ظل شوقي فارغاً لفنه على هذا النحو حتى نهاية العمر .

من أجل ذلك أكبر الناطقون بالضاد شوقي وأحلّوه من نفوسهم المكانة الأثيرة، وبايعه شعراء العربية بإمارة الشعر .

أما حافظ فقد شهد ما شهده زميله من أحداث ، ولكن من مربأ دانٍ . وقد نشأ وترعرع في ظلال البؤس والمتربة ، فأحس بمرارة الحرمان منذ صباه ، وطلع حسه أول ما طلع على جوانب من الحياة قاتمة .

وقد شدّ شوقي في مؤتنف حياته رحاله إلى أوربا فنهل من معارفها ، وكان لهذا صداه المدوّي في فنه . أما حافظ فقد سافر إلى السودان في فجر حياته العملية فعانى فيه الكثير من لأواء العيش وقسوة الحياة ولفْح الرياح وقيظ الهاجرة ، ولم تقع عينه هناك إلا على رماله وبطحائه ، وأحس فيه بظلم المستعمر وطغيانه . وقد ران على نفسه بسبب هذا كله سحب كثيفة من اليأس والتشاؤم ظهر أثرهما في شعره ، وسرت فيه نغمة حزينة مُغشّاة بالنقمة والبَرَم بالحياة .

ولعل من أهم الفروق بين الشاعرين أن شعر حافظ واضح قريب إلى الأفهام لا يجد الإنسان عناء كبيراً في إدراك ما يرمى إليه . أما شعر شوقي فالإنسان يجد بعض العناء أحياناً في فهمه .

ومعنى ذلك أن شعر حافظ ضحل قليل العمق ، تبهرك روعته وتأسرك سطوة ألفاظه، فإن أنت فتشته وجدته خالياً من فحولة المعنى وعمق الفكرة . وسر ذلك — فيما أرى — طبيعة حافظ اليسيرة التي لا غموض فيها ولا التواء . في حين كان شوقي أكثر عمقاً وأشد خصباً من حافظ . وما أظن أن المقارنة تجوز بين الرجلين في هذا الباب ؛ فقد اختلفت على شوقي ظروف خلقت منه هذا الشاعر الخصب البارع ، وخلقت فيه هذه الطبيعة العميقة المعقدة . ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين : " أما طبيعة شوقي فهي معقدة ينبئنا شوقي نفسه بتعقيدها؛ فيها أثر من العرب وأثر من الترك وأثر من اليونان وأثر من الشركس . التقت كل هذه الآثار وما فيها من طبائع واصطلحت على تكوين نفس شوقي ، فكانت هذه النفس

بحكم هذه الطبيعة أو الطبائع أبعد الأشياء عن البساطة وأنآها عن السذاجة . وهى بحكم هذا التعقيد والتركيب خصبة كأشد ما يكون الخصب ، غنية كأوسع ما يكون الغنى » [١] .

ولقد واتتْ شوقى الظروف : فتيسّر له أن يُلمّ بقدر ضخم من الثقافات المتنوعة المختلفة الطعوم والألوان ، فقد نهل من مناهل الغرب الفياضة ، وأكبّ على ثقافة العرب فنهل منها كذلك وعلّ ، واختزن فى كنانته محصولا وافراً من مفردات اللغة وأساليبها ، حتى إنه كان يحفظ مواد كاملة من معاجم اللغة العربية كما يقول كاتبه الخاص « أحمد عبد الوهاب » [٢] . وهذا يفسر لنا انتضاح شعره بالألفاظ الغِراب ، كما يلجأ الرجل الثرى إلى اقتناء التحف القديمة يزين بها بيته .

واطلع شوقى كذلك على حوادث التاريخ القديم والحديث فغزُرت عنده الأفكار وغنىَ شعره بالمعانى وانبثّتْ فيه الحكم البليغة . ويقول عنه الشاعر خليل مطران : "فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ولا ينضب عنده، لأنه يستخلصه من عقل فوّار الذكاء ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب فى لغات الإفرنج والعرب فلسفةَ الحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التى يحفظ منها غير يسير ، إلى مشاركات علمية وتنبيهات فنية استقاها من مطالعته صنوف الكتب واتخذها من ملحوظاته ومسموعاته فى جولاته بين بلاد الشرق والغرب » [٣] .

وقد أكسبته رحلاته الكثيرة وعلاقته الوثيقة بالسراى ألواناً من الثقافات والمشاهد المختلفة لم تُتح لغيره ، وتيسر له الوقوف على الكثير من أسرار السياسة المصرية وتياراتها المتباينة وما يجرى على مسرحها خلف الستار .

ولم يتوافر لحافظ شيء من هذا كله ، لأن ظروفه كانت تختلف عن ظروف صاحبه كل الاختلاف ، وقد شغلته أمور الحياة الدنيا عن كسب

---

(١) حافظ وشوقى لطه حسين ص ١٩٩ .
(٢) اثنا عشر عاماً فى صحبة أمير الشعراء ص ٨٦ .
(٣) ذكرى الشاعرين ص ٤٣٥ .

المعرفة الواسعة . وكل ما ملأ به جعبته ثقافةٌ عربية ضخمة استقاها من أمهات الكتب ، فكظّ حافظته بالمفردات الكثيرة والتعبيرات البليغة والطرَف اللطيفة .

ولهذا نجده قد تخلف عن شوقى فى كثير من ضروب القول ، وعجز خياله عجزاً بيناً عن أن يطاول خيال شوقى ، ووقف وقوفاً جامداً عن الابتكار والتجديد . ويقول عنه المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى : كانت تنقصه الوثبات القوية الأخاذة والخيال الرائع المحبوب وقدرة التصوير الفنى المتجلية فى شعر شوقى مهما يكن من استجابة حافظ لعواطف الشعب استجابة فطرية »[1] . وصدق الأديب الجليل الأستاذ أحمد حسن الزيات حين قال : « فحافظ لم يستطع — لضيق مضطربه وقصور خياله وضعف ثقافته — أن يعنى بغير الشكل والصورة»[2]

وكان حافظ كَلِفاً بتقليد الأقدمين ، يتخذ منهم مثله الأعلى ، ويرى الشعر الجيد فى محا كاتهم ، وهو يصرح بذلك فى مقدمته لديوانه القديم .

أما شوقى فقد أبدى إعجابه بشعر الأقدمين فى مقدمة ديوانه القديم . وفى الوقت نفسه أبدى إعجاباً شديداً بالأدب الأوربى ، وأعلن أنه مجدّد ، وأنه لا يقلد إلا كارهاً ليرضى أذواق الناس .

وكان كلا الشاعرين يُعنى غاية العناية بحسن الصياغة وتقليب البيان على وجوهه ، وإن كان شوقى — فيما أرى — أحذق فى ذلك من صاحبه وأوسع حيلة وأكثر توفيقا . ومظهر ذلك أن كلا منهما كان يعيد النظر فى شعره ويبدّل لفظة بأخرى ويقدم ويؤخر كما يرى بغية توفير الجمال لفنه . وكان حافظ — كما يحكى عنه أصدقاؤه — يسمى هذه العملية (بالتذوق) ، ويمدح بعض الشعراء بأنه (ذواق) . . . يريد بذلك أن له ذوقاً مرهفاً فى اختيار اللفظ والأسلوب . وقد غلا فى العناية بالألفاظ وإيثارها على المعانى غلوًّا شديداً ، لأنه كان يرى أن الإجادة فى الشعر تكون فى طلاوته وروعة سبكه . أما المعانى فهى — فى نظره — مستراد مشاع لكل شاعر . ويقول حافظ فى حديث له مع محرر مجلة

---

(١) مجلة أپولو ص ٥٠٠ (ديسمبر سنة ١٩٣٢) .
(٢) فى أصول الأدب ١/١٠٩ .

الهلال : « أنا أميت المعنى إذا لم يتفق لى لفظ رائع »[1] . ويقول عنه صديقه خليل مطران : " إنه فى أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى »[2] .

وليس من شك فى أن إيثار حافظ اللفظ على المعنى قد أوصد أمامه أبواب التجديد ، فوقف من شوقى فى السفح يصعّد إليه النظر وقد تربّع على القمة .

ولعل مبعث عناية حافظ باللفظ أنه كان يخاطب الجماهير ، فكان ينتقى القوى الجذاب منها . ولهذا السبب نفسه قلّ الإغراب فى شعره قلة ظاهرة ، لكى تقع أفهام السامعين على معانيه فى سهولة ويسر .

فالشعر كان عند حافظ وسيلة لا غاية ، فى حين كان شوقى يراه غاية وفنًّا يُطلبان لذاتهما .

ومن أسباب عناية حافظ باللفظ أنه كان يحس فى قرارة نفسه بسطحية معانيه وقرب غورها ، فكان يحاول أن يسد هذا النقص بالصياغة الجيدة واللفظ المنتقى .

أما شوقى فكان يحتفل بالمعنى احتفالا شديداً ، إلى جانب احتفاله باللفظ ، وربما كان يؤْثر المعنى على اللفظ ويوليه العناية الكبرى . وفى ذلك يقول الشيخ البشرى : « إذا كان لهذا الشاعر صنعة ، أو كان له فى شعره ما يُعدّ من عمله ، فهو احتفاله للمعنى أولا ، فإن واتى اللفظ ولان ونصع وأشرق ، وإلا فلأمّ هذا اللفظ الهبل »[3] .

ومع ذلك فشعره تتوافر فيه نصاعة الديباجة وجمال الإشراق وروعة الصياغة . وتدل مسودّات بعض قصائده التى نشرها الدكتور شوقى ضيف على أنه كان يعنى باللفظ والموسيقى عناية بالغة[4] .

بل إننى أعتقد أن شوقى كان يولى الناحية الموسيقية اهتماماً شديداً ، وكان محصوله الضخم فى اللغة يسعفه فى ذلك . وإلى هذا ترجع صلاحية شعره للغناء

---

(١) مجلة الهلال (يونيه سنة ١٩٢٨) .

(٢) انظر « مختارات الزهور » التى أصدرها المرحوم أنطون الجميل سنة ١٩١٤ ص ٢٠ .

(٣) انظر كتاب (المختار) للبشرى ج ١ ص ٨٩ .

(٤) شوقى شاعر العصر الحديث للدكتور شوقى ضيف ص ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠ .

أكثر من شعر حافظ ، إذ يتيسّر للمغنين والملحنين أن يضعوا له الألحان المتنوعة ، فتنساب إلى آذان الناس نغمات رقيقة سرعان ما تجرى على ألسنتهم يتغنون بها فى كل مكان . وأرانى فى غير حاجة إلى أن أسرق الأمثلة على ذلك ، فأغانى شوقى مشهورة طالما صدح بها عبد الوهاب وأم كلثوم .

أما حافظ فلم يُغنّ له — فيما أعلم — إلا قصيدة واحدة ، غنتْ أبياتاً منها أم كلثوم أخيرا وهى : « وقف الخلق ينظرون جميعاً » .على أن هذه الأغنية لم تلق فى عالم الغناء من النّفاق ما وجدته أغانى شوقى .

ولا ريب فى أن بحبوحة النعمة التى كان يرتع فيها شوقى قد أعانته على أن يصوغ من شعره هذا الغناء الذى كان يهز الأسماع ويبهج النفوس ويحوّم بالشعب فى سبحات الفن الرفيع .

وصدق حافظ حين قال فى شوقى يوم أن بايعه بإمارة الشعر :

نمتْكَ ظلالٌ وارفات وأنعُم ... وليّن عيشٍ فى مصيف ومربع
وَمن كان فى بيت الملوك ثواؤه ... يُنشَّأ على النُّعمَى ويمرح ويرتع (١)

ولم يتح البؤسُ لحافظ مثل هذه الفرصة ، فلم يمكنه الحرمان من أن يعزف على مزهر هذا الفن الساحر ، بل شغلته الدنيا بنكباتها قبل أن يلتحق بدار الكتب . ولما أصبح مكفىّ الرزق بالوظيفة دفعه الحرص عليها إلى أن يحيا حياة القلق المستريب ، فاضطربت نفسه وضعفت أعصابه وأصبح يتوهم نفسه مرتعاً للأدواء والعلل .

وكان من أثر الحرمان الذى عاناه حافظ أن قصر خياله عن التحليق عالياً فى سماء الفن ، فجاءت صوره البيانية باهتة قليلة الرواء . أما شوقى فلم يقع ناظراه إلا على فاخر الرياش ونفيس الآنية ، وكان لهذا أثره البين فى خياله وفى اتجاهاته الفنية وفى أوصافه. ولو فتّشْتَ فى شعر حافظ كله لما ظفرت بمثل قصيدة شوقى التى يصف فيها الطبيعة والتى يقول فيها :

تلك الطبيعـــة قف بنا يا سارى ... حتى أريك بديع صنع البارى

---

(١) الديوان ١/١١٩ .

الأرض حـولك والسماء اهتزتا   لروائع الآيـات والآثـار
ولقد تمـر على الغدير تخاله   والنبتَ مـرآةً زهتْ بإطـار
حـلو التسلسل موجه وخريره   كأنامل مـرّت على أوتـار
ينساب فى مخضـ لّة مبتـلّة   منسوجة من سندس ونضار[١]

ولا تجد فى شعر حافظ كله مثل أبيات شوقى التى يصف فيها الجزيرة على الجانب الغربى من النيل والتى منها :

وخميـلة فوق الجزيرة مسّها   ذهبُ الأصيل حواشياً ومتـونا
كالتبر أفقا والزبرجـد ربوة   والمسك ترباً واللجين معينـا
وقف الحيا من دونها مستأذناً   ومشى النسيم بظلها مأذونـا
وجرى عليها النيل يقذف فضة   نـثراً ويكسر مومراً مسنونا
يغْرى جـواريه بها فيجئنها   ويُغـيرهن بهـا فيستعلينا
راع الظلامُ بها أوانسَ ترتمى   مثل الظباء من الربى يهوينا
يخطرن فى ساح القلوب عوالياً   ويملْن فى مرأى العيون غصونا
عـفْن الذيول من الحرير وغيره   وسحبنَ ثمّ الآس والنسرينا[٢]

ولا شك أن هذه الصور الرائعة يظهر فيها أثر البيئة الناعمة المترفة التى عاش فيها شوقى .

وأبلغ ما يوصف به شعر شوقى أنه — كما يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات — : « ينقله عن طبع دافق وحس صادق وذوق سليم وروح قوى ، فيأتى به مطرد السلك محكم السبك كنضود الدهر وأفواف الوشى ، لا يشوبه ضعف ولا لغو ولا تجوز ولا قلق »[٣] .

وقد كانت حياة حافظ القلقة المضطربة سبباً فى أن يقول شعراً فيه ممالأةٌ للإنجليز وتأييدٌ لسياستهم وتحطيمٌ لأسلحة الجهاد وبثٌّ لعوامل اليأس فى نفوس

---

(١) الشوقيات : ٢/٤٣ .
(٢) الشوقيات : ٢/١٧١ .
(٣) فى أصول الأدب ١/١٠٠ .

المصريين ، وغير ذلك مما تبرأ منه الوطنية . وقد أساء حافظ بذلك إلى نفسه وإلى وطنه وقومه، واعتُدَّ هذا فيه غميزة شنعاء يذكرها له التاريخ على مر الأيام . وأشعاره التي يمكن أن تدخل في عداد الشعر الوطني بشيء من التجاوز ضيقةُ الحدود ، ولا تعدو أن تكون تسجيلا لما يردده الناس في المجالس والأندية ، ثم إنها ليست ذات نهج مرسوم .

أما شوقي فإنه لما رجع من منفاه بعد الحرب العالمية الأولى اختلط بالشعب واندمج فيه وشاركه عواطفه وميوله وأصبح المعبر الأكبر عن آمال مصر وآلامها وبخاصة في ظروفها الأخيرة . ولم يقف عند تناول أحداث مصر ، بل تناول أحداث الشرق كله ، وغدا المترجم عن مشاعر الشرقيين . وأخذ يعزف على قيثارة الشعر نغمات متنوعة الألوان حول العروبة والشرق والإسلامية « Islamisme » بمعناها الواسع فأجاد العزف ، وأصبح شعره في هذه المعاني نماذج سامية للشباب المتحمس، فضلا عن أنه يدل على أن الشاعر كان شديد الغيرة على وطنه عميق الإحساس بشعور الأمة المصرية بخاصّة والأمة العربية والعالم الإسلامي بعامّة . ولم يكن شوقي « بمعزل عن الأمة في شعوره ، لا يخامرها بعطفه ولا تخامره بعطفها ولا يناضل في ميدانها نضال من يهمه النصر والهزيمة » كما يقول الأستاذ عباس العقاد(١) ، بل إنه كان لسانها الصادق والمترجم عن شعورها والحافز لهممها والمستلّ لعوامل اليأس والاستكانة من نفوسها والمفاخر بآثارها والمنافر بأمجادها ، وبخاصة بعد أن عاد من منفاه واندسّ في غمار الشعب.

وكان شوقي يؤمن بمذهب (الإسلامية) ، ويرى أن المسلمين يجب أن يستووا أمة واحدة متحدة الكلمة ليستعيدوا مجدهم الداثر وعزهم الغابر . ولهذا نراه ينتفض بنشوة الأمل الفوّار حينما أحرز الترك النصر في حربهم مع اليونان سنة ١٩٢٢ على يد « كمال أتاتورك » ، فقال قصيدته المشهورة :

الله أكبر كم في الفتـــح من عجب يا خالد الترك جدِّدْ خالد العرب(٢)

---

(١) شعراء مصر ص ١٨٥ .

(٢) الشوقيات : ٤٨/١ .

ولكن أستاذنا طه حسين يقول إنه امتلأ ضحكاً وأسًى حين قرأ هذه القصيدة لأنه يعجب « من ذكر خالد ومقارنة مصطفى كمال به حين كان العالم الحديث يضطرب بذكر القواد النابهين فى الحرب الأخيرة ، وحين كانت صور هؤلاء القواد النابهين فى الانتصار والانهزام تملأ النفوس إعجابا »[1] . ويرى أستاذنا أن هذا دليل على إغراق شوقى فى التمسك بالقديم ويقول : « والحق أنا لا نعرف أمدح شوقى مصطفى كمال حين قرنه إلى الفاتح العربى القديم أم ذمه ؟ » .

وإنى لأخالف أستاذنا فيما ذهب إليه كل المخالفة ، لأنى أعتقد أن شوقى يعبر عن شعور عميق كان يختلج فى نفوس المسلمين جميعاً حين شعروا بمرارة الضعف والذلة تحت سنابك الاستعمار ، فأخذوا يستعرضون أمام أبصارهم ما كان للإسلام من سؤدد ومجد فى غابر الأزمان ، ويذكرون الإمبراطورية الإسلامية القديمة التى دانت لها الدنيا وجثا أمام خلفائها الأباطرة والملوك ، ويذكرون إلى جانب ذلك أبطال المسلمين الذين ملئوا سمع الدنيا من قواد وحكام . فإذا ما ظهر من بين المسلمين فى العصر الحديث من يصل ماضيهم بحاضرهم ويذكّرهم ببطولة أجدادهم انبثق فى نفوسهم فجر الأمل وتبددت منها دياجير اليأس . فشوقى فى الواقع مسلم بأوسع ما يفهم من هذه الكلمة من معنى .

أما حافظ فقد أخلد إلى السكوت بعد أن ظفر بالوظيفة، وخُيِّل إليه أنه إذا قال شعراً قُذف به إلى قاع السجن ، أو أصيب فى منصبه على أهون تقدير . وقد قال فى هذه الفترة شعراً قليلا عدّه فى نطاق الشعر الوطنى وخشى أن يذيعه فى حينه ، حتى إذا أمن الأذى — كما كان يتوهم — أذاعه ، فإذا به شعر لا يؤاخذه عليه أى إنسان .

ولشوقى نفحات فنية رائعة فى مناسبات وطنية ، لم يستطع حافظ أن يدانيه فيها ؛ فقد اعتدى أثيم على الزعيم سعد زغلول فى محطة القاهرة ، ولكن عناية الله نجته ولم تصب الرصاصة إلا ذراعه ، فنظم حافظ فى هذه المناسبة سبعة أبيات هزيلة متهافتة ، وقد أخذ يكرر الشطر الأول من البيت الأول ثلاث مرات ،

(١) حافظ وشوقى ص ٢٥ .

وإنى لذاكرها لك لتدرك بذوقك مبلغ تهافتها :

أحمـــد الله إذ سلمْتَ لمصر قد رماها فى قلبها من رماكا
أحمـــد الله إذ سلمت لمصر ليس فيها ليوم جدٍّ سواكا
أحمـــد الله .إذ ســلمت لمصر ووقاهــا بلطفــه من وقاكا
قد شُغلنا يا (سعد) عن كل شىء وشُغلنا بأن يتم شــفاكا
فى ســبيل الجهــاد والوطن المحـــ بوب ما سال أحمراً من دماكا
قل لذاك الأثيم والفــاتك المفـــ تون : لا كنت ، كيف ترمى السماكا
إنمــا قد رميتَ فى شخص (سعد) أمــةً حــرة فشلّت يــداكا

وأنت ترى أن هذه الأبيات كانت ــ كما يقول الأستاذ حسن الصيرفى ــ : « كهبة النائم إثْر سهر مضنٍ ، فهو يفتح عينيه فى تثاقل وتراخ ويتحدث فى تثاؤب وتكاسل . وكذلك كانت أبياته ، عليها من أثر الجهد والإعياء ما عليها ، فهى هزيلة شاحبة متهالكة »[1] .

أما قصيدة شوقى فى هذه المناسبة فقد جاءت آية من آيات الفن الرائع . فهو يعرض علينا الصورة فى ألوان زاهية أخاذة ، إذ يشبّه مصر بسفينة ربانها سعد ، وقد سارت السفينة فى بحر تصطخب أواذيُّه وتتلاطم أمواجه ، وقد أخذت ركّابها نشوةٌ بنجاة ربانها من خطر كاد يحدق به وبهم ، فطفقوا يهللون جذلين ، يدقون طبول الفرح متصايحين بأنغام البشرى والسرور .

وتبدو براعة شوقى فى أنه أخذ يوفر لفنه عنصر الموسيقى التى تتلاءم مع الصورة البيانية كل التلاؤم . فأنت تحس إذ تستمع إلى القصيدة كأن هناك أمواجاً تمور من حول السفينة وتلاطمها ، والسفينة تسير فى طريقها قدماً فى أناة ودعة ، لا تلوى على شىء . واسمعه يقول فى مطلعها :

نجــا وتمــاثل رُبانهــا ودقَّ البشــائرَ ركبــانهــا
وهــلّل فى الجــو قيدومها وكــبّر فى المــاء ســكانها
تحــوّل عنها الأذى وانثنى عبــابُ الخطوب وطوفانهــا

---

(١) حافظ وشوقى للأستاذ الصيرفى ص ٥٥ .

نجا « نوحها » من يد المعتـــدى　　وضـــلَّ المقاتلَ عدوانها[1]

ويقول منها :

فيا سعد جرحك ساء الرجـــال　　فلا جُرحت فيك أوطانهـــا
فيا سعد أنت أمين البـــلاد　　قد امتـــلأت منك إيمانهـــا

ويقول مبتهجا بنجاة الزعيم :

وفى الأرضَ شرٌّ مقـــاديره　　لطيفُ السماء ورحمـــانها
ونجّى الكنـــانة من فتنـــة　　تهـــدّدتِ النيـــل نيرانهـــا

ويقول فى (النيل) حياة مصر :

ومـــا هـــو ماءٌ ولكنـــه　　وريد الحيـــاة وشريانهـــا
تتمم مصر ينـــابيعه　　كما تمم العـــين إنسانهـــا

والقصيدة كلها عذبة الموسيقى ، غنائية الألفاظ ، حلوة الجرس . وقد ساعد ذلك بعضَ المغنين على أن يضعوا لها الأنغام الجميلة ، وغنت السيدة (أم كلثوم) أبياتاً منها .

وقد انضمت عذوبة الصوت إلى روعة الموسيقى ، فنجم عنهما أغنية أخاذة ، تلعب بعواطف السامعين وعقولهم .

وليس المجال هنا مجال تحليل للقصيدة وبيان ما فيها من التصوير الفنى البديع والعرض الجذاب الرائع والحجج القوية التى يسوقها ليدحض بها دعاوى الإنجليز ، مما لم يستطع حافظ أن يأتى بمثله فى لاميته « الشعب يدعو الله يا زغلول » .

ولا شك فى أن حافظاً قد تخلف عن شوقى فى هذه المناسبة تخلفاً كبيراً . وربما كان سر ذلك ما ذهب إليه المرحوم الدكتور « أحمد أمين » من أن « خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة . فأما فرح بالطبيعة وفرح بنفسه ونحو ذلك مما ينبعث عن عاطفة السرور فلم يكن له كبير مجال فى شعره » .

ولعلك توافقنى على أن الإجادة الفنية التى توافرت لشوقى كانت أثراً من

---

(١) الشوقيات : ١/٣٢٩ .

آثار الشعور الحاد ، ومظهراً من مظاهر الحس القوى والعاطفة الرقيقة والخيال الخصيب .

ولما هم الملك (فؤاد) بإصدار الدستور أنشد حافظ بين يديه قصيدة أثناء زيارته لمدرسة فؤاد الأول بقصر الزعفران ، وقد عرض فيها للدستور والبرلمان ونظم شوقى قصيدته العصماء (قفى يا أخت يوشع) وعرض فيها للدستور والحياة النيابية كذلك . ولكن الفرق كبير جداً بين القصيدتين ؛ فقصيدة حافظ لا تجد فيها معنى قيماً أو فكرة عميقة أو صورة رائعة ، وإنما هى كلها طرق من التعبير قد سئمها الناس ومجتها الآذان ، ولا تجد فيها إلا كلمات منظومة يتلو بعضها بعضا ولا تدل إلا على معانيها اللغوية ليس غير . فهو يستهل قصيدته مخاطباً قصر الزعفران :

أقصر الزعفران لأنت قصر خليق أن يتيه على النجـــوم
كلا عهديك للأجيـــال فخر وزهوٌ للحديث وللقـــديم
ثوى بالأمس فيك علًا ومجـــدٌ وأنت اليوم مثوى للعـــلوم
فمن نُبـــل إلى مجـــد أثيل إلى عـــلم إلى نفـــع عميم
أضفتَ إلى صروح العلم صرحاً بزورة ذلك الملك الحكيم[1]

فأنت ترى أن هذا نظم ليس فيه جمال وليست فيه روعة . والقصيدة كلها من هذا الشعر السوقى الذى لا يستثير من نفسك ذرة من إعجاب . وقد استوقفنى بيت فيه مبالغة أفسدها الشاعر بسوء أدائه ؛ فإنه أراد أن يصف نهوض مصر بعد طول رقاد فقال :

أفقنا بعد نوم فوق نـــوم على نوم كأصحـــاب الرقيم

فما هذا النوم المتتابع الذى مسخ البيت مسخاً ؟ إن هذا البيت يذكرنا — كما يقول أستاذنا طه حسين[2] — بالبيت القديم :

فما للنوى جذّ النوى قطع النوى كذاك النوى قطّاعة لوصالى

---

(١) الديوان ١/١٠٦ .

(٢) حافظ وشوقى ص ١١٠ .

وقد سمع الأصمعى هذا البيت فقال ساخراً : لو سلط الله على كل هذه النوى شاة فأكلتها » .

ويشيد الشاعر بما للملك من فضل فى إصدار الدستور فيقول :

أيأذن لى المليك البَرُّ أنى أهنئ مصر بالأمر الكريم
فيا مصر اسجدى لله شكراً وتيهى واقعدى طرباً وقومى
فقد تمَّ البناء وعن قريب تُزَفّ لك البشائر من نسيم
فدار (البرلمان) أعز دار تشاد لطالب المجد العميم
بها يتجمل العرش المفدّى وتحيا مصر فى عيش رخيم
فشرّفْها بربك واختتمْها وأسعدْها بدستور تميم
بآى (محمد) وبآى (عيسى) فعوّذه وآيات (الكليم)

هكذا عرض حافظ للدستور وللبرلمان بما لا يخرج عن أداء العامة وقَعَدَة (المصاطب) من أنصاف المتعلمين . وقد زاد القصيدة ضعفاً وابتذالا أن قوافيها غير مستقرة فى مواضعها ، فأغلبها قلق مضطرب لم يأت الشاعر به إلا ليختم البيت لينس إلا ، من مثل « ظهر الأديم) و (المجد العميم) و (عيش رخيم) و (دستور تميم) ، وأشباه ذلك من القوافى التى أُكرهت على أن تستقر فى غير مكانها المناسب .

أما قصيدة شوقى (قفى يا أخت يوشع[1]) فهى آية من آيات الروعة والجمال ، فقد أحسن شوقى تناول المعانى وأحسن الأداء . وقد أراد الشاعر أن يبين أمرين اثنين :

أولهما أن لتاريخ مصر القديم مجداً وعظمة لا تتطالّ إليهما أمة أخرى من أمم الأرض .

وثانيهما أن تاريخ مصر الحديث فقير إلى هذا المجد وإلى هذه العظمة ، قمينٌ بأن يُسعى لاستردادهما .

وبهذا يشعر كل مصرى ، وبهذا كان يشعر شوقى ويحس .

---

(١) الشوقيات : ١/٣٣٤ .

والقصيدة معروفة مشهورة ،ولست أرانى فى حاجة إلى أن أسوق لك نماذج منها . وقد عرض فيها شوقى لتاريخ مصر الفرعونية عرضاً أخاذاً . وشوقى يمتاز بفرعونياته التى يبثّ فيها اعتزازه بمجد الفراعنة العظام . وفى ذلك ردٌّ بليغ على من يرميه بنزوعه عن مصريته . ويكاد شعر حافظ يخلو من مثل هذه الفرعونيات تقريبا ، اللهم إلا قصيدة « مصر تتحدث عن نفسها » ، وقد تحدثنا عنها فى فصل سابق .

ولعل من أروع ما فى قصيدة شوقى أنه يبسط أمام الشباب تاريخ بلادهم العتيد ، ثم يرسم لهم طريق الخلود ويحفزهم على الاقتداء بأجدادهم الفراعنة :

وليس الخلد مرتبة تُلقّى ... وتُؤخذ من شفاه الجاهلينا
ولكن منتهى هم كبار ... إذا ذهبتْ مصادرها بقينا
وآثار الرجال إذا تناهتْ ... إلى التاريخ خير الحاكمينا
وأخذُكَ من فم الدنيا ثناءً ... وتركُكَ فى مسامعها طنينا

ولم ينس الشاعر أن يعرّض بسياسة الإنجليز ، ويكشف ألاعيبهم ، ويبين مبلغ ظلمهم ، ويستحث المصريين على استنقاذ وطنهم من براثن المحتلين .

وتذوب نفسه حسرات على ما بلغنا من ضعف حدا بالمؤتمرين فى (لوزان) عقب الحرب العالمية الأولى إلى أن يوصدوا فى وجوهنا أبواب المؤتمر وألا يُصيخوا لمطالبنا . ولو كنا موفورى الأهبة والعتاد لما وجدنا منهم صلفاً ولا كبراً ، لأن القوة عندهم هى كل شىء . ويذكر الشاعر فى ألم وكمد أن (كرزون) وزير خارجية إنجلترا حينذاك يقضى فى أمورنا وليس لنا أمامه حول ولا قوة :

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا ... وصدُّوا الباب عنا موصدينا
ولو كنا نجرّ هناك سيفاً ... وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضى (كرْزنٌ) بالأمر فينا ... وحاجاتُ الكنانة ما قُضينا

ويتحدث إلى فرعون فيستنطقه ويسأله ويلتمس منه الجواب عن هذه الأسرار التى عجز العقل عن حلها . وهى أسرار الحياة والموت والبعث والنشور .

ويخلص الشاعر من ذلك كله إلى الأمر الذى كان يشغل المصريين جميعاً

فى ذلك الحين ، وهو (الدستور) والحياة النيابية . وأنت تراه فى ذلك مصريًّا بكل معنى الكلمة ؛ فهو يحس بما كان يحس به المصريون ويشفق مما كانوا يشفقون منه . وهو يحب الحكم الديموقراطى ويكْلَف به، ويتمنى على الملك (فؤاد) أن يصدر الدستور، وأن يقيم حكما نيابيًّا سليماً . ولم تمنعه صلته بالقصر أن يغمز الملك غمزاً رفيقاً، وأن يعرّض بحكم الفرد الذى مضى إلى غير رجعة :

زمان الفــرد يا فرعــون ولّى ودالتْ دولــة المتجــبرينا
وأصبحت الرعاةُ بكل أرض على حكم الرعيــة نازلينــا
فعجّلْ يا ابن إسماعيل عجّلْ وهات النور واهْدِ الحائرينا
هو المصبــاح فأتِ به وأخرِجْ من الكهف السوادَ الغافلينــا

وهكذا نرى شوقى مصريًّا صميماً، يعبر عن إحساس المصريين وآمالهم ويعتز بمجد الفراعنة أشد اعتزاز .

ولا نجد شاعراً مصريًّا يشْمخ بآثار الأقدمين كما صنع شوقى فى فرعونياته الغراء . وصدق الأديب الكبير المرحوم (مصطفى صادق الرافعى) حين قال : « إن قصائد شوقى فى الآثار أعظم من الآثار نفسها وأبقى على الزمان »[1] .

وكان شوقى يقتنص المناسبات ليخوض فى مجد مصر وحضارتها التليدة ، يُمدّه قلب نابض بحب مصر وعاطفة زاخرة بالهيام بها. . . يقول فى مطولته التى أنشدها فى مؤتمر المستشرقين بجنيف :

قل لبــانٍ بنى فشاد فغالى لم يجُــزْ مصر فى الزمان بناء
فاعذر الحاسدين فيهــا إذا لا موا فصعبٌ على الحسود الثنــاء
زعمــوا أنهــا دعائم شِيدتْ بيــد البغى ملؤها ظلمــاء
إن يكن غــيرَ ما أتوه فخارٌ فأنــا منــك يا فخار براء

وهو يضرب فى هذه القصيدة على قيثارة الفخر بمصر والإشادة بعظمتها . وأنت تجده فى مواطن كثيرة يذكّر المصريين بسالف مجدهم ويبثّ فى نفوسهم

(١) انظر كتاب (وحى القلم) ج ٢ ص ١٤٤ .

الأمل والثقة فى استعادة ما فقدوه حتى يسودوا الدنيا كما كانوا سادتها .

وكان شوقى يغلو فى حب مصر غلواً يدفعه إلى أن يدعوَ الشباب إلى تقديسها كما يقدسون الله تعالى :

وجْــهَ الكنانة ليس يغضب ربكم أن تجعلوه كوجهه معبــودا
ولُّوا إليه فى الدروس وجـوهَكم وإذا فرغتم فاعبــدوه هــجودا
إن الذى قسم البــلاد حبـاكمُ بلداً كأوطان النجــوم مجيدا
قد كان ــ والدنيا لَحُود كلهــا ــ للعبقرية والفنــون مهــودا[1]

وكان قلبه يخفق باسم مصر إذا طوّحت به الأقدار بعيداً عنها . وكل مصرى يحفظ أبياته التى قالها والغبطة تملأ قلبه حين آب إلى وطنه من منفاه ، وكنا نرددها ونحن صبية نختلف إلى دور العلم :

ويا وطنى لقيتك بعــد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
ولو أنى دُعيت لكنتَ دينى عليــه أقابل الحتم المجــابا
أدير إليــك قبل البيت وجهى إذا فهتُ الشهادة والمتــابا

ووطنه عنده أثمن من الخلد ، وله فى ذلك بيت أغر مشهور :

وطنى لو شغلتُ بالخــلد عنه نازعتنى إليــه فى الخلد نفسى

والمقام لا يتسع للحديث عن وطنيات شوقى . وحسبنا أن نشير فى هذه اللمحة العابرة إلى ما كان بين الرجلين من بون شاسع فى شعر الوطنية . فحافظ كان رسول الاستيئاس ، وشوقى كان باعث الأمل ومحيى ميت الرجاء .

وبعد ، فلا مراء فى أن شوقى كان أعمق وطنية وأحسن أداءً لمعانيها من حافظ . ولم يكن شوقى شاعر مصر فحسب ، بل كان شاعر العرب جميعاً ؛ يبتهج إذا أصابتهم حسنة ، ويبكى إذا مسهم الضر ، فكلنا فى الهم شرق كما يقول. وما من حادث يحدث فى أى قطر عربى إلا ألفيتَ لذلك صدى عميقاً فى نفس شوقى ؛ يتأثر به كأنه وقع على شخصه ، وينطلق مدافعاً عن المظلوم ، راثياً للمحزون ، مشاركاً فى النكبة ، مواسيا المنكوبين .

(١) الشوقيات : ١/١٢٥ .

وكان شوقى الشاعر الذى يملأ نفسه مجدُ العرب، يردّده دائماً فى تيهٍ وَمخيلة. وكان يؤوده ما يراهم فيه من انحلال وتفكك وضعف . . . كان يذكر ذلك حتى فى قصائده التى نظمها فى مناسبات لا تمت إلى العروبة بسبب[1] .

وكان لا يفتأ يُهيب بالعرب أن يطرحوا الخلاف جانباً ، وأن يستعيدوا عصر الرشيد والمأمون وصلاح الدين . وهو لا ينسى فى مقدمات كثير من قصائده أن يشيد بأمجاد العرب وصناديدهم وأبطالهم وملّتهم السمحاء . وبلغ به الحرص على تخليد مجد الإسلام والعرب أن وضع له جزءاً خاصًّا ، هو « دول العرب وعظماء الإسلام » ، وقد أشرنا إليه فى فصل سابق .

وهناك أمر له أثره فى المقارنة بين الشاعرين ؛ ذلك أنك لا تجد لحافظ شأناً يذكر فى ميدان المسرح والتمثيل ، اللهم إلا هذه المنظومة التمثيلية التى أنشأها بمناسبة ضرب الأسطول الإيطالى لمدينة بيروت سنة ١٩١٢ . وقد أجرى حوارها بين جريح وزوجته وطبيبه وأحد مواطنيه العرب[2] . وهى رواية ليست شيئاً يُعتدّ به فى عالم المسرح ، إذ لم تتوافر فيها العناصر الأصيلة للتمثيلية. فهو يُجرى الكلام على لسان الجريح فى عشرات الأبيات التى ليس فيها هذا الحديث السريع المتبادل بين أشخاص الرواية والذى يستشيق السامعين ويسترعى انتباههم.

وأنت تحس فى التمثيلية بتراخ فى الحوار وفتور فى الحركة ، ولا ترى فيها هذا التحليل الدقيق للعواطف المشبوبة التى تختلج فى نفوس الناس ، وليس فيها هذا الاستعراض الخفيف السهل الذى هو من خصائص المسرحية .

فحافظ إذن قد تخلف عن شوقى فى هذا الميدان تخلفاً بيّناً، ولم يخْطُ فيه إلا هذه الخطوة الضيقة .

وما من شك فى أن هناك أموراً صرفت حافظاً عن أن ينظم للمسرح ، وهى أمور تتعلق بثقافته ونشأته وأفقه وبيئته . يضاف إلى ذلك عدم شهوده المسرحيات

---

(١) مثل قصائد : أنس الوجود ، والنيل ، والرحلة إلى الأندلس ، ومسجد أيا صوفيا ، وغيرها .

(٢) الديوان ٢/٦٩ .

العالمية التى شهدها شوقى فى (باريس) إبان الطلب . فقد ذكر شوقى أكثر من مرة أنه كان كثيراً ما يسافر من (مونبلييه) إلى (باريس) ليشاهد تمثيل ساره برنار أمام (كوكلان) الأكبر ، وتمثيل (جان هدنج) و (جبرييل ريجان) وغيرهم .

ولهذا نجد شوقى متأثراً إلى حد كبير بهذه المسرحيات الفرنسية ، ويلاحظ هذا بنوع خاص فى روايتيه (على بك الكبير) و (قمبيز) ؛ فقد تأثر فى نظمهما بروايتى (جان دارك) التى ألفها (جول باربييه Jules Barbier) و (كليو باطرة) التى وضعها (إميل مورو Emile Moreau) .

ويطول بنا الحديث لو عقدنا مقارنة بين هاتيك الروايات لنتبين مبلغ تأثر شوقى بالمسرحيات الغربية التى شاهدها . والأمر الذى أرجحه ويرجحه غيرى من الباحثين فى تاريخ المسرح العربى أن شوقى قد تأثر فى مسرحياته بالمسرحيات الفرنسية أكثر من تأثره بمسرحيات شكسبير كما يدّعى البعض .

كل هذه العوامل التى ذكرنا جعلت حافظاً يشعر فى نفسه بالعجز عن إنشاء التمثيلية المسرحية .

ولا يحق لى أن أختم هذا الفصل قبل أن أعرض لمسألة جديرة بالعناية وهى : كيف كانت العلاقة بين حافظ وشوقى ؟

كان حافظ يؤمن فى قرارة نفسه بأنه شاعر عربى كامل العدة تام الأداة . وكان يرى أن من حقه أن يأخذ مكانه فى ظلال العرش المصرى كصاحبه . فأخذ يضرب على قيثارته عسى أن يُسمع صاحبَ العرش فيصغى إليه ويطلب شخصه ويصطنعه فى حاشيته . ولكن قيثارة أخرى يحملها شاعر القصر كانت تشغل سمع الأمير وقلبه. فأخذ رجاء حافظ يتضاءل وأيقن أن لا مكان له ولا لغيره فى تلك الظلال ما دام شاعر القصر يكتنف طريقه ويحول بينه وبين الحظوة عند الخديو ، فأخذ يغمز شوقى غمزاً فى بعض قصائده ذاكراً من طرف خفىّ أنه أشعر منه ، مثل قوله من قصيدة نظمها فى تهنئة الخديو بعيد الأضحى سنة ١٩٠٤ :

صُغتُ القريض فما غادرْتُ لؤلؤة ... في تاج كسرى ولا في عِقد بوران
كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدف ... ساحمْتُ فيه لنظّام ووزّان
عابوا سكوتى ولولاه لما نطقوا ... ولا جرَتْ خيلهم شوطاً بميدان
اليوم أنشدهم شعراً يعيد لهم ... عهد النّواسى أو أيام حسان
أزفّ فيه إلى العباس غانية ... عفيفة الخِدْر من آيات عدنان
من الأوانس جلاها يراعُ فتى ... صافى القريحة صاحٍ غير نشوان(١)

وله قصائد أخرى مثل هذه فيها تعريضٌ بشاعرية شوقى لا تخفى على فطنة اللبيب .

وقد طمع حافظ فى ظلال أرحب من إمارة مصر ، هى ظلال الخلافة فى الآستانة ، فأخذ يتغنى بمدح السلطان عبد الحميد ، ويذكر فضله وفضل خلفاء آل عثمان فى إقامة ذلك البناء الإسلامي الضخم الذى رفعوه على شفار سيوفهم .

ولكن حافظاً لم ينل شبراً من ظلال الخلافة يتفيّؤه ، وضاع شعره فيها كما ضاع من قبل فى إمارة مصر . ويقال إن اليد التى أبعدته عن بلاط الخديو لم تدعه يظفر بأمله فى بلاط الخلافة ، فسدّت عليه السبيل بعد أن عمل بعض الأصدقاء على تمهيده ، وبعد أن أوشك الشاعر العاثر الجد أن يقع على أمنيته . فغمره اليأس ، ورضى بالبقاء بين سائر الشعب ، يشهد جهاده ، ويندب صرعاه ، ويرثى زعماءه ، فذلك أقرب فنون الشعر إلى قلبه . وكان يرسل النكتة أحياناً يرفّه بها عن نفسه وعن الناس فيعجبون بها ويضحكون ملء أشداقهم . وقد أحسّ الشعب بقرب هذا الشاعر إلى نفسه فأحبه وأدناه ، ورضى الشاعر عن ذلك ووجد فيه عوَضاً عن تنكّر الزمان له .

وزاد من إقبال الناس على شعره ما كان يُضْفيه عليه صاحبه فى إلقائه من نغمة صادقة حزينة . يضاف إلى ذلك ما كان من اتصاله بزعماء الأمة ومؤانستهم بعذوبة محضره وأنس جوه .

---

(١) الديوان ١/٢٨ .

ولست أشك فى أن حافظاً كان يتنفّس على شوقى مكانته فى القصر وحظه من النعمة والجاه . ولهذا كان يتناوله فى مجالسه الخاصة بالنقد اللاذع والتجريح العنيف . ويقول صديقه المرحوم الأستاذ « دسوقى أباظة » — وكان هو وأسرته على صلة قوية بحافظ — : «وكنت فى العادة إذا ما أطلقت المديح فى شعر شوقى يثور محاولا أن يثنينى عن الثناء عليه بنقده المر وقدرته على تخريج اللفظ وتشويه المعنى » [١] . ويقول الأستاذ أباظة فى موضع آخر : «وكان إذا خلونا به يحمل على شوقى وشعره ، ولكنه لا يتنازل لنقد غيره » [٢] .

على أن حافظاً لم يستطع أن يخفى حقده على شوقى فجهر به جهراً فى كتابه « ليالى سطيح» ، ووجّه إلى أمير الشعراء سهاماً مُصْمية من النقد المر . فشوقى فى نظر حافظ لا يأتى إلا «بتلك المعانى الغريبة التى ما سكنتْ فى معنى عربى إلا وذهبت بروائه [٣] » . وهو — على ما فيه من سعة الرزق — « فارغ للشعر ، غير مشغول بغيره ، فالعجب أنه لا يجيد ، وأعجب منه أن يقال إنه مكثار ، وقصائده فى العام معدودة وقوافيها مقدرة محدودة . . . ولو مُنح من دقة المبانى ما مُنح من رقة المعانى فسلم أسلوبه من ذلك التعقيد الذى أخلق ديباجته لكان شاعركم غير مدافع » ، ولكنه « لم يغادر معنى من معانى العرب والفرنجة إلا سلخه ومسخه . . . فما عسى يكون فخره علينا ؟ [٤] » .

وأخيرا يقول حافظ فى شوقى : « وصاحبنا لا يزال مهزول اللفظ ، غامض المعنى ، يحتاج الناظر فى كلامه إلى تخوت الرمل وطوالع التنجيم . وقد قصر همه على اصطحاب طائفة من الألفاظ لا يعدوها إلى غيرها حتى أصبح بعضها علامة تدل على شعره . . . ولقد نظرْتُ فى طريقة شعره فألفيتها فى الغارة على صحائف الأولين . فهو لم يغادر معنى فى خِدْره إلا سباه ولا لفظاً فى وكره إلا أزعجه» [٥] .

---

(١) مجلة أپولو (يوليه سنة ١٩٣٣) ص ١٣٤٣ .
(٢) مجلة أپولو ص ١٣٤٥ .
(٣) ليالى سطيح ص ٤٥ .
(٤) ليالى سطيح ص ٤٧ .
(٥) ليالى سطيح ص ٤٨ .

هذه بعض نفثات الحقد الذى كان يحمله حافظ فى زوايا نفسه لزميله أمير الشعراء شوقى .

وكان شوقى بالتالى يتنفّس على حافظ أمراً له شأنه، هو حسن إلقائه لقصائده. وكل من سمعه يُنشد قصائده فى المحافل يذكر مبلغ تأثيره العميق فى الجماهير بحسن إلقائه الخلاب . ويقول الشيخ عبد العزيز البشرى : «ولا أحسب شاعراً يجيد الإنشاد كما يجيده حافظ . وإن له لصوتا جهيراً فخماً رائع المقاطع ، فإذا هو وقف ينشد الجماهير هزها هزًّا ورفع بالترتيل حظ الكلام درجات على درجات »[1] .

ويقول صديقه المرحوم خليل مطران: «كان حافظ يلقى شعره بأفصح بيان ممكن ، ويضاعف قيمته بحسن إنشاده »[2] .

وكان الأديب الكبير الأستاذ عباس العقاد يعجب بحسن إلقاء حافظ ولباقة صوته وسحر إيمائه ، وقد قصّ علينا الكثير عن مقدرة حافظ فى هذا الباب ، وذكر أنه قال له ذات مرة : «إنك بأن تملأ قوالب الحاكى أحرى منك بطبع صفحات الدواوين » ، فكان — رحمه الله — يضحك ويقول : وتكون أنت "عقادى" على تخت الغناء »[3] .

ويقول المرحوم الأستاذ دسوقى أباظة فى سحر إلقاء حافظ : أىّ أديب لم يُبهَر إلى سماعه يتدفق فى الحفل بصوته الجهورى الممتع وإلقائه الخلاّب الذى كان يدوّى بين الجماهير فيضم سحراً وفخامة جديدين إلى ديباجته الساحرة الفخمة »[4] .

ويذكر الشاعر الأستاذ أحمد رامى أن شوقى كان ينظر إلى حافظ بعين مغيظة بسبب « حسن إلقائه الذى كان ينتزع من الجماهير التصفيق والإعجاب.

(١) ذكرى الشاعرين ص ١٥ .
(٢) مجلة الكتاب (أكتوبر سنة ١٩٤٧) ص ١٤٩٥) .
(٣) شعراء مصر ص ١٥ .
(٤) مجلة أپولو ص ١٣٤٣ .

فى حين أن شوقى كان يعجز عن إلقاء قصائده . يضاف إلى ذلك أن حافظاً كان يملأ المجالس بهجة وأنساً . أما شوقى فكان خاملا فى مجالسه ، يغلب عليه العىّ »[١] .

وما من شك فى أن شخصية حافظ ، وما طُبع عليه من سرعة الخاطر وحضور البديهة والقدرة على اقتناص النكتة البارعة ، ثم ما مُنح من جهارة الصوت وحسن الإلقاء ولباقة الإيماء ، مع بسطة فى الجسم ومتانة فى البنيان — كل ذلك كان له شأن ليس باليسير فى جذب الأسماع إليه وإعجاب الناس به وإقبالهم عليه .

ومن الغريب أن حافظاً — مع قدرته على حسن الإلقاء — لم يجرؤ مرة واحدة على أن يقف بين الناس خطيباً . وإذا أقيمت له حفلات التكريم كان صديقه مطران يمهد له بإلقاء كلمة ، ثم يقف هو ليلقى ما أعدّه من القريض ، فيطرب الجمهور الذى يصفق له إعجاباً ، وكأنه سمعه خطيباً .

* * *

أما بعد ، فهذه كلمة موجزة فى المقارنة بين الشاعرين الكبيرين تضاف إلى ما ذكرناه عنهما فى الفصول السابقة . وأظنك قد التقطتَ صورة واضحة المعالم لكل من الشاعرين ، وأدركت الفنون التى برّز فيها كل منهما وبزّ صاحبه ، وأرجعت ذلك إلى علله الصحيحة التى ترجع إلى النشأة والثقافة والاستعداد الفكرى .

وما من شك فى أن ثقافة حافظ العربية الخالصة قد حالت بينه وبين الابتكار والتجديد . وقد حاول أن يجدد ، ولكن لم تسعفه ثقافته ولا مواهبه كما أسعفت زميله شوقى ، هذا الشاعر الذى سار قدما فى طريق التجديد ، ولم يَحُلِ النقد المر الذى وُجه إليه من شانئيه بينه وبين المضىّ فى سبيله . وبذلك حقق للشعر العربى ما لم يكن يخطر على بال أحد . ولهذا اعتبره بعض مؤرخى

(١) مجلة المصور عدد ١٧١٢ بتاريخ ٢ أغسطس سنة ١٩٥٧ .

الأدب العربي من رجال الطبقة الأولى بين شعراء العربية ، واعتدّه البعض أعظم شاعر ظهر بين العرب فى جميع العصور .

وكان شوقى يشعر بعبقريته ويحس بجلال قدره ؛ فكان يشبه نفسه تارة بالبحترى .

إن الذى قد ردّهــا وأعادها فى بردتيك أعاد فىّ البحترى

وتارة بأبى نواس وتارة بأبى تمام وتارة بالمتنبي :

ولى درر الأخلاق فى المدح والهــوى وللمتنــبي درّةٌ وحصــاة

وكان كلفاً بمعارضة الفحول كما صنع مع البحترى والبوصيرى وابن زيدون . وقد عارض أيضا عينية ابن سينا .

وكان شوقى يحب أن يعرف الناس قدره وأن يولوه ما هو خليق به من التقدير والإعظام . ولهذا كان يحب الثناء ، ويفرَق من النقد ويضيق به ، حتى لقد قيل إنه كان يختصم من يتعرض لنقده .

ومن عجب أن الأستاذ العقاد لا يعترف لهذا الشاعر الفذ بسبق أو نبوغ ،. فهو يرى أنك لو قرأت شعره كله « وحاولت أن تستخرج من ثناياه إنساناً اسمه (شوقى) يخالف الأناسى الآخرين من أبناء طبقته وجيله لأعياك العثور عليه . ولكنك قد تجد هنالك خَلْقاً تسميهم ما شئت من الأسماء،وشوقى اسم واحد من سائر هذه الأسماء »(١) .

ولكنى أخالف الأستاذ الكبير فى ذلك كل المخالفة ، وأرى أن شوقى ذو شخصية متميزة واضحة الجوانب . وأنت حين تقرأ مطولة من مطولاته تشعر بهاتف يصيح من أعماق نفسك : هذا هو شوقى .

فشوقى فى الواقع قد جمع بين طبيعة الشاعر الفنان وطبيعة الشاعر المثقف الذى يستعين بالعقل إلى جانب الإحساس الدقيق فى رسم الصورة .

والحق أن هذا الشاعر العظيم قد أقام وحده للعربية سوقاً عرض فيها ألواناً من غذاء العقل والروح معاً . فقد أنقذ الأغانى من ابتذالها وفسولتها ، وجعلها

(١) شعراء مصر ص ١٥٦ .

شعراً حياً يمس شغاف القلوب ويحرك المشاعر ويبعث الهمم . ووضع للأطفال أقاصيص شعرية كانت خير ملهاة وأعظم مثقف لهم . وأخرج روايات تمثيلية لا عهد للعربية بها من قبل . . . وغير ذلك من ألوان الشعر وضروبه .

وبذلك فند مزاعم القائلين بعقم اللغة العربية وقصورها وعجزها عن مسايرة اللغات الحديثة .

ونحن لا ننكر أنه كان لحافظ بعض المزايا التى تحدثنا عنها بالتفصيل فى فصول سابقة . ولكن المزية — كما يقول أصحاب المنطق — لا تقتضى الأفضلية .

وإنى لأختم هذا الفصل بكلمة قيمة للدكتور طه حسين فى الشاعرين الكبيرين يقول فيها : «وشوقى لم يبلغ ما بلغ حافظ من الرثاء ، ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه وآماله ، ولم يتقن ما أتقن حافظ من إحساس الألم وتصوير هذا الإحساس وشكوى الزمان .

« لم يبلغ شوقى من هذا ما بلغ حافظ ، وهو بعد هذا أخصب من حافظ طبيعة وأغنى منه مادة وأنفذ منه بصيرة وأسبق منه إلى المعانى وأبرع منه فى تقليد الشعراء المتقدمين ، لأن حافظاً كان يقلد فى الألفاظ والصور ، وكان شوقى يقلد فيها وفى المعانى أيضا . ولشوقى فنون لم يحسنها حافظ ، وما كان يستطيع أن يحسنها . شوقى شاعر الغناء غير مدافع ، وشوقى شاعر الوصف غير مدافع ، وشوقى منشئ الشعر التمثيلى فى اللغة العربية .

« يلتقى الرجلان فى كثر ، ويفترق الرجلان فى كثير ، ولكنهما على كل حال أعظم المحدثين حظاً فى إقامة مجدنا الحديث »[1] .

(١) حافظ وشوقى ص ٢٢٣ .

٢

كتب حافظ

يجدر بنا قبل أن ننتهى من الحديث عن حافظ أن نسوق لمحة خاطفة عن الكتب التى تركها ، وعن نثره وما يمتاز به وتلك الكتب هى :

(١) ديوان شعره ، وقد طبع ثلاث مرات . وخيرها الطبعة الأخيرة (سنة ١٩٣٧) التى أشرف عليها المرحوم الدكتور أحمد أمين وزميلاه .

(٢) البؤساء Les misérables وهى رواية ألفها شاعر فرنسا الأكبر فكتور هيجو (Victor Hugo) ، وترجمها إلى العربية شاعرنا حافظ إبراهيم سنة ١٩٠٣ . وقد تحدثنا فى فصل سابق عن السبب الأكبر الذى حدا بحافظ إلى ترجمة هذا الكتاب ، وهو أنه يصوّر جانباً حيًّا من جوانب نفسه ، جانب البؤس والشقاء . فقد ألمّ بحياة البائسين الأشقياء . . . وضعه بائس وعربه بائس كما يقول حافظ .

وهناك أمر خليق بالنظر وهو أن حافظاً يذكر أن كتاب (البؤساء) خير ما أخرج (هيجو) للناس وهذا مما دعاه إلى ترجمته . ولكن هذا الكتاب فى الواقع ليس خير كتبه ، ولا تستطيع أن تلتمس فيه شخصيته القوية وعبقريته الفذة . ولو اقتصر قارئ على هذا الكتاب ليستكنه شخصية هذا الأديب العظيم لزعم أن (هيجو) ليس له هذا النبوغ الذى اختلب العقول .

فالبؤساء كتاب كغيره من الكتب ، ليس فذًّا فى بابه ولا فى فكرته ، كتابٌ فيه الحسن وفيه القبيح ، فيه كلام قيّم وفيه إطالة لا غناء فيها .

ولا ريب فى أن حافظاً قد وجد فى هذا الكتاب شيئاً من الراحة والعزاء ، لأنه يرى فيه أناساً غيره فى المجتمع البشرى يعانون من ضروب البؤس أشد مما يعانى وأقسى .

ولعل أهم ما يستوقفنا فى كتاب (البؤساء) الأسلوب العويص الذى قد يستغلق فهمه على العقول . فهو أسلوب بدوى خالص ملىء بالألفاظ الغريبة . . . قد تعجبك جزالته وقد تأسرك رصانة تراكيبه ، ولكنك تشعر بأنك تقرأ لكاتب يعيش مع الفرزدق وذى الرمة ورؤبة أيام كانت اللغة لغة الصحراء يصنعها الحُداة والماتحون ولا تنطق بها إلا الأشداق الواسعة العريضة والشفاه الضخمة الغليظة التى تحسن وصف الجواد بأنه « عظيم السليل ، سُحير ، أدكّ ، أهْنع ، وهو إن لم يكن أصيلا كان عَصْلباً »[1] كما ذكر حافظ فى بؤسائه .

ولعل حافظاً قد أحس بوعورة هذا الأسلوب فقام بشرح ألفاظه الصعبة للقراء فى آخر طبعة شهدها سنة ١٩٢٣ .

ولا شك فى أن حافظاً قد عنَّى نفسه فى تخير هذه الألفاظ الشاردة . وما كان أخلق حافظاً بأن يتوخّى أسلوباً سلساً يجمع بين الجزالة والرقة كما كان يصنع غيره من كتاب العصر الحديث لتقوى الآصرة بينه وبين قرائه . وما أظن إلا أن كل مؤلف يُهمّه أن يشيع علمه بين الناس وأن يذوقوا أدبه فى سهولة ويسر ، لا أن يسلك بهم دروباً مظلمة يضلّون فى حنادسها فلا يعرفون أيمانهم من شمائلهم .

وهناك غميزة أخرى بلقاء اغتمزتها فى حافظ . . . تلك أنه لم يكن دقيقاً فى ترجمته للكتاب ؛ فهو يلخص ولا يترجم . وأنا لا أدرى سر ذلك ، وأكاد أعزوه إلى أنه لم يكن يحسن الفرنسية إحساناً تامًّا ، ويقول أستاذنا طه حسين : « كان حافظ يلمّ بالفرنسية ولكنه لم يكن يتقنها لا نطقاً ولا فهماً »[2] .

وقد تصفحتُ النسخة الفرنسية ذاتها، وقارنتُ بعض صفحاتها بما يقابلها فى الترجمة فألفيتُ البون شاسعاً بين النصّين . وأنا لا أريد أن أتهم شاعرنا الكبير بعدم الأمانة فى النقل ، ولكنى أحب أن أقول إنه لم يعطنا صورة صادقة لما كتبه (هيجو) فى بؤسائه . وهذا — فيما أرى — من أشد الأمور خطراً على الأدب

---

(١) البؤساء ٢/٥٢ طبعة مطبعة (أبو الهول) .

(٢) حافظ وشوقى ص ١٩٦ .

والعلم ، فليس للترجمة قيمتها حقاً إلا إذا كانت صورة صحيحة للأصل فى أسلوب ممتع جذاب .

وقد لاحظت أن حافظاً قد ترك الصحيفة الأولى برمتها من الكتاب ولم يُشر إليها بحرف واحد . وليس من المعقول أن يكون ذلك ناجماً عن السهو أو الخطأ المطبعى .

(٣) « ليالى سطيح » وقد ألفه حافظ فيما بين سنتى ١٩٠٧ و ١٩٠٨ وحذا فيه حذو المرحوم الأديب « محمد المويلحى » فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » . فهو عبارة عن مقامة نقدية اجتماعية بثّ فيها حافظ خواطره وآراءه فى الأدب والسياسة والمجتمع المصرى ، ووصف فيها حال مصر وهى ترزح تحت نير المستعمرين ، وندّد بأعمال الإنجليز ولكن فى شىء من الحذر والترقب .

(٤) « كتيب فى التربية الأولية » ترجمه حافظ عن اللغة الفرنسية بتكليف من وزارة المعارف ، وقامت بطبعه مطبعة المعارف سنة ١٩١٢ . ولم يجد حافظ فى ترجمته لهذا الكتاب العسر والمشقة اللذين وجدهما فى ترجمته للبؤساء ، لأن لغته الأصلية سهلة لا تكلف المترجم كثيراً من العناء .

(٥) « الموجز فى علم الاقتصاد » ، وقد ندب المغفور له « أحمد حشمت باشا » وزير المعارف إذ ذاك الشاعرين الكبيرين حافظ إبراهيم وخليل مطران لتعريب هذا الكتاب وتولت طبعه مطبعة المعارف سنة ١٩١٣ . ومن غريب الأمر أن يترجم الشاعر حافظ إبراهيم كتابا فى الاقتصاد وهو رجل مبسوط اليد ، لا يعرف إمساك النقود ولا ضبط المعدود . فقد كان سخياً سخاء لا حد له ، يصادفه المعترّ فيعطيه كل ما فى يده ولو كان به خصاصة، « ولو ملك الدنيا كلها لفرقها فى يوم واحد » كما يقول المرحوم الدكتور أحمد أمين[1] ، وكان زميله مطران آية فى الكرم والإيثار .

وقد أحسن حشمت باشا الاختيار حين ندب هذين الأديبين لهذا العمل . فمطران كان متمكناً من الفرنسية خير تمكن ، وحافظ كان بحراً طامياً فى العربية .

(١) مقدمة الديوان ص ١٧ .

ويقولون إن مطران هو الذى حمل العبء الأكبر من الترجمة . أما حافظ فكان له بعض المشاركة فى صوغ الأسلوب العربى ، ويذكر بعضهم أنه لم يُسهم فى ذلك إلا بمقدمة الكتاب فقط .

والمعربان يذكران أنهما لاقيا فى سبيل ذلك كثيراً من المشاق حتى لقد حدثتهما نفساهما بالنكوص والتوقف ، ولكنهما مضيا فى الشوط إلى غايته وفى الطريق إلى نهايته ، حتى حال العناء إلى لذة وانقلب الإحجام إلى إقدام كما يقولان[1] .

وربما كان أهم ما أزجاه هذان الشاعران للعربية من ترجمة كتاب فى (الاقتصاد) أنهما وضعا ألفاظًا عربية للمصطلحات الفرنسية فى هذا العلم الذى كان جديداً على لغتنا فى ذلك الحين ، وبذلك زوّداها بكلمات جديدة . وقد أُسيغت بعض مصطلحاتهما وأخذت طريقها إلى الاستعمال ، وجَمُد بعضها مكانه وحل محله ما كان أخف دورانًا على الألسن . ولكنهما على كل حال قد نهضا بالمهمة بقدر ما استطاعا واستحقا جزيل الشكر .

* * *

هذه هى الكتب التى تركها حافظ ، وقد لاحظت فى كتاب «البؤساء» أنه التزم الأسلوب المرسل الذى لا يتقيد بالسجع والمحسنات البديعية إلا قليلا ، ولكنه أسرف فى اختيار حوشى الألفاظ وغريبها .

أما أسلوبه فى « ليالى سطيح » ففيه عناية بالزخارف البديعية إلى جانب الاهتمام بالغريب . وهذه الخصيصة ظاهرة فى أساليب كتاب ذلك العصر من أمثال الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكرى وإبراهيم اليازجى وغيرهم . وكان شوقى أمير الشعراء ينحو هذا النحو العتيق فى كتابته . وأنت تجده فى كتابه (أسواق الذهب) يبذل أقصى الجهد فى تزيين أسلوبه بالمحسنات البديعية وبخاصة السجع والازدواج ، حتى ليخيل إليك أنك تقرأ للقاضى الفاضل فى القرن السادس الهجرى . وتراه يلتزم هذه الطريقة فى المقدمات التى يقدم بها قصائده

---

(١) انظر مقدمة كتاب الموجز .

الكبرى ، كقوله فى مقدمة قصيدته السينية « الرحلة إلى الأندلس » :

« لما وضعت الحرب الشؤمى أوزارها، وفضحها الله بين خلقه وهتك إزارها ، ورم لها ربوع السلم وجدّد مزارها ، أصبحتُ وإذا العوادى مقصرة والدواعى غير مقصرة ، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب والنفس بحق زيارته أطلب ، فقصدته من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجدّ والبخار المشتد ، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط ، فبلغت النفس بمرآه الأرَب واكتحلت العين فى ثراه بآثار العرب . . . »(١).

ورواية لادياس التى ألفها فى أخريات القرن الماضى من هذا اللون الذى يُحفَل فيه بالسجع والبديع .

وليس من شك فى أن شوقى كان يسير فى هذا الدرب مطاوعةً لزمانه وجرياً على ذوق عصره . فلما انصرم زمان السجع وهبَّ شباب الأدباء يحاربون هذا الضرب من النثر رأينا أمير الشعراء يتخلى شيئاً فشيئاً عن هذه الطريقة الفاضلية . وهذا واضح فى آخر إنتاجه ، وهى مسرحية (أميرة الأندلس) التى وضعها عام ١٩٣٢ قبيل وفاته ، فليس فيها من السجع إلا القليل الذى يجىء عفو الخطر(٢).

والحق أن النابهين من شباب الأدب قد أخذوا فى الثلث الأول من هذا القرن يحاربون الحفاظ على هذا الأسلوب العتيق ، ويدْعون إلى تحرير النثر من تلك الأصفاد التى ظل مقرّناً فيها قروناً طويلة. وكان على رأس هؤلاء الداعين المنفلوطى والمازنى والعقاد رحمهم الله ، وطه حسين مدّ الله فى حياته . وكانت حملاتهم فى هذا الميدان قوية مثمرة . انظر إلى ما يقوله أستاذنا الدكتور طه فى هذا الباب : « لا يخدعنّك ما ترى من هذه الزينة اللفظية والبهرج البديعى والبيانى من سجع وتكلّف فى الاستعارة والتشبيه والكناية والتورية وما إليها . فليس هذا كله إلا تكلّف المعدم البائس يريد أن يظهر مظهر المثرى. إنما مثل هؤلاء الكُتّاب الذين يتكلفون ألوان البديع والبيان فى غير فائدة ولا جدوى مثل هذه المرأة أعوزها

---

(١) الشوقيات ٢/٥٢ .

(٢) انظر رواية (أميرة الأندلس) طبعة دار الكتب سنة ١٩٣٢ .

الجمال الفطرى فهى تتكلف الزينة ، وأعوزها حُرّ الحلى فهى تخدع الناس ببهرجه وزائفه »[١] .

وقد كان لهذه الحملات العنيفة أثرها البالغ فى أن تتحرّر النثر من تلك القيود البغيضة وأصبح طليقاً مرسَلا يقْرِى العقل والقلب لذة وإمتاعاً .

وقد تأثر حافظ بهذه الدعوة وأخذ يتخلص إلى حد ما من الجرى وراء شوارد الغريب والزخارف اللفظية التى رأيناها فى كتابى البؤساء وليالى سطيح . وهذا ظاهر بيِّن فى كتابى « كتيب فى التربية الأولية والموجز فى علم الاقتصاد» . فأنت تقرأ فيهما أسلوباً مرسلا حرًّا ، فيه وضوح وفيه سهولة ، وبخاصة الكتاب الأول ليكون ملائماً لطلاب العلم والثقافة. وحافظ يشير إلى ذلك فى مقدمة الكتاب فيقول : « ولم أنزل به إلى منزلة الساقط المرذول ، ولم أرتق إلى ذروة البلاغة ، ولكن جعلتُ لى سبيلا قصداً بين الغايتين »[٢] .

والواقع أنه تأثر بالدعوة إلى التحرر تأثراً كبيراً .

* * *

وبعد ، فهذا هو حافظ إبراهيم شاعر النيل كما رأيته ، وأشهد أنى أخلصْتُ فى دراسته كل الإخلاص ، لم أتحيّف فى الرأى ولم أتحرّف فى القول. وقد يأخذ عنى البعض أنى قسوتُ عليه بعض الشىء فى كثير من المواطن ، ولكنى أُشهِد الله أن ذلك لم يكن عن قِلَى أو حاجة فى النفس، وإنما أردت أن أرضى الحق والتاريخ والفن جميعا .

وعسى أن يجد القراء فى هذا الكتاب صورة واضحة المعالم للرجل فى إطار من النزاهة والنصَفة ، والله ولى التوفيق . . .

---

(١) حافظ وشوقى ص ٦٩ .

(٢) انظر مقدمة «كتيب فى التربية الأولية » .

رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٣١١١
الترقيم الدولى	977-02-3654-3	ISBN

١ / ٩٢ / ٣٢

طبع بمطابع دار المعارف ١٩٩٢ (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

دراسة وافية لهذا الشاعر الذى أكد وجوده فى الشعر المعاصر بثقافته المتنوعة ، وشعره الذى يتميز بخصائص فنية ، وقفت إلى جانب أقرانه من شعراء عصره .

وقد حرص المؤلف على تناول سيرة حياته وكيف أثرت على إبداعه فيما بعد ، ثم تناول شعره ومعالمه ومقوماته ، ثم انتهى إلى عقد موازنة بينه وبين شوقى أمير الشعراء .

والكتاب بذلك إضافة شاملة إلى عالم هذا الشاعر وفنه وقرائه ومحبيه .